المزيد من الكتب المنسقة على موقع أهل التأويل www.attaweel.com

النقد الأدبي في القرن الثامن الهجري

بين الصفدي ومعاصريه

تأليف
محمد علي سلطاني

منشورات دار الحكمة
دمشق ص.ب ٧٨٧

مكتبة كلية الفقه العامة

النقد الأدبي في القرن الثامن الهجري

بين الصفدي ومعاصريه

تأليف
محمد علي سلطاني

تاريخ الإرجاع / / ١٩
١٨١٦٨

منشورات دار الحكمة
دمشق ص.ب ٧٨٧

مطبعة الحجاز بدمشق
١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م

حقوق إعادة الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

صمم الغلاف أحمد راتب سلطاني

إهــدائي

إلى ولــدي ســامر

الطريق الى الفــلاح . إرادة .. ودأب ... وإخــلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

كوة على الكتاب

لقد حظي النقد العربي والتأريخ له باهتمام العديد من الأقلام المعاصرة، بدأت معه منذ أن كان فطرياً وليداً يعتمد الذوق البسيط والانطباع الجزئي في العصر الجاهلي، وسارت معه في تطوره وصعوده إلى أن بلغ أوج نشاطه عند الآمدي المتوفى سنة ٣٧١ هـ، وسعة ثرائه لدى القاضي الجرجاني المتوفى سنة ٣٩٢ هـ، ثم ظفره بنفحة جديدة بين يدي عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ، إلى أن تحول إلى بلاغة حددتها عقول مفكرة، صاغها المنطق، وغذتها الفلسفة بلبانها، فحولت النقد إلى جملة من القواعد والقوالب، لم يزدها الزمن إلا تفرعاً وجفافاً، توارى معها الذوق، وتعثر القول، وتحنط التعبير.

إلى هنا ويشعر مؤرخو النقد العربي أن مهمتهم قد انتهت، دون أن يفوتهم الإشارة إلى صحوة الموت في « المثل السائر » لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ، قبل أن يشب بهم القلم إلى الملخصات البلاغية العقيمة، وشروحها المبسوطة، وحواشيها المتزاحمة.

ولم أتوقف حيث توقفوا، كما لم أتجاوز القرون معهم إلى الملخصات والشروح؛

بل توغلت في هذا الضباب بعد ابن الأثير قرناً آخر حتى بلغت بلاد الشام في عهد المماليك ، وإذا بغـــابة عذراء فيها الكثير من المفاجآت ؛ تتوسطها واحة لا تخلو من الظلال المثيرة حقاً ، إنه الأديب صلاح الدين الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ.

عرفه الكثيرون في آثاره الكبيرة بأسلوبهـــا المرسل « كالوافي بالوفيات » وعرفته — من خلال كتبه الأخرى « كالغيث المسجم » و « نصرة الثائر على المثل السائر » وغيرهما — ناقداً فذاً رفع لواء الذوق عاليـاً ، مستمداً من ذوق متطلع غني بالتجارب الفنية مع الرسم والشعر ، متميزاً بنظراته الطريفة ؛ الصائبة ؛ حين جاء بالجديد المحكم فيما يتعلق بالتخيل وإبداع المعاني ، ثم في أسلوبه التطبيقي الواسع في ممارسة النقد ؛ إذ راح يخوض في بحر زاخر من نصوص الأدب ومختاراته في مختلف عصوره مما ضمه حفظه ، محللاً مقارناً ، يسبقه إلى ذلك ذوقه وسعـة اطلاعه ودقة اختياره ، بعيداً كل البعد عن القواعد الجافة والأصول المفروضة المسبقة ؛ مما وُسم به النقد في تلك القرون المتطاولة . كما كانت له جولات بعيدة من الخصومات النقدية مع أعلام الأدب في عصره وما قبله ، مما تجده مبسوطاً فيما يطالعك من فصول هذا الكتاب .

كل ذلك مما ألمحت إليه وغيره . . قدم لي جزئيات غنية وافرة تتضـــام وتتعاون لتقدم لنا في النهاية صورة وافية جلية للنقد الأدبي في القرن الثامن الهجري .

★ ★ ★

وقبل أن أدعوك للجلوس مع هذا الكتاب على مائدة الصفدي الجديدة ؛ أتقدم بلمحات سريعة مقتضبة تكون لما أسلفت عنواناً ، ولما سيأتي من الفصول إشارة ودليلا .

وأبرز ما يجذبنا للإشارة إليه في هذا العصر هو الصنعة . فبينما تذهل الصنعة

أديب هذه الفترة ليجري في إثرها يتطلبها بكل سبيل ؛ يطلع عليهم الصفدي لا ليتخلى عن الصنعة التي يشاركهم تذوقها ؛ بل ليبين لهم أن لهذه الصنعة مجالها وموطنها ، مفرقاً في ذلك بين ما يُكتب للتفقه والمتعة ؛ وبين ما هو تعبير عن المشاعر والوجدان :

« فمثل هذه الأشياء من اللغز والأحجية والأغاليط ، والإتيان بالكلمة المعجمة وبعدها المهملة ، وبالحرف المعجم وبعده المهمل ، أو صدر بيت كذا وعجزه كذا.. كل ذلك لائق بالمقامات . أما في الترسل والخطب فإنه يكره ويستثقل ، لأن الترسل ليس المراد منه التفقه في الأدب ؛ وإنما هو لهناء أو عزاء أو شكر أو مدح أو وصف أو استعطاف أو عتب أو شوق أو غير ذلك . ومثل هذه الأشياء لا يليق بها التكلف »[1] .

« ألا ترى أن العماد الكاتب – رحمه الله تعالى – لما جعل كلامه مشحوناً بالجناس ، لا تكاد كلمة تخلو من ذلك ثقل على الأسماع والقلوب »[2] .

ويلتفت بعد هذا ناحية الشعر ليقيم المبدأ نفسه ، وينأى بشعر الوجدان عن تيار الصنعة الجارف ، ليحصرها في حدود « المقاطيع » الموضوعة مضماراً لأفانين الصنعة والقدرة على إيرادها ، فيقول في معرض حديثه عن الشاعر الطغرائي : « وله مقاطيع شعر في الصنعة ، وله ديوان شعر على عادة الشعراء »[3] .

ثم يضيف – بعد أن أورد لابن الفارض من قصيدته نظم السلوك – قوله : « وهذه الأشياء لا يخفي على ذي الذوق السليم ما فيها من الاستثقال ، ولم أقل هذا الكلام

---

(١) نصرة الثائر ٣٦٩ (٢) المصدر السابق ٣٧٠

(٣) الغيث المسجم ١/٨

جهلاً بقدار الشيخ شرف الدين بن الفارض - رحمه الله - وأنه لم يكن من الفصحاء . ألا ترى قصائده التي أخلاها من الجناس مثل الميميتين والجيمية واللامية والمهموزة وغيرها فما أرقها وأحلاها »[1] .

* * *

كما أهم الصفدي ما شاع من تداول شعراء عصره للتراكيب والصور القديمة ، يستمدونها بيسر من التركة الأدبية الجليلة التي تناهت إليهم ، حتى فقدوا كل شعور بالحاجة إلى الابتكار بله القدرة عليه . فبدأ ذلك بقوله : « واعلم أن للشعراء ألفاظاً صارت بينهم حقائق عرفية وإن كانت في الأصل مجازات ، لكثرة دورانها في كلامهم وتعاطيهم استعمالها ، لأنهم ألفوا ذلك من تداولها وتكرارها على مسامعهم . من ذلك الغصن إذا أطلقوه فهم منه القوام ، والكثيب إذا أطلقوه فهم منه الردف . . »[2]

هذه الملاحظة وأشباهها ساقته للتفكير في المعاني والبحث في مصادرها وأسرارها ، فكان من أبرز ما جاء به نظراته في التخيل وإبداع الصور الشعرية ، ودور الحواس والمخيلة والنفس في عملية الإبداع هذه ، متنبهاً إلى عمل الذاكرة الفعال في أثناء النوم وليس في اليقظة فحسب بما يعرف باللاشعور في مفهوم عصرنا . ولم يهدأ في في هذا حتى وصل إلى قرار تسكن إليه نفسه ، مما ترى تفصيله في ألفاف هذه الدراسة .

كما يلتفت إلى ماتسميه الرمزية بالمبادلات بين الحواس ، منطلقاً من تأمله في صور الأضراء من الشعراء ، كبشار بن برد ، وأبي العيناء ، وابن سيده ، وأبي العلاء المعري

---

(١) الغيث المسجم ٢/٣٧   (٢) المصدر السابق ١/٢٦٦

ممن أتى بغرائب الصور مع إظلام نافذة البصر لديهم ، ليصل إلى أن المشاهدة ليست هي السبيل الوحيد لاستمداد عناصر التصوير بقوله : « إن استنباط المعاني لا يفتقر فيه إلى المشاهدة ، وقد جاء في الوجود جماعة من العميان الذين لم يشاهدوا الصور في الخارج ؛ وأتوا بالتشبيهات البديعة »[1]. مستشهداً لذلك بالشعر المختار المعبر عن مراده . كقول بشار بن برد :

وحديثٍ كأنَّهُ قِطَعُ الرَّوْ ... ضِ وفيه الصَّفْراءُ والبَيْضاءُ

ويجول بنا في ناحية أخرى في حديقة التصوير هذه حين يورد للمعري في ذم الشيبة قوله :

وَاذْكُرِي لي فَضْلَ الشَّباب وما يَجْ ... مَعُ من مَنْظَرٍ يَرُوقُ وطِيبِ
غَدْرُهُ بالخليلِ أمْ حُبُّهُ لل ... غَيِّ أمْ أنَّه كَدَهْرِ الأديبِ

ليعقب على ذلك بقوله : « وهذا هو تشبيه المعقول بالمحسوس ، وهو أعلى مراتب التشبيه طبقة ، لأنه ينشأ عن لطف ذوق ، وسلامة فطرة ، وصحة تخيل . فهو صعب على من يرومه ، متقاعس عمن جذب زمامه ؛ لأن العلوم العقلية تستفاد من الحواس في المقادير والألوان والطعوم والرائحة وطيب النغم ونعومة الملمس وخشونته . . ولهذا قالوا : من فقد حاسة فقد علماً[2] »

وهكذا أدرك الصفدي أن النفس كل متكامل ، لا يستقل جانب منها بالإبداع وحده ، وليست الحواس إلا منافذ النور التي تطل منها على المشاهدات والأصوات والمحسوسات . . فتتلاقى كلها في بوتقة النفس التي تصهرها بحرارة انفعالها ،

---

(١) نصرة الثائر ١٨٧ — (٢) الغيث المسجم ١/٢١٠ - ٢١١

لتعكس هذا الانفعال بعد ذلك صوراً رائعة تقرّب ما يبدو متباعداً ، وتعبر عن المشاعر النفسية بصور حسية ؛ تحمل تلك المشاعر وتعمق الإحساس بها .

ثم أورد الصفدي لهذا النوع من التشبيه الرفيع من شعر الشعراء ما يؤكد نضج هذه اللمحة لديه وأصالتها عنده . من ذلك قول الشاعر :

كَأَنَّ انْتِضاءَ الْبَدْرِ تَحْتَ غَمامِهِ ... نَجاةٌ من البأساءِ بَعْدَ وُقوعِ

وقول ابن الهبارية :

كَمْ ليلةٍ بِتُّ مَطْوِيّاً على حُرَقٍ ... أَشْكو إلى النَّجْمِ حتى كادَ يَشْكوني

والصُّبْحُ قد مَطَلَ الشَّرْقُ الْمرورَ بِهِ ... كأَنَّهُ حاجَةٌ في نَفْسِ مِسْكِينِ

وقول أبي طالب الرقي :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَالظَّلامُ كأَنَّهُ ... يَوْمُ النَّوَى وفُؤَادُ مَنْ لم يَعْشَقِ

★ ★ ★

هذا غصن من غاب ، وزهرة من روض ؛ مما كشفْتُ عنه من نقد هـذا القرن ، وضمنته فصول هذا الكتاب ، تلك الفصول التي هدفْتُ منها رسم صورة وافية للنقد الأدبي في القرن الثامن الهجري ، زادها غنى وجلاء ما كان من اهتمامي بإبراز شخصية الصفدي الناقد ، بوصفه واحداً من ألمع أدباء ذلك القرن ، وبما حفلت به حياته كذلك من خصومات نقدية مثمرة ، أسفرت عن العديد من النظرات في شؤون الأدب ونقده .

رجوت من ذلك كله أن أعكس حال النقد في عصر ساده بين الدارسين الكثير من التعميم والغموض ، لا يصح معه الاكتفاء بما تحمله اللافتة المتريحة « عصور الانحطاط » بما تناثر حولها من أحكام سريعة متداولة ، تفتقر إلى الدقة والجلاء تحت أنوار جولة موغلة متلمسة .

وإن كان في هذه الدراسة من جديد ، فإنني لأظنها من أوائــــل الأبحاث الشاملة المتأنية ، التي طافت في مجاهل العصور المتأخرة ، وغاباتها العذراء الوعرة . ذاكراً لأستاذي الكبير الدكتور شكري فيصل فضله العميم ، في فتح هذه الآفاق أمامي وإنارتها بالعديد من سديد آرائه وتوجيهاته .

كما أتوجه بالشكر الوفي الى الأستاذ الناقد الدكتور عبد القادر القط ؛ والأستاذ العالم المحقق الدكتور رمضان عبد التواب ؛ والأستاذ الفاضل رشاد عبد المطلب ؛ والأخ الدكتور محيي الدين رمضان ، بما أبدوه وقدموه من نظراتهم وملاحظاتهم ، أو مكتباتهم الخاصة لإخراج هذا العمل .

فإن أحسنت فتلك بغيتي ، وإن قصرت دون الغاية فشفيعي أنني لم آل إلى الأحسن جهداً .

والله من وراء القصد هو حسبي ونعم الوكيل .

دمشق في ١٨ شعبان ١٣٩٣ هـ
١٥ - ٩ - ١٩٧٣ م

محمد علي سلطاني

فهرس الموضوعات

الباب الأول

البيئة الحضارية

- تقـــديم ١٩ - ٢٠
- **الفصل الأول** : الحياة العامة في مصر والشام في عهد المماليك البحرية :
  - الحالة الادارية ٢١ - ٤١
  - الحياة الاجتماعية ٤٢ - ٦٠
  - الحياة الثقافية ٦١ - ٧٣
- **الفصل الثاني** : حياة الصلاح الصفدي وآثاره ٧٤ - ٩١
- **الفصل الثالث** : الخصومة حول « المثل السائر »
  - بين ابن أبي الحديد وابن الأثير ٩٢ - ٩٧
  - بين الصفدي وابن الأثير ٩٨ - ١٠١

الباب الثاني

الناقـــد الصفدي

- تقـــديم ١٠٥ - ١٠٧
- **الفصل الأول** : الصفدي الناقد بين معاصريه ١٠٨ - ١١٠

الموضـــوع	الصفحة
ـ **الفصل الثاني** : الصفدي الناقد من خلال كتبه	
ـ موهبتـــه	١١١ - ١٢٠
ـ ذوقـــه	١٢١ - ١٣٣
ـ غزارة محفوظه	١٣٤ - ١٤٢
ـ تواضعـــه	١٤٣ - ١٤٤
ـ تجرده الفني	١٤٥ - ١٤٦
ـ منهجه في النقد	١٤٧ - ١٦٠
ـ **الفصل الثالث** : لمع من آرائه :	
ـ اللفظة المفردة	١٦١ - ١٦٧
ـ التركيب	١٦٨ - ١٧٠
ـ الموهبـــة	١٧١ - ١٧٣
ـ ثقافة الأديب	١٧٣ - ١٧٧
ـ في النحو	١٧٨ - ١٨١
ـ التقعيد للأدب	١٨٢ - ١٨٥
ـ الصنعـــة	١٨٦ - ١٩٥
ـ التخيـــل وإبداع المعاني	١٩٦ - ٢٠٤
ـ في الشعر	٢٠٤ - ٢٢٦
ـ **الفصل الرابع** : مقاييس النقد عنده :	
ـ الأساس التأثري	١٢٧ - ٢٢٩
ـ « الديني	٢٣٠ - ٢٣١
ـ « الاجتماعي	٢٣١ - ٢٣٣
ـ « الثقـافي	٢٣٤ - ٢٣٥
ـ « الفـني	٢٣٥ - ٢٣٨

البـاب الثـالث

الحياة الأدبية والنقدية في القرن الثامن

- **الفصل الأول** : صورة العصر الأدبية :

- مفهوم الأدب	٢٤١ - ٢٤٤
- المثل الأدبية العليا	٢٤٥ - ٢٥٢
- ثقافة العصر وأثرها في الإنتاج الأدبي	٢٥٣ - ٢٥٨
- تأثير ديوان الإنشاء	٢٥٩ - ٢٦٣
- العملية الشعرية	٢٦٤ - ٢٦٩
- مفهوم النقد وروحه السائدة	٢٧٠ - ٢٧٨
- بين الكاتب والشاعر وأسباب التخلف	٢٧٩ - ٢٨٤

- **الفصل الثاني** : موضوعاته الكبرى

- السرقة الأدبية	٢٨٥ - ٢٩٣
- المعـارضـات	٢٩٤ - ٢٩٧
- حل المنظوم	٢٩٨ - ٣٠٨
- **الفصل الثالث** : منافذ التجديد	٣٠٩ - ٣٣٣
- خاتمـــة	٣٣٤ - ٢٣٥

الباب الاول

البيئة الحضارية

الفصل الأول

الحياة العامة في مصر والشام في عهد المماليك البحرية

من سنة ٦٥٦ ه الى ٧٨٤ ه

تقديم

لم أر بدأ قبل البحث في حياة الصفدي ونقده ؛ من سعي لكشف جوانب الحياة العامة التي أحاطت به ، وتنفس في جوها ، فكان لها التأثير بقدر ما في تكوينه وتلوين إنتاجه ، مما ينير لنا الميدان الذي كان يضطرب فيه بين مصر والشام ، في دولة المماليك البحرية ، ويفسر العديدَ من الظواهر والنظرات في أدبه ومقاييسه ، إذ لم يكن الصفدي بعيداً بشخصه عن تيارات الحياة العامة تلك وهو يتولى المناصب الحساسة في كبرى عواصم الدولة آنذاك .

ولكي يكون الحديث مركّزاً بيّن الخطوط واضحَ القسمات أعمد الى تحديد منطلقه بدءاً من سقوط بغداد حيث وُلدت دولة المماليك ، خاصة وأن سقوط بغداد يشكّل مفترقاً رئيسياً ، اتخذت بعده السُبل طرقها الجديدةَ للتكيُّف مع الوضع الجديد ، الذي فرض نفسه على المنطقة باستيلاء التتار ذوي البأس والأطماع الواسعة على بغداد والمشرق كله ، ومدوا بأبصارهم النهمة شطرَ بلاد الشام ومصر .

هذا من الناحية السياسية ، أما من الناحية الاجتماعية فان الصدمة الكبرى التي

هزت العالم الاسلامي بسقوط منارته الأولى بغداد ؛ قد أثّر على مشاعر الناس ، وزاد من تعاطفهم وحذرهم ، وغيّر شيئاً من علاقاتهم . كما أن هذا الحدث الكبير ترك من الناحية العلمية والثقافية آثاراً واضحة ، من إتلافه لكنوز اللغة والعلم في بغداد ، وقتله للعلماء ، وفرارِ مَن نجا مين هؤلاء العلماء الى مصر وبلاد الشام ، مما سيترك أثراً في حياة هذين البلدين العلمية والتأليفية .

لهذه العوامل جميعها ، رأينا أن نجعل عام ٦٥٦ ه بدءاً للحديث في هذه المقدمة العامة بين يدي البحث الأدبي .

الحالة الإدارية :

بدأت هذه المرحلة مع مقتل المملوك عز الدين أيبك ، على يد شجرة الدر ، وتسلم ولده الصغير نور الدين علي مقاليد الحكم بوصاية المملوك قطز .

وردد الناس في مصر ، أخبار الكتب التي أرسلها هولاكو الى الناصر الأيوبي صاحب دمشق ، جاء في أولها ما صورته :

« يعلم السلطان ملك الناصر طال بقاؤه ، أنه لما توجهنا الى العراق ، وخرج الينا جنودهم ، فقتلناهم بسيف الله ، ثم خرج الينا رؤساء البلد ومقدموها ، فكان قصارى كلامهم ؛ سبباً لهلاك نفوس تستحق الهلاك ، وأما ما كان من صاحب البلدة ؛ فانه خرج الى خدمتنا ودخل تحت عبوديتنا ، فسألناه عن أشياء كذبنا فيها فاستحق الاعدام ، فكان كذبه ظاهراً ووجدوا ماعملوا حاضراً . أجب ملك البسيطة ولا تقولن قلاعي المانعات ورجالي المقاتلات ، وقد بلغنا أن شذرة من العسكر التجأت اليك هاربة ، والى جنابك لائذة .

أين المفر ولا مفر لهارب   ولنا البسيطان الثرى والماء

فساعة وقوفك على كتابنا تجعل قلاع الشام سماءها أرضاً وطولها عرضاً والسلام»

فتجاهل الناصر هذا الكتاب ، ولم يجب عنه كما لم يستجب لما جاء فيه . فورد اليه من هولاكو كتابه الثاني تلفه لهجة الارهاب والتهديد يقول فيه :

« خدمة ملك ناصر طال عمره ، أما بعد ، فانا فتحنا بغداد ، واستأصلنا ملكها ومليكها ، وكان قد ظن ـ وقد ضن بالأموال ولم ينافس بالرجال ـ أن

مُلْكه يبقى على ذلك الحال ، وقد علا ذكرُه ونما قَدْرُه ، فخُسف في الكمال بدره .

إذا تَمَّ أَمْرٌ بَدا نَقْصُهُ ... تَوَقَّعْ زَوَالاً إذَا قِيلَ تَمّْ

ونحن في طلب الازدياد على مَرّ الآباد ، فلا تكن كالذين نسوا اللهَ فأنساهم أنفسَهم ، وأبْدِ ما في نفسك إما إمساكٌ بمعروف أو تسريح باحسان ، أجِبْ دعوةَ مَلِكِ البسيطة ؛ تأمَنْ شرَّه وتنال بِرّه ، واسْعَ اليه باموالك ورجالك ، ولا تعوِقْ رُسُلَنا والسلام » .

فصبر الناصرُ على هذا الكتاب . فأرسل هولاكو كتاباً ثالثاً أرْغى فيه وأزْبد واشتد وتوعّد فقال :

« أما بعد فنحن جنودُ الله ، بنا ينتقم ممن عتا وتجبر ، وطغى وتكبر وبأمر الله ما ائتمر . إنْ عوتبَ تَنمَّر ، وان روجع استمر ، ونحن قد أهلكْنا البلاد وأبَدْنا العباد وقتلْنا النسوان والأولاد ، فيا أيها الباقون انتم بمن مضى لاحقون ، ويا أيها الغافلون انتم الينا تساقون ، ونحن جيوش الهَلَكة لا جيوش المَلَكة ؛ مقصودُنا الانتقام ، ومُلْكُنا لا يُرام ، ونزيلنا لا يُضام . وعَدْلُنا في مُلْكنا اشتهرْ ، ومن سيوفنا أينَ المفر .

أَيْنَ المفرُّ وَلاَ مَفَرَّ لِهارِبٍ ... وَلَنا البسيطانِ الثَّرَى والماءُ

ذَلَّتْ لِهَيْبَتِنَا الأُسودُ وأَصبحَتْ ... في قَبْضَتِيْ الأُمَراءُ والخلفاءُ

نحن اليكم صائرون ، ولكم الهرب وعلينا الطلب .

« دَمّرْنا البلاد ، وأيْتَمْنا الأولاد ، وأهلَكْنا العباد ، وأذَقناهم العذاب ، وجعلنا عظيمَهم صغيراً ، وأميرَهم أسيرا . تحسَبون أنكم منا ناجون أو متخلصون ، وعن قليل سوف تعلمون على ما تُقْدِمون ، وقد أعْذرَ مَنْ انذر »(١) .

وهنا شعر الناصر بالخطر ولم يَقْوَ على الصبر ، فسارع بارسال الصاحب كمال

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣١٤ - ٣١٥ .

الدين العديم الى مصر ، يطلب النجدة على التتار ، فجمع قطز الامراء والأعيان للتشاور ، وبعد ايام يسيرة خلع السلطانَ الصغير وقال : هذا صبي والوقت صعب ، ولا بد من أن يقوم رجل شجاع ينتصب للجهاد. وتسلطن قطز ولقب بالملك المظفر.

وفي هذه الأثناء؛ جاءت الاخبار بزحف هولاكو نحو الشام ، ففى سنة ٦٥٧ استولى على الجزيرة الفراتية ، وفي سنة ٦٥٨ دخل حلب وقتل فيها ما يزيد على قتلى بغداد ، ووصل إليه في حلب الملك الأشرف الأيوبي صاحبُ حمص ، فأكرمه هولاكو وأعاده الى حمص ، ثم أرسلَ صاحبُ حماة مفاتيحها الى هولاكو في حلب ، فاستناب عليها رجلاً من العجم . وأمر صاحب حمص بهدْم اسوار قلعة حماة ، فخُرِّبت وأُحْرِقتْ زَرْدَخانتها [1] . وأما دمشق فان نائب هولاكو قدم الى اهلها بالفرمان [2] والامان ، فتلقاه كبراء المدينة ، وأنفذت مفاتيح دمشق الى هولاكو [3] . ووصل هولاكو الى غزة بعد أن قتل الناصرَ صاحبَ دمشق وفر بقايا الايوبيين الى مصر .

وبعد ان تم لهولاكو كل هذا ؛ بعث الى المظفر قطز كتاباً جاء فيه : « يعلم الملك المظفر قطز ، الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا ؛ أنا نحن جندُ الله في أرضه ، خلقنا من سُخْطه ، فاتعظوا بغيركم وأسلموا الينا أمركم » [4] .

غضب قطز ، وقتل رسول هولاكو ، وردّ عليه بكتاب يتوعده ، وعاهده المماليك على الاستماتة في سبيل البلاد وسار المظفر اليهم فكان اجتماعهم على عين جالوت

---

(١) مستودع الاسلحة .

(٢) مراسيم السلطان .

(٣) النجوم الزاهرة حوادث سنة ٦٥٨ .

(٤) السلوك للمقريزي القسم الثاني من الجزء الاول ص ٤٢٧ وما بعدها .

يوم الجمعة ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ ، فاقتتلوا قتالاً عظيماً ، وكان مع التتار بعض الامراء الايوبيين ، فهزمهم المسلمون هزيمة كبرى ، وقتل أمير المغول كتبغانوين ، وأسر ممن معه الملكُ السعيد الايوبي ، فأمر المظفر بضرب عنقـه ، واستأمن الأشرفُ الأيوبي صاحب حمص وكان مع التتار وقد جعله هولاكو نائباً على الشام كله ، فأمّنه وردّ اليه حمص ، وارسل المظفر الاميرَ بيبرس لملاحقة التتار في كل مكان ، الى أن وصلوا خلفهم الى حلب ، وهرب من كان منهم بدمشق ، وتبعهم العرب يقتلون فيهم ويخلّصون الأسرى منهم .

وقد أظهر بيبرس شجاعة ومقدرة ، جعل السلطان يتنازل له عن حلب ، ثم لم يفِ بوعده ، فأضمر بيبرس الشر ، ثم اتفق مـع بعض الأمراء على قتله ، فقتلوه في الطريق ، ولم يحكم سوى سنة وتولى بيبرس مكانه . من ٦٥٨ الى ٦٧٦ هـ ، ولقبوه بالظاهر ، وكان حازماً بطلًا فعم الخير ، فانتشرت الطمأنينة بحكمه .

خاف التتار من هذا ، فأثاروا سِنْجِر صاحبَ الشام ضده ، فنادى بنفسه سلطاناً وتلقب بالملك المجاهد ، فسار بيبرس نحوه ، فتلقاه التتار فهزمهم وسار نحو دمشق ، ففتحت له أبوابها ، فقضى على سنجر واعوانـه فهدأت البلاد وعكف بيبرس على الاصلاح وتشييد المدارس التي ما تزال آثارها باقية .

وأقدمَ بيبرس على إحياء الخلافة العباسية ، بعـد أن بقي المسلمون ثلاثَ سنوات بدون خليفة ، وذلك تدعيماً لمصر ، ورفعاً لشأنها ، بجعلِ القاهرة مقرّ الخلافة الاسلامية ، فقد علم بوجود واحدٍ من بني العباس قد نجا من مجزرة هولاكو ببغداد ، وهو الامام احمد بن الظاهر عمُّ المستعصم آخر الخلفاء ، فاستدعاه الى مصر وتلقـاه بنفسه ، ثم عُقد مجلسٌ شرعي ثُبِّت فيه نسبُ الامام ، وبويـع بالخلافة سنة ٦٦٠[1] ولقب بالمستنصر بالله .

---

(١) في عصر الانحدار سنة ٦٥٩ والأرجح عندي سنة ٦٦٠ فابن كثير يذكر بيعة الحاكم بأمر الله سنة ٦٦١ وخلافة المستنصر دامت خمسة أشهر فقط .

ثم أراد الملك الظاهر أن يسترجع بغداد للخلفاء العباسيين من يد التتار ؛ فأعد جيشاً وسار مع الخليفة المستنصر بالله ، فلما وصلوا دمشق ؛ عاد بيبرس الى مصر ، وتقدم المستنصر بالله قاصداً بغداد ، وقبل أن يصلها لقيه التتار فقاتلوه وقتلوه وأكثر جيشه ، ولم تدم خلافته اكثر من خمسة اشهر ، فتولى بعده ابنه وتلقب الحاكم بأمر الله سنة ٦٦١ ﻫ .

وحاول الصليبيون الاستفادة من الظروف للاغارة على دمشق « فهزمهم بيبرس وفتح كثيراً من المدن والقرى ، وفي سنة ٦٦٣ أغار على عكا فرأى أنها لا تُنال فتوجه إلى قيسارية ففتحها ، واشترك هو في هدم أسوارها ، ثم وجه جيشه الى بلاد أرمينية وهدم عاصمتها سيس وفي سنة ٦٦٤ فتح صفد ، وبعد سنتين فتح يافا وهدم قلعتها ، ثم طرابلس ، ثم فتح انطاكيه وفتـــك بالصليبيين وملوكهم ، واتجه الى حصون الصليبين على الساحل السوري ففتحها واحداً واحداً ، وفي سنه ٦٧٠ سار لمحاربة الباطنيين في شمال سوريا والعراق فقضى عليهم ، وعاد الى القاهرة .

« ثم توجه الى ارمينية وفتحها من جديد ، وقيل في خوضه الفرات مع جيشه الشعر الكثير[١] » .

وفي سنة ٦٧٣ « اطلع السلطان على ثلاثة عشر أميراً كاتبوا التتار يدعونهم الى بلاد المسلمين فأخذوا وأقروا بذلك وكان آخر العهد بهم[٢] » .

« وفي سنة ٦٧٥ علم بقدوم التتار من آسيا الصغرى ، فنهد اليهم والتقى بجمعهم قرب حلب وكان له النصر ، ثم عاد القاهرة فوجد بها خمسة وعشرين رسولاً من جهة ملوك الارض ينتظرونه فتلقوه وحدثوه وقبلوا الارض بين يديه ودخل القلعة في أبهة عظيمة[٣] » .

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٢٦٣
(٢) البداية والنهاية ١٣ / ٢٦٨
(٣) البداية والنهاية ١٣ / ٢٦٩

ثم جهّز أسطولاً لغزو قبرص فحطمته الرياح ، وأسر الفرنج من كان فيه ، فلم يَثنِ ذلك همة بيبرس بل أمر بانشاء اسطول آخر للأخذ بالثأر ولكنه مات قبل أن يُتم ما عزم عليه ، ففي سنة ٦٧٦ سار الى انطاكية متفقداً ، فمرض وتوفي في طريقه الى دمشق ، ودفن فيها تحت قبة المدرسة الظاهرية .

بايع الامراءُ بعده ابنه الأمير محمد بركة خان وتلقب الملك السعيد وهو في التاسعة عشرة ، وكان فيه نزق الشباب ولهوه ، فأبعد أمراء أبيه وقرّبَ الشباب الصغار فخلعوه سنة ٦٧٨ ونُفي الى الكرك ثم مات .

ولى الأمراءُ بعده اخاه بدر الدين سلامش وهو في السابعة ، وأقاموا سيف الدين قلاوون أتابكاً [1] له ، ولم يلبث قلاوون أن خلع بدر الدين ، وأعلن نفسه سلطاناً ، وتلقب بالملك المنصور ، فلما علم بذلك سنقر الأشقر الذي كان قلاوون قد عيّنه نائباً للسلطنة في دمشق ؛ اعلن انفصاله وبايعه امراؤه على السلطنة ولُقِب بالملك الكامل ، فأرسل المنصور اليه جيشاً فانهزم سنقر ، وهرب الى الرحبة ، وكاتبَ التتار وأطمعهم في مُلك الشام ، فلم يتوانوا عن اهتبال هذه الفرصة . « فبينما كانت البلاد كذلك اذ أقبلت التتار لما سمعوا بتفريق كلمة الأمة . فانجفل الناس من بين أيديهم من سائر البلاد الى الشام ومن الشام الى مصر . فوصلت التتار الى حلب فقتلوا خلقاً كثيراً ونهبوا ... وكتب المنصور الى سنقر الأشقر بأن التتار قد داهمونا ، والمصلحة أن نتفق عليهم لئلا يهلك الشعب بيننا وبينهم فكتب اليه سنقر بالسمع والطاعة وبقي مستعداً لقتال التتار ، فما لبثوا أن علموا برجوع التتار من حلب الى بلادهم ، وذلك لما بلغهم من اتفاق كلمة الأمة [2] .

وفي سنة ٦٨٠ سار قلاوون الى الشام لاصلاح احوالها ، فبلغه ان التتار يقصدون الإغارة على الشام ، فلبث حتى وافاه جيش التتار بقيادة منكوتمر بن

---

(١) الأتابك بمعنى الوصي والمربي . (٢) البداية والنهاية ٢٩١/١٣

هولاكو ، فالتقى الفريقان في ظاهر حمص ، وحصل قتال عنيف أنتصر فيه المسلمون انتصاراً باهراً وقتلوا اميرهم منكوتمر .

انتهز الصليبيون هذه الظروف فاغاروا على البـــلاد ، فزحف اليهم قلاوون وأخضعهم ، وفي سنة ٦٨١ توفى اباقاخان بن هولاكو وتولى الملك بعده تكدار ابن هولاكو فاسلم وتسمى احمد » وأرسل الى السلطان المنصور يطلب منه المصالحة وحقن الدماء فيما بينهم ، فاجاب المنصـــور الى ذلك وكتب المكاتبات الى ملك التتر بذلك (١) .

وفي سنة ٦٨٨ زحف المنصور الى طرابلس » وكان لها في ايدي الفرنج من سنة ٥٠٣ ففتحها ولم ينج من أهلها الا اليسير ، ثم امر أن تهدم البلد ، وأن تبنى على ميل منها بلدة غيرها ، أمكن منها واحسن ففعل ذلك ، وهي هذه البلدة التي يقال لها طرابلس(٢) » . ثم عاد المنصور الى مصر واخذ يتجهز لفتح عكا ، ولكن المنية أدركته سنة ٦٨٩ فكانت مدته احدى عشرة سنة ونيف .

تولى بعده ابنه صلاح الدين خليل وتلقب بالملك الأشرف ، وأراد تتميم مقصد أبيه » ونودي في دمشق الغزاة في سبيل الله الى عكا ، فأبرزت المجانيق الى ناحية الجسورة وخرجت العامة والمتطوعة يجرون في العجل حـــتى الفقهاء والمدرسون والصلحاء ، واجتمع الناس بالجوامع لقراءة صحيح البخاري . فحاصرها وفتحها وفتك بالصليبين ، وامر بهدمها وتخريبها ، ثم استولى على صيدا ثم بيروت وهدم اسوارها ، ففرح العرب ودقت البشائر في سائر الحصون ، ولم يبق بالسواحل ولله الحمد معقل للفرنج ، واراح الله منهم البلاد والعباد » (٣) .

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٢٩٩

(٢) المصدر السابق ١٣ / ٣١٣

(٣) البداية والنهاية ١٣ / ٣٢٠

وهكذا كانت حملة الأشرف خليل ثالثة الحملات العنيفة على الصليبين بعد بيبرس وصلاح الدين الايوبي .

بيد أن أوربا لم ترض بهذا ، فجهزت الحملة الصليبية السابعة والأخيرة التي انتهت الى الهزيمة والتشتت ولجأ بعض الصليبيين الى جبال سورية ، فكانوا شوكة في جنب الدولة ومصدر اعتداء على السهول المجاورة ، وقد قام بتأديبهم الاشرف خليل .

وفي سنة ٦٩٢ توجه السلطان الى حلب ، ومنها الى آسية الصغرى لقتال المغول ومن معهم من الأرمن ، فاعمل فيهم السيف وفتح بلاد ارزن الروم، وعاد الى القاهرة وقد ذاع صيته وهابه الناس ، وقيلت قصائد الشعر في الاشادة باعماله[1] .

وفي أول سنة ٦٩٣ اقدم بعض الامراء ، وعلى رأسهم نائبه بيدرا على قتله ، أثناء ذهابهم للصيد « فتألم الناس لفقده ، وقد كان شجاعاً عالي الهمة حسن المنظر وكان قد عزم على غزو العراق ، واسترجاع تلك البلاد من أيدي التتار ، واستعد لذلك ونادى به في بلاده[2] » . فكانت مدة ولايته ثلاث سنين حافلة بالفتوحات الجليلة . ومن آثاره بالقاهرة « خان الخليلي » نسبة اليه ، وقد بناه على انقاض مدافن الخلفاء الفاطميين .

تولى مكانه قاتله بيدرا وتلقب بالملك القاهر ، ولكن مماليك الملك الاشرف قتلوه بعد يوم واحد ، فولى الامراء محمد بن قلاوون أخا الملك الاشرف وهو في التاسعة من عمره ولقبوه بالملك الناصر ، وعينوا الامير زين الدين كتبغا أتابكاً له علماً بأن كتبغا هذا تتري « من سبي وقعة حمص الاولى التي كانت في أيام الملك الظاهر بعد وقعة عين جالوت ، وهو من طائفة التتر العويراتية[3] » ولم يلبث

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٣٢٧

(٢) البداية والنهاية ١٣ / ٣٣٥

(٣) البداية والنهاية ١٣ / ٣٣٨

كتبغا ان خلع الناصر ونفاه الى الكرك ، ونادى بنفسه سلطاناً ، وتلقب بالملك العادل سنة ٦٩٤ وكان سيء الادارة ، اصيبت البلاد في عهده بالمصائب من طاعون وقحط « فكان الفناء والغلاء بديار مصر شديداً جداً ، فمات بها في شهر صفر مائة الف ونحوٌ من ثلاثين الفاً ، حتى أفنيت الحُمُر والخيل والبغال والكلاب من أكل الناس لها ، ولم يبق شيء من هذه الحيوانات يلوح الا أكلوه [١] » .

وزاد الأمر سوءاً استقدامُه طائفةً من التتر العويراتية ، وكانوا حوالي ثلاثمائة رجل الى مصر « فقدموا لما بلغهم سلطنةُ كتبغا الى الشام ، فتلقاهم الجيش بالرحب والسعة ، ثم سافروا الى الديار المصرية ، ومكّنهم من وظائف الدولة فعاثوا فساداً ، حتى قال الشاعر محمد بن دينار :

رَبّنَا اكْشفْ عَنّا العَذَابَ فإنّا قَدْ تَلفْنَـا في الدّوْلَةِ المُغْليّـهْ

جاءَنَا المُغْلُ وَالغَـلا فانْسَلَقْنَـا وَانْطَبَخْنَـا في الدّوْلَةِ المَغْليّـهْ [٢] »

ثم ثار الناس على كتبغا ففر الى دمشق ، وكان قد خلعه فيها نائبه حسام الدين لاجين ، وتسلطن على مصر والشام سنة ٦٩٦ ، وتلقب بالملك المنصور ، وبدأ عهده فسجن العويراتية في الاسكندرية .

وفي سنه ٦٩٧ أغار المنصور على بلاد سيس وأذنة الارمنية وعاد بالغنائم ، « ثم أمر بعمل غارة ثانيه فخاف ملك الارمن وارسل اليه يطلب الصلح ، فشرط عليه ان يكون الحد الفاصل بين مُلْك مصر ومُلْك الارمن نهر جيحون فاجابه ملك الارمن الى ذلك [٣] » .

وفي سنة ٦٩٧ فرّ الأمير سيف الدين قبجق نائب دمشق وجماعةٌ من الامراء

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٣٤٣
(٢) خطط المقريزي ٣ / ٣٥
(٣) دائرة المعارف محمد فريد ابو حديد ٩ / ١٠٣

الى بلاد التتر بحجة « ان السلطان قد تقلت خاطرُه نحوهم » وفي سنة ٦٩٨ بعث السلطان بجيش الى حلب بقيادة قفجاق للقاء المغول ، فانضم الى غازان ملك المغول ، فاراد السلطان السير بنفسه الى حلب ، فقتله أحدُ أنصار قفجاق سنة ٦٩٨ .

تولى بعده الامير سيف الدين طقجى وتلقب بالملك القاهر ، فقتله بعد يوم واحد انصار الملك الناصر بن قلاوون نزيل الكرك ، فاتفق الامراء على إعادة الناصر سلطاناً واعيد سنة ٦٩٨ وهو في الخامسة عشرة . وفي هذا العام نفسه دخل الناصر الى دمشق في طريقه للقاء التتار « فكثرت الأدعية وامتلأ البلد من الجافلين النازحين من بلاد حلب وحماة ، واقتُرضت أموال الاسرى لأجل تقوية الجيش ، وخرج السلطان بالجيش من دمشق ، وخرج معهم خلق كثير من المتطوعة ، واخذ الناس في الدعاء والقنوت والتقى الجيش بالتتار عند وادي سلمية فهُزم الجيش وولى السلطان هارباً . فخرج أهل دمشق خاضعين ، واستطاع الاعيان وعلى رأسهم ابن تيمية ان ينالوا الأمان من غازان لأهل دمشق [١] » .

ولكنه أمان التتار فقد نكبوا البلد وسبوا منه خلقاً كثيراً ، كما بـذل الاغنياء الكثيرَ إنقاذاً لأموالهم ، فقد ذكر الشيخ وجيه الدين بن المنجا انه حمل الى خزانة غازان ثلاثـة آلاف الف وستمائة الف درهم ، سوى ما تمحّق من التراسيم والبراطيل [٢] وما اخذه غيره من الامراء والوزراء . وأن شيخ المشايخ حصل له نحو ستمائة الف درهم ، والأصيل بن النصير الطوسي مئة الف ، والصفي السخاوي ثمانون الفاً [٣] » .

ليت شعري ألا يجدر به وهو المالك لهذا وغيره أن يُقدّم شيئاً منها لإعداد حماته وأمثاله ؛ بدل أن يقترضوا لتجهيز هذا الجيش أموالَ اليتامى والأسرى ! .

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٦
(٢) أي الرسوم والرشاوى .
(٣) البداية والنهاية ١٤ / ٩

وهكذا أمست دمشق تحت سلطة التتار الذين انابوا عليها قبجق الذي « طلب القضاة والاعيان وحلفهم على المناصحة للدولة المحمودية ـ يعني غازان ـ فحلفوا له[1] » ولكن هذا لم يدم اكثر من مائة يوم ، اذ سرعان ما أعاد السلطان الناصر تنظيمَ جيشه وزحف الى الشام ، وهزم المغول ودخل دمشق ، فتركها غازان ، وانتقل السلطان منها الى حماة وحلب وفعل بهما ما فعل بدمشق .

« وقامت في دمشق حملة على المتعاونين مع العدو ، فشُنق منهم طائفة ، وسُمِّرَ اخرون ، وكُحِّلَ بعضهم ، وقطعت ألسن ، ثم نودي في البلد أن يُعلق الناس الاسلحة بالدكاكين وأن يتعلم الناس الرمي . ثم استعرض نائب السلطنة اهل الاسواق بين يديه ، وجعل على كل سوق مُقدَّماً وحوله أهل سوقه »[2] .

وفي سنة ٧٠٠ قصد التتار بـــلاد الشام ، فدخلوا حلب وخيف زحفُهم الى دمشق ، وتردد السلطان في القدوم بجيشه الى بلاد الشام ؛ خوفاً من هزيمة تجعل البلاد كلها في ايدي التتار ، وذهب ابن تيمية الى مصر ، فلم يزل بهم حتى جرد العساكر الى الشام ، وزحف المغول سنة ٧٠٢ بمئة الف مقاتل ، وعلى رأسهم قطلوشاه وتلاقى الجيشان في شقحب قرب دمشق « وثبت السلطان الناصر ثباتاً عظيماً وأمر بجواده فقيد حتى لا يهرب ، وبايـع الله تعالى في ذلك الموقف ، وحلف جماعةٌ من الفقهاء والعامة على القتال ، الى ان نزل النصر على المسلمين قريب العصر يومئذ »[3] .

انتهز صليبيو الجبال هذه الاحداث ، فأخذوا يغيرون على المدن وبخاصـــة صيـــدا وصور وبيروت ، فبعث اليهم آقوش الأفرم نائب دمشق جيشاً لضربهم ، فهُزم الجيش وغنمه الصليبيون . وفي سنة ٧٠٣ بعث السلطان الناصر جيشاً لقتالهم ، كما قام آقوش الأفرم بحملة سنة ٧٠٤ بعد خروج الشيخ ابن تيمية لغزوهم ففتح بلادهم .

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ١٠
(٢) البداية والنهاية ١٤ / ١١
(٣) البداية والنهاية ١٤ / ٢٦

وفي سنة ٧٠٨ يستفحل الخصام بين سلار نائب السلطنة وبيبرس رئيس القصر ، وانقسمت البلاد وحاول السلطان التخلص منهما فأحسا ، فأظهر أنه ينوي الحج ، فلما انتهى الى الكرك اقام به وتنازل عن السلطنة ، فتولى السلطنة بيبرس وتلقب بالملك المظفر ، واستمر سلار نائباً للسلطنة .

بيد ان امراء المماليك لم يكونوا مخلصين له ، فأخذوا يستميلون الناس سراً الى الملك الناصر قلاوون ، فاستجاب الناصر لهم وسار الى دمشق واستولى عليها ، ثم سار نحو مصر فخلع بيبرس نفسه ، ثم اعتقل بعد أحد عشر شهراً من السلطنة ، وبويع الناصر للمرة الثالثة سنة ٧٠٩ ، واستمرت سلطنته حتى سنة ٧٤١ ، حيث صفا له الجو ثلاثاً وثلاثين سنة ، فصرف جُل اهتمامه للاصلاح ، كما سير الجيوش الى بلاد الأرمن .

وبلغ من هيبة الدولة في زمنه ما جعل الفرنج يتهيبون الاقتراب من السواحل غازين أو معتدين ، فأرسلوا اليه سنة ٧٣٠ « رسلاً منهم يطلبون منه بعض البلاد الساحلية ، فقال لهم : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، ثم سيّرهم الى بلادهم خاسئين [1] » . كما حاول التتار وكان سلطانهم خدابنده فتح البلاد الشامية سنة ٧١٢ ، بمساعدة بعض امراء المماليك المتمردين فاخفق ، وكتب الناصر الى سلطان المغـــول أبي سعيد سنة ٧٢٠ وعقد معه صلحاً ساد بعده الهدوء من ناحية التتار ، واستمر ذلك الى أن كانت نكبة تيمورلنك لبلاد الشام سنه ٨٠٣ ، وللعراق وسائر المشرق قبل هذا التاريخ .

وقد أتاح هذا الهدوء الذي نعم به الناصر ؛ الفرصة للالتفات الى جهاز الادارة ومحاولة اصلاحه بعد أن سرى فيه الفساد حتى كاد يغلب عليه .

فقد أصدر السلطان سنة ٧١٢ امراً غايته « ان لايولّى احد بمال ولا برشوة

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ١٤٨

فان ذلك يفضي الى ولاية من لايستحق الولاية ، والى ولاية غير الاهل [1] » . كما اهتم بامر الذين يمدون ايديهم الى اموال الامة من ولاة الامور بالقبض والعزل ، وملاحقتهم بما أخذوا . ومما يلفت النظر حقاً كثرة هذه الحوادث حتى عدّد منها ابنُ كثير [2] ما يزيد على العشرة بين سنتي ٧٢٣ - ٧٣٨ .

من هذه الحوادث ما كان يفعله الصاحب عز الدين غبريال ناظر الدواوين بدمشق سنة ٧٥٨ « فلقد ثبت انه كان يشتري أملاكاً من بيت المال ويقفها ويتصرف فيها تصرف الملاك لنفسه [3] » .

وفي سنة ٧٦١ سيتسع أمر هذه الظاهرة مما يدعو الى ان « يرد من الديار المصرية اميرٌ معه مرسوم بالاحتياط على دواوين السلطان بسبب ما أكلـــوا من الاموال المرتبة للناس من الصدقات السلطانية وغير ذلك [4] » .

وكان من اعمال الناصر الغاوه إقطاعات المماليك ، فقد كانت مصر مقسمة الى ٢٤ قيراطاً : يختص السلطان بأربعة ، والمماليك والاجناد يختصون بعشرة ، والباقي وقدره عشرة موزعة بين الاهلين جميعاً .

كما صدر « مرسوم آخر فيه إطلاق السُخر في الغصب وغيره عن الفلاحين [5] » وغيرها كثير من المراسيم الاصلاحية « حتى بلغت دولة المماليك أوجها في عهده [6] »
توفي السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤١ مخلفاً ثمانية من الابناء الذكور، فأسلم البلاد بهذا الى فوضى في الحكم لم تعرف له نظيراً ، فقد راح الامـــراء

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٦٦
(٢) المصدر السابق ١٤ / ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٨٠
(٣) المصدر السابق ١٤ / ١٥٨
(٤) المصدر السابق ١٤ / ٢٦٩
(٥) المصدر السابق ١٤ / ٧٠ .
(٦) تاريخ مصر الحديث ، جرجي زيدان ٣٣٩/١ .

يتلاعبون بالسلاطين أبنائه وفقاً لأهوائهم واطماعهم ، فما ان يولوا واحداً حتى يخلعوه ويجلسوا أخاه ، وهكذا حتى توالى على عرش السلطنة أولاده الثمانية في خلال اربعة عشر عـــاماً .

وقل أن يُكتفى بخلع السلطان بل يتعدى ذلك الى النفي أو السجن أو القتل في بعض الاحيان ، كما حصل لثلاثة من أبنائه . وبعد أن نفد أبناؤه الثمانية يمم الأمراء شطر أبناء هؤلاء المخلوعين ، فسرت نحو هؤلاء التعساء مصائرُ العزل والنفي والقتل ، فكان من هؤلاء الأبناء محمد بن المظفر الذي قتل أبوه من قبلُ ، فكان مصيره على يد يلبغا العزل والاعتقال سنة ٧٦٤ ، بعد أن تولى عامين ، وكان في الرابعة عشرة . ثم تلاه الأشرف شعبان بن حسن ، الذي قُتل أبوه كذلك من قبل ، فلقى مصير أبيه خنقاً سنة ٧٧٨ هـ .

ومما يزيد الأمر سوءاً ؛ أن أكثر هؤلاء قد نُصبوا على السلطنة ، وهم في سن الطفولة الغضة ، مما يحفز الامراء الكبار على الاقتتال للتسلط عليهم ، ثم ينجلي الصراع عن الاطاحة بالسلطان وبواحدٍ من الطرفين المتنافسين . فكان لا بد لهذه المهازل المضحكة المبكية ، التي انهمك الامراء في تمثيلها على مسرح الحكم في مصر من اخر . فجاء برقوق ليكتب خاتمتها سنة ٧٨٤ بعد أن امتدت ما يزيد على الاربعين عاماً.

وكان برقوق هو الأمير الكافل للسلطان الطفل المسمى بالمنصور زين الدين حاجي ، فجمع في رمضان سنة ٧٨٤ الخاصة من الجنود والعلماء والاعيان ، فاجمعوا كلهم على بيعة برقوق ، وعزلِ السلطان الصالح . وانتهت بولاية السلطان الظاهر برقوق دولةُ المماليك البحرية ، لتخلفها ابتداء منه دولة المماليك الجراكسة ، وذلك نسبة الى أصل ملوكها .

ويحق لنا أن نسأل عن مكان الخليفة وموقفه مما كان يجرى في البلاد من تنافس وصراع وعزل وتنصيب لنقول : لقد كان الخليفة يشترك في عمليات الخلع

والتنصيب ليلفها بستار من الشرعية والحق لا غير [1] . ولم يحصل أن إعترض الخليفة على أمر أراده الامراء ، لأنه يعلم جيداً أن استشارته في هذا وكتابته التقليد بالحكم ليس إلا إجراء شكلياً قد أبرم القرار فيه .

أما اذا كان في الأمر تنافس وصراع حول السلطة ؛ فما على الخليفة الا الإذعان للمنتصر شاء أم أبى ، بل إنه سيشاء ويخلع عليه ويكتب تقليده . اذ لم يكن يصعب على السلاطين سجن الخلفاء أو نفيهم ببساطة ويسر ؛ عند ادنى تصرف لا يعجبهم ، فكيف بالاعتراض على عزل أو تنصيب . والأمثلة على هوان أمر الخلفاء وتجرؤ السلاطين [2] بل الأمراء [3] عليهم بالقبض أو السجن والنفي كثيرة ، لا يتسع لها مجال . كما يطلعنا المقريزي على مدى ما وصل اليه حال الخلفاء من الهوان والاهمال فيقول :

« وفي سنة ٧٤٨ أقيم للخلافة المعتضد بالله ابو بكر ، واستقر مع ذلك في نظر مشهد السيدة نفيسة رضي الله عنها ليستعين بما يرد الى ضريحها من نذور العامة على قيام أوده . فان مرتب الخلفاء كان على مكس الصناعة ، وحسبه ان يقوم بما لا بد منه في قوتهم ، فكانوا أبداً في عيش غير موسَّع ، فحسُنت حال المعتضد بما يبيعه من الشمع المحمول الى المشهد النفيسي ونحوه [4] » .

ولقد كان من حسن حظ البـــلاد ؛ أن اعداء الامة التقليديين من الفرنج والتتار ؛ لم يكن لهم وجود في المنطقة خلال هذه الفترة المضطربة من تاريخ دولة المماليك ، فالفرنج كانوا قد استؤصلوا وتطهرت أرض الشام منهم ، على يد السلطان الاشرف خليل سنة ٦٩١هـ إلا من لجأ الى الجبال ، من بقايا الحملة الصليبية السابعة

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٤٧ ، ٢٠٠ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٣٢٠ - ٣٢٢
(٢) تاريخ الخلفاء ص ٣٢٣
(٣) تاريخ الخلفاء ص ٣٣٣
(٤) الخطط ٣/٣٩٤

التي ارسلتها اوروبا بعد هذا التاريخ ، وهؤلاء وان كانوا شوكة في جنب الدولة ؛ الا انهم لا يشكلون خطراً على كيانها ، شأن أسلافهم قبل سقوط عكا سنة ٦٩٠

وأما التتار فكانت دولتهم قد انقرضت من العراق والمشرق كله منذ عام ٧٣٨ هـ ، لتقوم مقامها في العراق الدولة الجلايرية الجديدة ، على يد رئيسها الشيخ حسن الكبير ، وكانت تربطها بدولة المماليك روابط المودة والتعاون ، حتى إن الموصل وسنجار خطبتا[1] لسلطان مصر دون اعتراض حكام الدولة . وقد استمرت هذه الدولة تحكم العراق حتى بدأ نجم تيمورلنك بالظهور سنة ٧٨٦ هـ .

ملاحظات ونتائج :

نخلص من هذا كله الى ما يلي :

١ - رغم كل ما مر آنفاً من مآخذ المماليك ، فقـــد اتبعوا نظاماً حفظ للبلاد تماسكها ، كما حفظ بالتالي قوتها أمام الاعداء . فقد قسموا البلاد الى تسع ممالك ينوب عن السلطان في كل منها نائب للسلطنة ، يعاون هذا النائب اربعة قضاة ونائب للقلعة وامير كبير . ونائب السلطنة في كل الممالك يعينه السلطان ويعزله او ينقله ، واذا حدث أن خرج أحدهم على طاعة السلطان ، استطاع السلطان ان يكلف من يريد من نوابه الاخرين بالمسير اليه واخضاعه ، أو ان يسير اليه بنفسه . ومهما يكن من امر فان النائب الخارج عن الطاعة ؛ يُعد في نظر الجميع متمرداً ولا يقوم له امر ، كما انه ليس بصاحب حق وهو المملوك ، كما كان الحال عند الامراء الايوبيين ، مما سبب في حينه تمزق البلاد الى مدن وقلاع يسود التناحر والحذر علاقاتها .

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٢٩٣

٢ - كما اثبت المماليك انهم أهل سياسة وحرب ، فاستطاعوا أن يديروا دفة البلاد غير مكتفين بصيانتها والدفاع عنها ، بل لقد افلحوا في تطهير ارضها من ممالك الفرنج من انطاكيه الى بيت المقدس ، على يد ثلاثة من اعيان ملوكهم ، وهم الظاهر بيبرس ٦٥٨ - ٦٧٦ ، والمنصور قلاوون ٦٧٨ - ٦٨٩ وابنه الاشرف خليل ٦٨٩ - ٦٩٣ الذي تحطمت امام همته اسوار عكا وتم على يديه تطهير البلاد من كل اثر للصليبيين .

كما وقفوا سداً منيعاً أمام جحافل التتار واجتياحهم للمعمورة ، فذاقوا امامهم عدداً من الهزائم بما لم تعرفه من قبل جيوشهم الظافرة .

والمتتبع لتفاصيل هذه المعارك وغيرها يعجب بما يلمسه من اقدام المماليك واستماتتهم في جهادهم[1] كما بدت من بعضهم روح فدائية عالية . ففي معركة حمص سنة ٦٨٠ « استشهد جماعة من سادات الامراء منهم الأمير الكبير الحاج عز الدين ازدمر جمدار وهو الذي جرح ملك التتار يومئذ منكوتمر ، فانه خاطر بنفسه وأوهم أنه منشقّ إليه ، وقلب رمحه حتى وصل اليه ، فطعنه فجرحه فقتلوه رحمه الله »[2] .

فقد اقدم على هذه المخاطرة وهو يعلم ان سيوف التتار ستمزقه لا محالة ، فكان لابد من النصر اذن وقد تهيأت اسبابه في صدق العزيمة ، والسعي الى الموت حتى النصر .

ويزول عجبنا الى حد كبير اذا انصتنا الى المقريزي ، وهو يخبرنا عن كيفية تربية هؤلاء المماليك وإعدادهم فيقول : « إذا قدم بالمملوك تاجره ، عرضه على السلطان ، ونزّله في طبقة[3] حسنة ، وسلّمه لطواشي برسم الكتابة . فأول ما

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٢٥٥
(٢) البداية والنهاية ٢٩٦/١٣
(٣) مكان الاقامة ، وتشبه الثكنة في عصرنا

يبدأ به تعليمه ما يحتاج اليه من القرآن الكريم ، وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ، ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى ، ومعرفه الخط والتمرن بآداب الشريعة ، وملازمة الصلوات والاذكار .

« وكان الرسم اذ ذاك (اوامر السلطان) ان لا تجلب التجار الا المماليك الصغار ، فاذا شب الواحد من المماليك ؛ علمه الفقيه شيئاً من الفقه واقرأه فيه مقدمة . فاذا صار الى سن البلوغ أخذ في تعليمه انواع الحرب : من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك ، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج اليه . واذا ركبوا الى لعب الرمح أو رمي النشاب لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم . فينقل الى الخدمة ويتنقل في اطوارها رتبة بعد رتبة الى أن يصير من الامراء . فلا يبلغ هذه الرتبة الا وقد تهذبت اخلاقه وكثرت آدابه وامتزج تعظيم الاسلام واهله بقلبه ، واشتد ساعده في رمي النشاب وحسُن لعبه بالرمح ومرن على ركوب الخيل .

« ولهم أزمّة من الخدام ، وأكابر من رؤوس النُّوَب ، يفحصون عن حال الواحد منهم الفحص الشافي ، ويؤاخذونه أشدّ المؤاخذة ويناقشونه على حركاته وسكناته ، فان عثر احد من مؤدبيه الذي يعلمه القرآن ، أو الطواشي الذي هو مسلَّم اليه ، أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه ، على انه اقترف ذنباً ، أو اخل برسم ، أو ترك أدبا من آداب الدين ؛ قابله على ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة بقدر جرمه .

« وبلغ من تأديبهم أن مقدم المماليك كان إذا أتاه بعض مقدّمي الطِّباق في السحر يشاور على مملوك انه يغتسل من جنابة ، بعث من يكشف عن سبب جنابته إن كان من احتلام فينظر في سراويله ، هل فيه جنابة أم لا ، فإنْ لم يجد جنابةً جاءه الموت من كل مكان ، ويعلق المقريزي على هذا فيقول :

« فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك ، وقادة يجاهدون في سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل ويردعون من جار أو تعدى [1] » .

كان هذا قبل أن يتولى الناصر بن قلاوون ، لأنه بعد توليه السلطنة أخل بهذه القواعد في تربية المماليك « فلم يراع عادة ابيه ومن كان قبله من الملوك في تنقل المماليك في اطوار الخدمة ، حتى يتدرب ويتمرن كما تقدم ، وفي تدريجه من ثلاثة دنانير في الشهر الى عشرة دنانير ، ثم نقله من الجامكية[2] الى وظيفة من وظائف الدولة ، بل اقتضى رأيه أن يملأ اعينهم بالعطاء الكثير دفعة واحدة[3] فأتاه من المماليك شيء كثير رغبة فيما لديه ، حتى كان الاب يبيع ابنه للتاجر الذي يجلبه الى مصر . وبلغ ثمن المملوك في أيامه مائة ألف درهم فما دونها » .

فهذه الحقيقة التي كشف عنها المقريزي تفسر لنا فترة الفوضى والاضطراب التي تلت وفاة الناصر من سنة ٧٤١ ، فكانت أدواتها أبناؤه وحفدته ، يتحكم الامراء بمصائرهم خلعاً وقتلا وتنصيباً ، الى ان تسلطن برقوق الذي زاد الإساءة في إعداد المماليك حين « رخص لهم في سكنى القاهرة وفي التزوج ، فنزلوا من الطباق من القلعة ، ونكحوا من نساء أهل المدينة ، وأخلدوا الى البطالة ، ونسوا تلك العوائد » ولم يتوقف الامر عند هذا بل « بقي الجلب من المماليك ؛ لكنهم من الرجال الذين كانوا في بلادهم ما بين ملاح سفينة ، ووقاد في تنور خباز ، ومحول ماء في غيط اشجار ونحـــو ذلك » .

وزاد الامر سوءاً حين استقر رأي ولده الناصر فرج « على أن تسليم المماليك للفقيه يتلفهم ؛ بل يتركون وشؤونهم . فبدلت الارض غير الارض ، وصارت المماليك السلطانية أرذل الناس وادناهم ، وأخسهم قدراً ، واشحهم نفساً ، واجهلهم

(١) الخطط ٣/٢٤٧

(٢) الحياة في الطباق والأرزاق العينية

(٣) ويبدو انه اخذ يجلبهم كباراً

بأمر الدنيا ، واكثرهم إعراضاً عن الدين ، ما فيهم الا من هو أزنى من قرد ، وألص من فار ، وأفسد من ذئب » ويبني على هذا فيقول « لا جرم إن خربت ارض مصر والشام ، من حيث يصب النيل الى مجرى الفرات بسوء إيالة الحكام ، وشدة عبث الولاة ، وسوءِ تصرف أولي الامر ، حتى إنه ما من شهر الا ويظهر من الخلل العام ما لا يُتدارك فرطه [١] » .

فهذا النص وان احتملنا طوله ؛ لكنه فسر لنا سر فلاح المماليك وانتصاراتهم في اول الامر ، ثم علة تدهور حالهم حتى آلوا الى اسوأ حال بعد ذلك .

فقد ادركوا ان مسوغ وجودهم على رأس الحكم بديلًا شرعياً عن امراء بني أيوب إنما هو تدينهم وحسن سيرتهم ثم قدرتهم الحربية ، فحققوا الجانب الاول من تكوينهم بالتربية القويمة التي كشف المقريزي عن اسسها ، كما حققوا الجانب الآخر بالتدريب المستمر . فتنافسوا في اقتناء الخيول ، حتى كان يصل ثمن الحصان الى السبعين الف درهم [٢] ، وأقاموا لها الميادين العامة للسباق والتدريب ، يمارس فيها الامراء والمماليك على السواء من الظهر الى العشاء جميع الالعاب الحربية [٣] فلا عجب أن تكون لهم القدم الثابتة في الحروب وان يحققوا الانتصارات الباهرة على الصليبيين والتتار والارمن وغيرهم ويثبّتوا أقدامهم في الحكم حين استماتوا في الدفاع عن العرب وبلادهم ، فاحتلوا مكانهم من قلوب الشعب [٤] فلم يعد يُشعَر بانهم عناصر شتى غريبة عنه . وقد اثبتت الحوادث صحة هذا ، فحين تخلى المماليك عن هذه العناصر الاساسية ، التي ادركها سلاطينهم الاوائل ، مالت شمسهم الى المغيب ، وضج الشعب من مظالمهم

---

(١) الخطط ٣/٣٤٧

(٢) الخطط ٣/٣٦٥

(٣) تاريخ مصر الحديث ١/٢٢٥

(٤) البداية والنهاية ١٤/٣١٢

ورقة دينهم وفساد سلوكهم كما اوضح المقريزي ، فكان ذلك ايذاناً بزوال دولتهم فيما بعد بيد العثمانيين .

٣ - كما تطالعنا في هذه الفترة ظاهرة الفرار الى التتار ، او استدعائهم والاستعانة بهم ، وقد بدأت هذه الظاهرة بابن العلقمي الوزير قبيل سقوط بغداد ، ثم لم يتورع عنها بعض الامراء الايوبيين [١] بعد الملك العادل ، حتى استعان بعضهم بالصليبيين [٢] للفتك ببعضهم الاخر ، واقتبس هذا بعد ذلك امراء المماليك [٣] كلما شعر احدهم بالخطر يتهدده من السلطان ، أو أنه لم ينل ما كان يؤمله منه ، فكان العدو التتري يفرح بهم ويبالغ في تكريمهم ، حتى زوّجوا احدهم وهو قرا سنقر بنت هولاكو [٤] ، وسرت هذه الظاهرة الشنعاء الى أمير مكة وهو الامير خميصة بن ابي نُميّ الحسني ، ولا يعزب ان يكون من اغراض غازان في إسلامه سنة ٦٩٤ تشجيعُ هذا السلوك بين امراء المماليك ، فيقع الانقسام في جيش الأمة ، ويتمكن منهم التتار ، حيث حارت وسائله في تحقيق النصر عليهم مجتمعين .

هذه لمحة سريعة عن الحالة الادارية في مصر والشام في دولة المماليك البحرية حيث ترعرع أديبنا الصفدي ، فلم يكن غريباً عن هذا الجو ، فتعرّض لتياره ابناً لأحد امراء المماليك ، وخاض غماره كاتباً في دواوين الإنشاء لديهم فيما بعد ، فعاصر ما أسلفنا من وقائع ، وكان له ردود الفعل الكاملة حيال الاحداث الجارية آنذاك .

---

(١) البداية والنهاية ٢٣٨/١٣
(٢) المصدر السابق ١٦٤/١٣
(٣) المصدر السابق ٢٦٨/١٣ ، ٢٩٧ ، ٣/١٤
(٤) المصدر السابق ١٤٠/١٤

الحياة الاجتماعية :

كان المجتمع في مصر والشام مع بداية دولة المماليك البحرية ؛ يتكون من طبقتين متميزتين : طبقة الحكام ، وطبقة الشعب .

فطبقة الحكام هم من المماليك الذين تسلموا الحكم بعد مقتل تورانشاه ، آخر أمراء بني أيوب في مصر ، ويذكر المؤرخون[1] بأن المجموعات الاولى منهم كانت من أمة القفجاق ؛ التي هزمت أمام التتار سنة ٦١٨ . حيث « كثر فيهم القتل والأسر ، فتفرقوا أيدي سبا في جميع الأقطار ، وكان هذا أول ورود المماليك القفجاقية على البلاد المصرية ، فاشترى منهم الصالح نجم الدين أيوب مماليكه البحرية ، ملوك مصر بعد الدولة الأيوبية ، وكان منهم المعز أيبك والمظفر قطز والمنصور قلاوون وغيرهم » .

وقد عرفنا جانباً من الحياة التي كانوا يحيونها . فكانوا يعيشون منذ بداية وصولهم في مستوى مرتفع ، اذ « اقتضى رأي الناصر بن قلاوون ؛ أن يملأ أعينهم بالعطاء الكثير دفعة واحدة[2] » ولا نستغرب هذا اذا تذكرنا ان ثمن المملوك « بلغ في أيامه مائة الف درهم فما دونها » كما عرفنا أن المماليك عمدوا الى تقسيم البلاد المصرية الى ٢٤ قيراطاً ، انفرد السلطان بأربعة منها ، ونال المماليك واجنادهم عشرة ، وبقي للشعب كله عشرة قراريط ، كان هذا قبل ان تتوسع دولتهم خارج البلاد المصرية ، أما بعد أن ضموا اليهم بلاد الشام ، فقد أصبح السلطان يمنح بعض الاقطاعات الاخرى ، على سبيل الراتب[3] أو التعويض[4] أو المكافأة[5] . ويبدو أن الامراء

---

(١) محاضرات في تاريخ الامم الاسلامية ص ٤٧٤
(٢) خطط المقريزي ٣/٣٤٧
(٣) البداية والنهاية ١٤/٢٩٥ سنة ٧٩٤
(٤) البداية والنهاية ١٤/١٠٣ سنة ٧٢٣
(٥) المصدر السابق ص ١٠٩

كانوا يهضمون حقوق الجند في قراريطهم العشرة ، « فوردت المواسيم الشريفة السلطانية بأن يجعل للأمير من إقطاعه النصف خاصا له ، والنصف الآخر يكون لأجناده ، فحصل بهذا رفق عظيم بالجند وعدل كثير »[1] .

فعاش المماليك لذلك في امتلاء وثراء ، والشواهد كثيرة على البذخ والرفاه الذي كانوا ينعمون فيه .

فابن كثير يذكر طرفاً من عرس أنوك بن الملك الناصر ، على بنت الأمير سيف الدين بكتمر الساقي سنة ٧٣٢ هـ مما يتأبّى على التصديق فيقول : « كان جهازها بألف ألف دينار ، وذبح في هذا العرس من الأغنام والدجاج والإوز والخيل والبقر نحو من عشرين ألفاً ، وحملت حلوى بنحو ثمانية عشر ألف قنطار ، وحمل له من الشمع ثلاثة آلاف قنطار »[2] . لذلك لم يجد السلطان الناصر حسين بن الناصر قلاوون ؛ حين ورد عليه رسول صاحب العراق ، يخطب له ابنته الا أن يطلب مملكة بغداد صداقاً لها[3] . كما كان من مظاهر غنى الدولة أن كتب الفرمان بتعيين الأمير سيف الدين منجك « بماء الذهب وشاهده الناس »[4] ، ومن هذه المظاهر كذلك وجود بعض الوظائف : منها وظيفة (حاجب الخزانة الشريفة) التي تحتوي على عدة خزائن وصناديق ، مملوءة بالحلي والجواهر والأواني من ذهب وفضه وأمتعة حسنة[5] ، ومنها ما ذكره القلقشندي في كتابه[6] من ان « الملوك كانت قد اعتادت الرفاهية ، مع اقتدارها على تحصيل الأشياء العزيزة ، وولوعهم

(١) البداية والنهاية ١٤/٣١٨ سنة ٧٦٧
(٢) المصدر السابق ص ١٥٧
(٣) البداية والنهاية ١٤/٢٧٦
(٤) البداية والنهاية ١٤ / ٢٧٩
(٥) عصر الانحدار ـ محمد اسعد طلس
(٦) صبح الاعشى ١٤ / ٣٩٥

بجلبها من الأماكن البعيدة ، إكمالاً لحال الرفاهية ، وإظهارا لأبهة الملك ، دعاهم ذلك الى جلب الثلج من الشام الى مصر ، لتبريد الماء به في زمن الحر . وقرروا له هُجْنا تحمله في البر ، وسفنا تحمله في البحر حتى يصل الى القلعة المحروسة . وقد كانت في ايام الظاهر بيبرس ثلاثة مراكب في السنة ، ثم اخذت في التزايد الى أن بلغت أحد عشر مركباً . .

كما كانت نقلاته البحرية « احدى وسبعون نقلة ، ثم صار يزيد على ذلك ، ويجهز مع كل نقلة بريدي يتداركه ، ومعه ثلاّج خبير بحمله ومداراته . ثم ان الثلج اذا وصل على المراكب والهجن حتى انتهى الى القلعة ، خُزّن بالشرا بخاناه السلطانية . وللمجهّزين به من الخِلَع [1] ورسوم الإنعام رسوم مستقرة وعوائد مستمرة ..

وهذا لا يعدّ شيئاً اذا قيس بمصروفات المطبخ السلطاني الضخمة ، حتى « توقفت أحوال الدولة في أيام الصالح اسماعيل » [2] ، وبلغت نفقات الدولة سنة ٧٤٥ « ثلاثين ألف ألف درهم ، منها مصروف الحوايج خاناه في كل يوم اثنان وعشرون ألف درهم . . وكان راتب الدور السلطانية في كل يوم من أيام شهر رمضان ، ستين قنطاراً من الحلوى . . وكانت الدولة قد توقفت أحوالها ، فوفر من المصروف في كل يوم أربعة الآف رطل لحم ، وستمائة كماجة سميذ ، وثلاثمائة إردب [3] من الشعير ... واعتبر مصروف الحوايج خاناه سنة ٧٤٨ فكان في كل يوم ٢٢ ألف رطل من اللحم » وصودر الحاج علي الطباخ « فوجد له خمسة وعشرون داراً على البحر وفي عدة أماكن »

ولم تقتصر مظاهر الغنى هذه على السلاطين فحسب ، فقد وُجد عند الأمير سيف الدين بشتك الناصري ، بعد مقتله سنة ٧٤٢ « من الذهب ألف ألف دينار

---

(١) الملابس والمخصصات من الهبات

(٢) خطط المقريزي ٣ / ٣٧٥

(٣) مكيال ضخم يساوي ٢٤ صاعاً

وسبعمائة الف دينار [١] » وترك الأمير شيخو بعد موته « الشيءَ الكثير من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ، وكذلك من المماليك والاسلحة والعدة والبرك والمتاجر ما يَشقُ حصرُه ويتعذر احصاؤه [٢] » . اما ما وجد بحوزة الامير سيف الدين تنكز بعد مقتله سنة ٧٤٠ من الحلي والجواهر فشيء يقدر بالأرطال والقناطير والصناديق منها « ١٩ رطلًا من الزمرد والياقوت ، وستة صناديق جواهر وفصوص الماس و١٢٥٠ حبة لؤلؤ كبار مدورة مما زنته درهم الى مثقال و٢٤٠٠٠٠ مثقال ذهب و١٠ ملايين درهم فضة وأربعة قناطير مصرية من المصاغ والعقود ونحوها كالحلق والأساور ، وستة قناطـــير فضيات ، ومليون ومائتي ألف دينار [٣] » .

كما أن بعضهم لم يكتف بما كانت تدره عليه اقطاعاته الواسعة ، بل عمد الى تطلب المال بكل الوجوه ، فنائب حاب سيف الدين قطلَبْشاه كان سنة ٧٥٠ « يحتاط على تركة الميت وان كان فيها ولد ذكر أو غيره ، ويأخذ من أموال الناس جهرة ؛ حتى حصل له منها شيء كثير [٤] » .

أما السلطان الناصر حسن ٧٥٥ - ٧٦٢ هـ فقد « كثر طمعه وتزايد شرهه وبنى البنايات الجبارة التي لا يحتاج الى كثير منها ، واستحوذ على كثير من أملاك بيت المال وأمواله ، واشترى منه قرايا كثيرة ومدناً أيضاً ورساتيق . فشق ذلك على الناس جداً ، ولم يتجاسر أحد من القضاة ولا الولاة ولا العلماء ولا الصلحاء على الإنكار عليه ، ولا النصيحة له بما هو المصلحة له وللمسلمين .. حتى إنه قطع أرزاق

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ١٩١
(٢) المصدر السابق ١٤/ ٢٥٨
(٣) تاريخ التمدن الاسلامي - زيدان ٥ / ١٢٠
(٤) البداية والنهاية ١٤ / ٢٣١

الجند ومعاليمهم[1] وجوامكهم[2] واخبازهم وأضاف ذلك جميعه الى خاصته[3] . . »

كان هذا في طبقة الحكام من المماليك ، فاذا انتقلنا الى صفوف الشعب ، وجدنا فيه مجموعة الموظفين اللائذة بالحكام ، ومجموعة التجار ، ثم عامة الشعب . أما الموظفون فقد كانت تدفع لهم الرواتب الكافية ، وتصرف لبعضهم الارزاق اضافة الى ذلك . فكان « معلوم الوزير في الشهر ٢٥٠ ديناراً جيشية مع الأصناف المذكورة من سكر وحلوى وزيت وعليق للدواب ولحم وغلة ، وتبلغ نظير المعلوم .

« وكان معلوم القضاة والعلماء أكثره خمسون ديناراً في كل شهر ، مضافاً لما بيدهم من المدارس التي يستدرون من أوقافها ، وكانوا يتوارثون هذه المرتبات ابنا عن أب ويرثها الأخ عن أخيه ، وابن العم عن ابن العم[4] » .

ويخبرنا ابن كثير بأن « القاضي شهاب الدين بن الفضل ، رجع من الديار المصرية ومعه توقيع بالمرتب الذي كان له أولاً ، كل شهر ألف درهم[5] » . كما ينقل الينا في مكان آخر بأنه لما عزل قاضي القضاة « بدر الدين بن جماعة لأجل كبر سنه وضعف نفسه وضرر عينيه ، جبروا خاطره فرتب له ألف درهم وعشرة أرادب قمح في الشهر[6] » .

فاذا انحدرنا قليلاً ودخلنا دار الحديث السكرية ، سمعنا ابن كثير يعدد العاملين فيها فيقول : « .. وباشر مشيخة الحديث بها الشيخ الحافظ محمد بن شمس الدين الذهبي ، وقرر فيها ثلاثون محدثاً لكل منهم جراية[7] وجامكية ، كل شهر

---

(١) الرواتب (٢) الأرزاق

(٣) البداية والنهاية ١٤ / ٢٧٨

(٤) خطط المقريزي ٣ / ٣٦٤

(٥) البداية والنهاية ١٤ / ٢٠٧ سنة ٧٤٢

(٦) البداية والنهاية ١٤ / ١٢٨ سنة ٧٢٦

(٧) الراتب

سبعة دراهم ونصف رطل خبز ، وقرر للشيخ ثلاثون ورطل خبز . وقرر فيها ثلاثون نفراً يقرأون القرآن لكل عشرة شيخ ، ولكل واحد من القراء نظير ما للمحدثين ، ورتب لها امام وقارىء حديث ونواب ، ولقارىء الحديث عشرون درهماً وثماني أواق خبز [1] » .

وينتقل بنا ابن كثير الى الفقهاء ليقول بأن « الأمير الكبير (يلبغا) جدد درساً بجامع ابن طولون ، فيه سبعة مدرسين للحنفية ، وجعل لكل فقيه منهم في الشهر ٤٠ درهماً وإردب قمح ، وذكر فيه أن جماعة من غير الحنفية « انتقلوا الى مذهب أبي حنيفة ، لينزلوا في هذا الدرس [2] .

أما في الجامع الأموي في دمشق ، فقد جعل الامير يلبغا فيه « من الطلبة من سائر المذاهب ١٥ طالباً ، لكل طالب في الشهر ١٠ دراهم ، وللمعيد ٢٠ ، ولكاتب الغيبة ٢٠ ، وللمدرس ٨٠ [3] » وهذه رواتب حسنة اذا قيست بما قرره نصير الدين الطوسي وزير هولاكو ، في مؤسسته التي أنشأها للرصد في مراغة سنة ٦٥٧ هـ « ورتب فيها فلاسفة ، ورتب لكل واحد في اليوم والليلة ثلاثة دراهم ، ودار طب للطبيب في اليوم درهمان ، ومدرسة لكل فقيه في اليوم درهم . ودار حديث لكل محدث نصف درهم في اليوم [4] » .

ويأتي بعد ذلك موظفو الدواوين ، ودخلهم يزيد عما سلف ، دون أن يمنعهم ذلك من الإقدام على الرشوة والاختلاس ، فكثرت حوادث القبض على القائمين بالأمور ومصادرة اموالهم ، مما رأينا جانباً كافياً منه في البحث السابق .

وإن دل اقدام الموظفين هذا على شيء ، فانما يدل على مدى اطلاعهم على

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ١٨٤ سنة ٧٣٩
(٢) المصدر السابق ١٤ / ٣٢١ - ٧٦٧
(٣) المصدر السابق
(٤) المصدر السابق ١٣ / ٢١٥ سنة ٦٥٧

ما يحصل عليه السلطان وحاشيته وأمراؤه ، من الغنى والثراء والعيش الباذخ ، فلا يجدون بأساً من الأخذ بنصيبهم أسوةً بأولئك ، لكن هذا لم يمنع وجود من ترفّع عن قبول الوظائف ، أو من ندم لقبولها عندما حضرته الوفاة ، كردّ فعل لتهالك الناس وتزاحمهم ، وما يرونه من دسائسهم وتدني أساليبهم ، ودفعهم المال ثمناً للمنصب المنشود . يدل على ذلك ما نراه من تعدد المناصب ، حتى إنّ بعضَهم كان يتسلم سبعة عشر منصباً في وقت واحد(١) « مما دفع ابنَ كثير الى التعليق عند ذكره لأحد الأشخاص بقوله « ولم يتدنّس بشيء من الولايات ، ولا تدنس بشيء من وظائف المدارس ولا الشهادات (٢) » .

أما الشيخ برهان الدين الفزاري « فقد عُرض عليه قضاءُ قضاة الشام ، وألح نائب الشام عليه بنفسه وأعوانه من الدولة فلم يقبل ، وصمم وامتنع أشد الامتناع(٣) » .

كما أقدم « كمال الدين بن الشريشي على عزل نفسه عن وكالة بيت المال ، وصمم على الاستمرار على العزل ، وعُرض عليه العَوْدُ فلم يقبل ، وحملت اليه الخلعة لما خلع على المباشرين فلم يلبسها (٤) .. » « وشبيهٌ بهـذا ما فعله قاضي القضاة عز الدين بنُ بدر الدين بن جماعة اذ عزل نفسه عن القضاء وصمم على ذلك ، فبعث الأمير الكبير يلبغا اليه الأمراء يسترضونه فلم يقبل ، فركب اليه بنفسه ومعه الأعيان ، فتلطفوا به فلم يقبل ، وصمم على الانعزال (٥) » .

ولم تقتصر هذه المواقف النبيلة على القضاء ، فهذا « محمد بن محيي الدين بن عبد الظاهر كاتب الأسرار في الدولة المنصورية .. وقد طلب منه (الوزير القوي) ابن

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٣٢٢ سنة ٦٩٠
(٢) البداية والنهاية ١٤ / ١٠٩ سنة ٧٢٣
(٣) البداية والنهاية ١٤ / ١٤٦ سنة ٧٢٩
(٤) البداية والنهاية ١٤ / ٤٧ سنة ٧٠٨
(٥) البداية والنهاية ١٤ / ٣١١ سنة ٧٦٦

السلعوس أن يقرأ عليه كل ما يكتبه ، فقال : هذا لا يمكن ، فإنّ أسرار الملوك لا يطلع عليها غيرهم ، وأبصروا لكم غيري يكون معكم بهذه المثابة .. فلما بلغ ذلك الاشرف أعجبه منه وازدادت عنده منزلته [١] » .

ولنترك هؤلاء وأولئك من الموظفين والحكام ، لنجدَ بين صفوف الشعب مجموعةً متميزة باليسار وسعة الثراء ، هم بلا ريب من طبقة التجار . وقد مر بنا ذكر الشيخ وجيه الدين بن المنجا الذي ذكر « انه حمل الى خزانة غازان ثلاثة الآف ألف وستمائة الف درهم ، سوى ما تحقّق من التراسيم والبراطيل [٢] » .

ومنهم ابن قطنية الذَّرْعي التاجر ، وقد « بلغت زكاة ماله في سنة غازان خمسةً وعشرين ألف دينار [٣] » وكذلك « الصدر الكبير تاج الدين الكارمي ، الذي خلّف مئة ألف دينار ، غير البضائع والأثاث والأملاك [٤] » .

هذا الغنى عند هؤلاء وغيرهم ، كان يغري أمراء المماليك بمصادرتهم ، فقد كان نائب السلطنة بمصر علم الدين الشجاعي سنة ٦٨٦ يتقرب من السلطان المنصور قلاوون بتحصيل الاموال . فقدم في السنة نفسها « من مصر الى الشام بنية المصادرة لأرباب الأموال من أهل الشام » ويبدو أنهم كانوا يضنون بمالهم عن الإسهام في مصالح الأمة العامة . وقد رأينا كيف اضطر السلطان سنة ٦٩٨ هـ « لاقتراض أموال اليتامى وأموال الأسرى لأجل تقوية الجيش » بينما يُجْبَر ابنُ منجا بعد الهزيمة أن يحمل الى خزانة غازان ما أبان عنه في السطور السابقة .

هذا ولم يَعْدِمِ الامر وجودَ أمثال الشيخ شمس الدين محمد بن عبد السلام الذي كان « يتردد الى عكا حينما كانت في أيدي الفرنج في فِكاك أسارى المسلمين [٥] »

---

(١) البداية والنهاية ٣٣١/١٤ سنة ٦٩١
(٢) « « ٩/١٤ سنة ٦٩٨
(٣) « « ١٠٧/١٤ سنة ٧٢٣
(٤) « « ١٥٦/١٤
(٥) « « ٢٩٨/١٣ و ٣٠/١٤

فاذا دخلنا في صفوف العامة ، وجدنا شعباً متمسكاً بدينه ، ويزيد في ذلك مجاورته للفرنج ، وحروبه مع الصليبين ، الذين وفـــدوا عليه غازين باسم الدين يتقدمهم شعاره . كما زحفت عليهم من الشرق جحافل التتار ، عدوة الأديان والحضارات والوجود الانساني كله ، فزادته هذه الاخطار تقرباً من الله سبحانه بالعبادة والدعاء ، فكانت المساجد ملتقاهم في كل أمورهم الدينية والدنيوية .

وأبرز حادثة في هذا ؛ ما أقدمت عليه نساء دمشق سنة ٦٠٧ ، اذ عمدن الى شعورهم فقصصنها ، وضفرنها حبالاً للجهاد ضد الصليبين وبعثن بها الى سبط الجوزي علاّمة الشام وواعظها . فبكى لرؤيتها وتأثر « وكانت عدتها ٣٠٠ حبل غليظ ، فحملت على الاعناق خلال خطبة الجمعة في المسجد الأموي من قبل ابن الجوزي . فضج الناس وتقاسموا على القتال حتى الموت ، وتزاحمت جموعهم ، وكروا على الصليبين فانتصروا ، واحتمى الصليبيون بحصون عكا ، وكتبوا الى الملك العادل يرجونه الهدنة فقبل ، بينما راح الصليبيون خلالها يستعدون للهجوم على دمشق .

وقد استغل بعض الخبثاء نمو الشعور الديني هذا ، فكان يدعي المكاشفات أمثال « الشيخ ابراهيم الشاغوري بدمشق ، ويذكر له أحوال ومكاشفات على ألسنة العوام ومن لا يعقل ، ولم يكن ممن يحافظ على الصلوات ولا يصوم مع الناس . ومع هذا كان كثيرٌ من العوام وغيرهم يعتقدونه[1] » وقد شاع كذلك أمر المنجمين ، « فأمر السلطان بتسليمهم الى والي القاهرة ، فضربوا وحبسوا لإفسادهم حال النساء ، فمات منهم أربعة تحت العقوبة » . كما رحنا نسمع في هذه الفترة ، ما يتردد بين أتباع المذاهب الأربعة من المنافسات المذهبية ، وتصل أحياناً الى الخصومات الحادة .

أما فئات الشعب فقد كانت متعددة ، منها السكان الأصليون ، وفئات من

---

(١) البداية والنهاية ١٣/٢٩٨ و ١٤/٣٠

الأتراك والأرمن واليهود وغيرهم ، فكانت أزياؤهم لذلك متنوعة متعددة، حتى إنه كان هناك فئة تدعى القلندرية كانوا يحلقون لحاهم وحواجبهم وشواربهم « فورد كتاب من السلطان بإلزامهم ترك ذلك ، وبإلزامهم بزي المسلمين ، وترك زي الأعاجم والمجوس ، فلا يمكن احد منهم من الدخول الى بلاد السلطان ؛ حتى يترك هذا الزي المبتدع ، واللباس المستشنع ، ومن لا يلتزم بذلك يعزر شرعاً ، ويقلع من قراره قلعاً (١) » .

ومن المؤكد ان السكان جميعاً كانوا يكسون رؤوسهم بالعمائم ، وكان بعض السلاطين حريصاً على تمييز عمائم المسلمين عن عمائم غيرهم ؛ باللون (٢) تارة وبالحجم (٣) تارة أخرى ، ويبدو أن المرأة كانت تلبس العمامة أيضاً ففي سنة ٦٩٠ « نادى نائب الشام الشجاعي ان لا تلبس امرأة عمامة كبيرة (٤) » والمرأة لا تتقيد في ملابسها بزي واحد ، فقد جعلته سنة ٧٥١ قصيراً نسبياً ، وأكمامه عريضة كاشفة ، وفيه تبذير ، حتى صدر الأمر « بأن لا تلبس النساء الاكمام الطوال العراض ولا البُرد الحرير ولا شيئاً من اللباسات والثياب الثمينة ولا الاقمشة القصار ... وشددوا في تطبيق ذلك حتى قيل انهم غرقوا بعض النساء (٥) » . وصدر بخصوصهم أمر آخر بعد بضع سنوات يقضي « بتضييق الأكمام (٦) » ويبدو أن حالهم استدعى اصدار أمر ثالث سنة ٧٦٢ « بأن يمشين في تستر ، ويلبسن ازورهن الى أسفل عن سائر

---

(١) البداية والنهاية ١٤/٢٧٤

(٢) « « ١٤/١٤

(٣) « « ١٤/٢٥٠

(٤) « « ١٣/٣٢٢

(٥) « « ١٤/٢٣٣

(٦) « « ١٤/٢٥٤

ثيابهن ولا يظهرن زينة . فامتثلن بذلك [1] » وقام نائب دمشق بفصل سوق خاص [2] للنساء يشترين منه الاقمشة ، وترك للرجال سوق الدهشة السابق .

وقد انتشرت في هذه الفترة التي نتحدث عنها بعض الأمراض الاجتماعية ، كانت معاقرة الراح على رأسها ، ويبدو أن مجاورة الفرنج والاحتكاك بهم ، ساعد على سعة انتشارها ، حتى قلّ أن ينسى سلطان إصدار الاوامر باراقتها ومنعها ، وقد كان يرافقها امر الخواطىء ، فان سمح فيها معاً ، وان ألغيازالا معا .

وقد كان الظاهر بيبرس أول من اهتم بذلك من المماليك ، فرسم سنة ٦٦٧ « باراقة الخمور وتبطيل المفسدات والخواطىء بالبلاد كلها ، وسلبن جميع ما كان معهن حتى يتزوجن [3] » . ويبدو أن الناس تهاونوا في أمر الخمر ، فأمر السلطان ثانية سنة ٦٦٩ « باراقة الخمور من سائر بلاده ، وتهدد من يعصرها أو يعتصرها بالقتل ، وأسقط ضمان ذلك وكان بالقاهرة وحدها ألف دينار في اليوم [4] » .

ولكن موضوع الخمر والزنا لم يكن يثبت على حال ؛ ففي سنة ٦٨٠ « ضمن الخمر والزنا بدمشق وجعل عليه ديوان ومشد [5] » فقام في وجه ذلك العلماء والصلحاء فأبطل بعد عشرين يوماً . ثم أقدم قبجق خلال احتلال التتر لدمشق على اعادتها « فضمن الخمارات ومواضع الزنا من الخانات وغيرها ، وصار له على ذلك في كل يوم ألف درهم [6] » ولكن الأمر لم يطل ، فما أن غادر التتار دمشق بعد مائة يوم فقط ، حتى قام ابن تيمية وأصحابه فأبطلوا ذلك .

---

(١) البداية والنهاية ١٤/٢٨٠ .
(٢) « « ١٤/٣١٣ .
(٣) « « ١٣/٢٥٤ .
(٤) « « ١٣/٢٦٠ .
(٥) « « ١٣/٢٩٤ ، والمشد بمعنى ادارة خاصة به .
(٦) البداية والنهاية ١٤ / ١٠

أما منطقة الساحل ؛ فما تزال متأثرة بما غادره فيها الصليبيون « فبرزت المراسيم السلطانية الى البلاد الساحلية سنة ٧٠٩ بابطال الخمور ، وتخريب الخانات ، ونفي أهلها ففعل ذلك » . وحين أريقت خمور أهل الذمة سنة ٧٦٧ « فاض نهر تورا من ذلك[١] » .

ومما فشا في المجتمع من الآفات ؛ ما يشير اليه الشاعر شمس الدين التلمساني سنة ٦٨٨ في محاولة للتنفير فيقول :

ما لِلحشيشة فَضْلٌ عِندَ آكِلِها ... لكنَّهُ غيرُ مصروفٍ الى رَشَدِهْ
صَفراءُ في وجهِهِ خَضْراءُ في فَمِـه ... حَمراءُ في عَيْنِهِ سوداءُ في كَبِدِهْ[٢]

وقد كان أكل الحشيشة شائعاً ، بخاصة في جماعة القلندريه الذين مر ذكرهم فيقول ابن كثير بحقهم « وكان اللائق أن يؤمروا بترك أكل الحشيشة الحسيسة ، وإقامة الحد عليهم بأكلها وسكرها[٣] » . كما شاع التغزل بالمذكر حتى غدا على نكره وانحطاطه كأن لا هجنة فيه ، اذ يقول ابن كثير « إن سلامش (ابن الظاهر بيبرس) كان من أحسن الناس شكلاً وأبهاهم منظراً ، وقد افتتن به خلق كثير ، واللوطية الذين يحبون المردان ، وشبب به الشعراء . . » وكذلك ساد أمر الرشوة بشكل واسع ، حتى رأينا الأمير بندار نائب السلطنة بمصر وهو على رأس حملة الى جبل كسروان لتأديبهم ، فلما أحدق بهم حملوا اليـه ليلاً ما جعله ينصرف بالجيش عنهم ، وبقي السلطان يجهل ذلك ؛ حتى نقله اليه وزيره « فلامه وعنفه فمرض من ذلك مرضاً شديداً أشفى به على الموت[٤] » .

---

(١) البداية والنهاية ٣١٧/١٤
(٢) « « ٣١٥/١٣
(٣) « « ٢٧٤/١٤
(٤) « « ٣٢٧/١٣

وحين تولى السلطان الناصر محمد بن قلاوون ؛ أهتم بمعالجة عدد مما توضّع في جسم المجتمع ، فأصدر سنة ٧١٢ أمراً يقضي بأن « لا يولى أحد بمال ولا برشوة ، فان ذلك يفضي الى ولاية من لا يستحق الولاية ، والى ولاية غير الأهل(١) » كما أصدر في العام نفسه أمراً « بابطال ضمان القواصير وضمان النبيذ » . ويبدو أن منطقة الساحل عادت الى ما كانت عليه قبل عام ٧٠٩ فأمر السلطان سنة ٧١٧ « فأبطلت الخمور والفواحش كلها من بلاد السواحل وطرابلس وغيرها (٢) » .

وفي سنة ٧٢٤ ولي سيف الدين قديدار ولاية مصر ، وكان شديداً على المفسدين « فأراق الخمور ، وأحرق الحشيشة ، وأمسك الشطار ، فاستقامت به أحوال القاهرة ومصر(٣) » . كما رسم السلطان سنة ٧٣٣ « بالمنع من رمى البندق ، وأن لاتباع قسيها ولا تعمل ، وذلك لإفساد رماة البندق أولاد الناس ، وأن الغالب على من تعاناه اللواط والفسق وقلة الدين ، ونودي بذلك في البلاد المصرية والشامية(٤) » .

أما من أقدم على السرقة ، فقد كانت عقوبته صارمة رادعة ، ففي سنة ٧٤٨ « أمر نائب السلطنة بدمشق بجماعة انتهبوا شيئاً من الباعة ، فقطع أحد عشر منهم وسمّر عشر تسميراً تعزيراً وتأديباً (٥) » .

كما كانت الدولة تؤكد منع الربا ، وتنزل بمن يتعامل به أشد العقاب ، بعد أن تنتزع منه ما أخذه بالربا ، وتفعل ذلك بمن يغفل إخراج زكاة ماله . فقد أخذت من رجل واحد من هؤلاء « مبلغ ٣٢٠ ألفاً وختم على حججه ليعقد له بذلك مجلس فيأخذ رأس ماله منها عملاً بقوله تعالى : (وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٦٦
(٢) « « ١٤ / ٨٢
(٣) « « ١٤ / ١١٣
(٤) « « ١٤ / ١٦١
(٥) « « ١٤ / ٢٢٥

لا تظلمون ولا تظلمون) وتودي .. عليه في البلد إنما فعل به ذلك لأنه لا يؤدي الزكاة ، ويعامل بالربا »(١)

هذا وإن نوازع الخير هى الغالبة على هذا المجتمع ، رغم وجود أمثال هؤلاء المفسدين ، ولولا ذلك لما كان هناك من يهتم بالأيتام ، حتى كنا نسمع عن وجود أموال تحفظ للانفاق عليهم ، جعل نائب السلطنة بالشام ؛ يطلب منها لتقوية الجيش « خمسمائة ألف ويعوضهم عن ذلك بقرية من بيت المال ، وكتب بذلك سجلات(٢) » .

ولما كان كذلك من يهتم للأسرى ، فيوقف من أملاكه ما يجعل المسؤلين يرسلون « الى الشام يطلبون من أموال أوقاف الأسارى ما يستنقذون به من بقي في أيدي العدو من المسلمين(٣) » وقد مر بنا خبر من كان يذهب بنفسه الى عكا ؛ في فكاك الاسرى لوجه الله . مما دعا الى اقامة ديوان للأسرى ، يتولى الدفع عند الحاجة في فكاكهم ، كما حصل سنة ٧٥٧ حيث راسل الجيش الفرنج « في فكاك الاسارى من أيديهم فبادرهم عن كل رأس بخمسمئة ، فأخذوا من ديوان الاسارى مبلغ ثلاثين ألفاً ، ولم يبق معهم ولله الحمد أحد(٤) » . كما يطالعنا ابن كثير بالشيخ بهاء الدين أبي القاسم ، الذي اشتغل بالطب « وكان يعالج الناس بغير أجرة(٥) » .

أما المستوى المعاشي الذي كانت عليه عامة الشعب ؛ فلا أشك في أنه كان متدنياً سيئاً ، لأن كل فرصة لهذا الشعب للعمل والكسب أو ثمرة له ؛ كانت طعمة للحروب والضرائب والنكبات ، إضافة الى حرمانه من استقرار يتيح له انتاجاً يعود عليه بربح يذكر .

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٢٧٠
(٢) « « ١٤ / ١٩٥
(٣) « « ١٤ / ٢٥٢
(٤) « « ١٤ / ٢٥٥
(٥) « « ١٤ / ١٠٨

فقبل بدء فترتنا محور البحث بقليل ، كانت بلاد الشام حديثة العهد بما كان يفعله أمراء البيت الايوبي من التطاحن لاحتلال المدن ، مستعينين بالفرنج تارة ، وبالخوارزمية أخرى . حتى إن مدينة دمشق لقيت في عام ٦٤٣ من الشدة ـ بسبب استمرار حصار الصالح أيوب ومعـــه الخوارزمية ـ ما ينكره التصديق . حتى « بيعت الأملاك بالدقيق ، وأكلت القطط والكلاب والميتات والجيفات ، وتماوت الناس في الطرقات ، وعجزوا عن التغسيل والتكفين والإقبار [١] » بعد أن احترق أكثر أحياء المدينة . ثم تجددت هذه الحال سنة ٦٤٨ حيث تداول الامراء دمشق خلالها أربع مرات . حتى قال بعضهم معرضاً بالصالح اسماعيل :

ضَيَّعَ إسْمَاعِيلُ أَمْوالَنَا وَخَرَّبَ المَغْنَى بلا مَعْنَى
وراح من جِلَّقٍ ، هذا جزا مَنْ أَفقرَ النَّاسَ وَمَا اسْتَغْنَى

كان هذا حال السكان ، بينما قام الصالح اسماعيل بمصادرة « الخاتون أرغوانيه ، وهي التي كانت تصلح الطعام للمغيث بن الصالح أيوب ، فأخذ منها أربعمئة صندوق من المال [٢] » .

ولم تكد بلاد الشام تلتقط أنفاسها من هذه المحن الغريبة ، حتى طرق التتار بابها وجاسوا خلال ديارها من أقصاها الى غزة ، ولم تلبث أن أصبحت تشكل مع الديار المصرية دولة المماليك ، التي ستخوض في أقل من خمسين سنة من ٦٥٨ حتى ٧٠٥ هـ ما يزيد على خمسة عشر حرباً كبيرة ضد ألد أعداء الانسانية ، احتل التتار خلالها بلاد الشام مرتين ، يزهقون الأنفس ، وينهبون الأموال ، ويسبون النساء ، ويخربون الديار ، قبل ان يرتدوا مهزومين صوب العراق ، وكان آخر هذه الحروب سنة ٧٠٢ هـ .

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ١٦٦
(٢) « « ١٣ / ١٧٩

كما احتمل هذا الشعب قسوة الحروب الصليبية ، التي امتدت في فترتنا هذه منذ عهد بيبرس ٦٥٨ حتى الاشرف خليل سنة ٦٩١ ، كانت البلاد خلالها مشتبكة في حروبها مع التتار لاتكاد تنتهي من معركة حتى تستعد لتلقي الأخرى .

وقد جرى في بلاد الشام أثناء الاستعداد لمعركة عكا سنة ٦٨٩ ﻫ ما وصفه ابن كثير بقوله : « وجاء البريد بعمل مجانيق لحصار عكا ، فركب الأعسر الى اراضي بعلبك لما هنالك من الاخشاب العظيمة ، التي لا يوجد مثلها بدمشق ، فكثرت الجنايات والجبايات والسخر ، وكلفوا الناس تكليفاً كثيراً ، وأخذوا أخشاب الناس وحملت الى دمشق بكلفة عظيمة وشدة كثيرة [1] » .

اذا كانت هذه أعباء حرب واحدة ، فما بالنا بالحروب التي لم تنته بين البلاد وأعدائها ، حتى تم تطهير الارض من رجس الصليبين سنة ٦٩١ ﻫ ، كما كانت آخر حملات التتار سنة ٧٠٢ ﻫ .

وخاضت البلاد ضد الأرمن في آسيا الصغرى حروباً خمساً ، انتصرت فيها جميعها منذ ٦٦٣ وحتى ٧٠٥ ﻫ ؛ وشن بيبرس حرباً ضد الباطنية في شمال سورية ، وأخرى فتح بها بلاد النوبة سنة ٦٧٤ ، وكان قد أعد اسطولاً بحرياً لغزو قبرص فغرق بفعل الرياح ، فأمر بانشاء اسطول آخر .

وكان الشعب في كل هذا لا يتوانى عن البذل والتضحية بالمال والتطوع ، كما يعيش مع المقاتلين في ملازمة المساجد بالدعاء لهم بالغلبة والنصر .

هذا ما يتعلق بالحروب ، أما إذا اتجهنا صوب النكبات التي كانت تحل بالبلاد ، ذهلنا لما نراه من كثرتها وهولها في غالب الأحيان .

فقد وقع في مصر بين سنتي ٦٩٥ – ٧٦٤ مانيف على احدى عشرة نازلة

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٣١٦

ما بين حـريق [1] وفناء وفيضان [2] مدمر ، وزلزال [3] ، وطاعون لا حيلة للناس في رده .

ففي سنة ٦٩٥ كان الفناء بمصر شديداً « فمات في شهر صفر مائة ألف ونحو من ثلاثين ألفاً ، وأفنيت الحمير والبغال والكلاب من أكل الناس لها [4] .
وفي الطاعون الذي خيم في مصر سنة ٧٦٣ كان « يضبط من أهلها في النهار نحو الألف [5] » .

أما بلاد الشام فقد حل في أرجائها من النكبات بين سنتي ٧٠١ — ٧٦٥ﻫ ما زاد على ثماني عشرة ، ما بين جراد [6] ، وفتنة [7] دامية ، وسيل [8] مخرب ، وفيضان ٩ متلف ، وحريق [10] كبير ، وزلزال مدمـر ، ومرض [11] مهلك من الطاعون أو الخانوق . ففي سنة ٧٠١ « قدم الى الشام جراد عظـيم أكل الزروع والثمار وجرّد الأشجار ، حتى صارت مثل العصي [12] » . ولا وسائل لدى القوم يجابهون بها زحفه الكاسح ، الا أن يتركوه يغادر بعد أن يفتقد ما يأكله . أما السيل الذى اندفع في بعلبك فقـــد خرب نحواً من « ستمئة دار وحانوت سوى

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٩٩ ، ١٣٤ ، ١٨٩ ، ٢٣٩ ، ٢٥٤
(٢) » » ١٤ / ٨٢
(٣) » » ١٤ / ٢٧
(٤) » » ١٣ / ٣٤٣
(٥) » » ١٤ / ٣٠١
(٦) » » ١٤ / ٣٠٧
(٧) » » ١٤ / ٥٣
(٨) » » ١٤ / ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ١٥٦
(٩) » » ١٤ / ١٥٨
(١٠) » » ١٤ / ٢١٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦
(١١) » » ١٤ / ١٧٠ ، ٣٠٨
(١٢) » » ١٤ / ١٨

البساتين والطواحين (١) » وفي احدى الحرائق « احترق أكثر مدينة أنطاكية (٢) » وكذا فإن الزلزال الذي تحرك في منطقة حلب سنة ٧٤٢ « لم يبق من مدينة منبج الا القليل وأن عامة سكانها هلكوا تحت الردم (٣) ». ثم كان الطاعون الذي خيم على دمشق سنة ٧٤٩ حتى بلغ حصاده « الثلاثمئة في اليوم ، وتعطلت مصالح الناس (٤) » وقد عاد اليها ثانية بعد حوالي خمسة عشر عاماً ، ليتم ما بدأه قبلاً ، ولا حيلة لدى السكان سوى التضرع الى الله سبحانه برفعه وكشف ضره . اللهم سوى اقدامهم على قتل الكلاب ودفنها خارج المدينة . وزاد في سوء الحال ماقام به الأعراب من عصيانهم ، إذ « دمروا بلد تدمر ، وحرقوا كثيراً من أشجارها ورعوها ، وانتهبوا شيئاً كثيراً (٥) » .

فكيف لا تكون عامة الشعب والحالة هذه ، من توالي الحروب والنكبات واحتمال الاضطرابات ، في حال اقرب الى الفقر ، وفي مستوى متدن من العيش ، مما دعا الكثيرين الى مد أيديهم بالسؤال ، حتى إذا سمع أحدهم بتوزيع صدقة ، خف اليها ليجد هنالك الجموع من أمثاله تنتظر العطاء ، من أي نوع كان ، وقد يلفظ أنفاسه بين المتزاحمين قبل أن يحصل على شيء . وقد حدث هذا سنة ٧٢٣ « إذ عوفي القاضي كريم الدين وكيل السلطان من مرض أصابه ، فجمع الفقراء بالمارستان المنصوري ليأخذوا من صدقته ، فمات بعضهم من الزحام (٦) » .

فكان من نتيجة هذا ، أن برزت في المجتمع فئة تأصل الفقر فيها ، واستمرأت السؤال ، حتى غدا مهنتها لا تحيا إلا بتعاطيه ، غير مطمئنة الى غدها القريب

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٨١
(٢) « « ١٤ / ١٧٠
(٣) « « ١٤ / ٢١١
(٤) « « ١٤ / ٢٦٦
(٥) « « ١٤ / ٣٠١
(٦) « « ١٤ / ١٠٥

واحتمالاته المرتقبة . فهؤلاء « جماعة من السؤال اجتمعوا قبل الفجر ليأخذوا خبزاً من صدقة تربة ، فتضاربوا فيما بينهم ، فعمدوا الى رجل منهم فخنقوه خنقاً شديداً ، واخذوا منه جرابا فيه نحو من أربعة آلاف درهم ، وشيء من الذهب[1] » .

هذه خطوط سريعة ، رجوت أن تكون كافية لتوضيح صورة مجتمع مصر والشام ، خلال القرنين السابع والثامن الهجريين . حكام من المماليك يتمتعون بأعلى مستويات العيش ، فيتفننون في طعامهم وشرابهم ولباسهم ووفرة مماليكهم ، واستجلاب ما يكفل لهم مزيداً من الرفاه والراحة .

ومن ثم ولاة للأمور والدواوين ، يغلب عليهم التهالك على المناصب ، ودفع الاموال الطائلة يرشون بها ذوي الامر ، للوصول الى المنصب المنشود ، ثم لا يفتأون يمدون بأيديهم الى الأموال العامة ، فيضبط اكثرهم ويصادر ما أخذه ، مما جعل بعضا منهم يأنف من الوظيفة ويترفع عنها . فيعزل نفسه أو يتأبى على التعيين ، أو يقوم بعمله حتى الإقالة العادية محمود السيرة نظيف اليد طاهر الثوب .

أما عامة الشعب ، فقد اتسمت بالبساطة ، حتى راج بينها التنجيم وادعاء الاحلام ودعاوى المكاشفات . واتصفت بالتدين العميق ، والرجوع الى الله كلما حزبها أمر ، بما كانت تعانيه من الحروب ، وتقاسيه من النكبات على أنواعها ، فكانت الخصومات الدينية والمذهبية اكثر ما يشغلها فيما بينها ويحدد مواقفها ، دون أن يخلو ذلك من وجـــود مجموعات تفشت فيها مختلف الامراض الاجتماعية ، من معاقرة خمر ، أو تعاطي حشيش ، مما يسلم بالتالي الى انحرافات جنسية شاذة ، أو مزاولة سرقة ، أو تعامل بالربا .. وقد كانت هذه الآفات على أنواعها تقابل بالحزم والشدة في غالب الاحيان .

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٢٧٧

كما كانت تمر بالشعب أحوال من العدم الشديد ، تتاو غالباً حلول النكبات تدفع بالكثيرين الى السؤال والاستجداء ، حتى توضعت في المجتمع فئة تطلب للطلب لا للحاجة ، بعد أن مات فيها كبرياء النفس وإباؤها .

الحياة الثقافية :

نشطت الحياة العلمية والأدبية في هذه الفترة من تاريخ مصر والشام نشاطاً ملحوظاً ، فبالاضافة الى ما أولاه الحكام من الاهتمام بالعلم ونشره ورجاله ، فقد ساعدت الاحداث على دفع عربة العلم الى الامام أشواطاً .

فقد طوحت يد الردى بمدن العراق وحواضر الاندلس ، ودارت عليها الدوائر ، وذهب كل ما كان لها من آثار العلم وأعمال المجد والحضارة . فوفد علماؤها على مصر والشام ، يجدوا فيهما الدوحة المنشودة .

وهكذا أصبحت البلاد ميداناً واسعاً ، يتسابق فيه طلاب العلوم والمعارف ، ومورداً عذباً يزدحم عليه أهل الادب ومحبو الحكمة ، وروضة زاهية بمشاهير العلماء والحكماء .

وقد ورث المماليك عن الايوبيين ، تشجيع العلم وتكريم أهله وبناء مدارسه في كافة أنحاء بلادهم .

فقد تسلم المماليك حكم الديار المصرية ، وفيها من صنيع الأيوبيين خمس وعشرون مدرسة (١) ، ثم وصلوا الى حكم بلاد الشام ، ليجدوا فيها عشرين (٢)

(١) تاريخ التمدن الاسلامي – زيدان ٣ / ٢٢٦

(٢) المصدر السابق .

مدرسة أنشأها الأيوبيون . وهكذا سار سلاطينهم على سنة سادتهم ، واحتذى بهم الامراء والفضلاء ، حتى اذا انتصف القرن الهجري التاسع كانت عدة المدارس التي بناها المماليك في مصر خمساً وأربعين [1]. وبذلك بلغت مدارس مصر وحدها في هذين العهدين سبعين مدرسة . وكذا فان مدارسهم بالشام مبثوثة في كل مدنه ، وتأتي على رأسها مدرسة الظاهر بيبرس في دمشق وتضم الآن دار الكتب الظاهرية ، تجاورها مدرسة الملك العادل وفيها مجمع اللغة العربية .

ولن يطول تساؤلنا عن سبب اقبالهم هذا على نشر لغة ليسوا من أهلها ، للأسباب الآتية :

— أولها أنهم اعتنقوا الاسلام ديناً ، فأخلصوا له ، وتفانوا في الدفاع عن أرضه وأهله . وتعلموا العربية ، فأقبلوا على علومها ، ونهلوا من آدابها ، فأحبوا أهلها وفدوهم بأنفسهم .

وقد عبر بعض الشعراء عن هذه الغاية الدينية النبيلة ، في حفلة افتتاح احدى هذه المدارس ، فقال ابن الصائغ الحنفي مخاطباً الأمير صرغتمش .

لِيَهْنِكَ يَا صَرْغَتْمَشُ ما بَنَيْتَهُ   لِأُخراكَ في دُنْيَاكَ مِنْ حُسْنِ بُنْيانِ [2]

كما قال أبو الحسين الجزار عند افتتاح المدرسة الظاهرية بالقاهرة سنة ٦٦٢ هـ .

ألا هكذا يَبْني المدارسَ مَنْ بَنَى   ومَنْ يَتَغالَى في الثَّوابِ وفي الثَّنَا [3]

— وثانيها أن يقدم أحدهم على بناء مدرسة ، تؤيد المذهب الذي ينتمي اليه ويتحمس

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ـ زيدان ٣ / ٢٢٦

(٢) خطط المقريزي ٤ / ٢٥٦

(٣) المصدر السابق ٤ / ٢١٧

له ويسعى لنشره . صنيع الأمير صرغتمش نفسه الذي « كان يشارك في الفقه على مذهب الحنفية ، ويبالغ في التعصب لمذهبه » فأنشأ مدرسته الصرغتمشية سنة ٧٥٦ ، وجعلها « وقفاً على الفقهاء الحنفيـــة الآفاقية ، ورتب لهم جميعاً المعاليم من وقف رتبه لهم [١] » ومن هذا النوع ما فعله الأمير يلبغا سنة ٧٦٧ ﻫ حين « جدد درساً بجامع ابن طولون فيه سبعة مدرسين للحنفية ، وجعل لكل فقيه منهم في الشهر ٤٠ درهماً وإردب قمح ، وذكر أن جماعة من غير الحنفية ؛ انتقلوا الى مذهب أبي حنيفة لينزلوا في هذا الدرس [٢] » .

كما كان هناك من شجع العلم حباً في العـــلم ، لما كان له من الاهتمام به والاشتغال فيه . فقد كان الملك المنصور قلاوون ، على جانب عظيم من العلم والمعرفة والفضل [٣] ، ويخبرنا ابن كثير بأن ابنه السلطان الناصر محمد كان يسمع « على الشيخ شهاب الدين الحجار المعروف بابن الشحنة [٤] » . وقد عبر السراج الوراق عن ذلك ، عند افتتاح المدرسة الظاهرية فقال :

مَليكٌ لهُ في ٱلْعِلْمِ حُبٌّ وأهلِهِ فَللـه حُبٌّ ليسَ فيـه مَلامُ
فَشيَّدَها للعِلْمِ مدرسةً غَـــدا عراقٌ إليها شَيِّقٌ وشَآمُ
ولا تَذْكُرَنْ يوماً نِظامِيَّةً لها فليسَ يُضاهِي ذا النِّظامَ نِظامُ [٥]

— وآخر هذه الأسباب ، سعي هؤلاء المماليك لكسب رضى الامة ومحبتها والتقدم

---

(١) خطط المقريزي ٤/٢٥٢ وما بعدها
(٢) البداية والنهاية ١٤ / ٣٢١ سنة ٧٦٧
(٣) عصر الانحدار .
(٤) البداية والنهاية ١٣ / ١٥٠ سنة ٧٣٠
(٥) المقريزي ٤ / ٢١٧

عندها ، فاذا كانت منزلة الخلفاء في نفوس المسلمين ، يؤيدها أكثر من عامل ، فما أحوج هؤلاء الى البرهنة الدائمة ، على أهليتهم لارتقاء سدة الرئاسة والحكم. فكان أن تبارى السلاطين والامراء ، وتبعهم كثير من الوجهاء ، في بناء المدارس والمساجد والخوانق [١] والربط [٢] والزوايا [٣] والبيمارستانات [٤] ، والتوقيف عليها بسخاء يغطي نفقاتها الكثيرة التي تشمل تأثيثها وتزويدها بالكتب ، ودفع المعاليم الشهرية المدرسين والفقهاء والقراء والطلبة .. بما يضمن للمدرسة البقاء والارتقاء ، فكسبوا بذلك رضى الناس وثناءهم . وقد استمعنا الى أبي الحسين الجزار وهو يقول مشيراً الى هذا ، عند افتتاح المدرسة الظاهرية :

أَلا هكذا يَبْني المدارسَ مَنْ بَنَى ۞ ومَنْ يَتَغالَى في الثواب وفي الثَّنا
لقد ظَهَرَتْ للظاهر اليومَ هِمَّـــةٌ ۞ بها اَلْيَومَ في الدَّارَيْن قد بَلَغَ المُنَى [٥]

وتأتي في طليعة هذه المدارس ، المدرسة المنصورية بالقاهرة ، وقد « أنشأها هي والقبة التي تجاهها والمارستان ؛ الملك المنصور قلاوون ، ورتب لها دروساً أربعة ودروساً للطب ، ورتب بالقبة درساً للحديث النبوي ، ودروساً لتفسير القرآن الكريم . وكانت هذه التداريس لايليها الا أجل الفقهاء المعتبرين .. وفي القبة خزانة جليلة كان فيها عدة أحمال من الكتب في أنواع العلوم [٦] » .

— كما أن إنشاء هذه المدارس لم يكن قاصراً على الأحياء منهم ، إذا أن « الملك الصالح عماد الدين ابن محمد بن قلاوون قصد عمارة مدرسة ، فاخترمته المنية دون

---

(١) ج خانقاه ، يبنى للمتصوفة .
(٢) ج رباط ، يبنى ويوقف للفقراء
(٣) ج زاوية ، يخصص للعبادة والانقطاع
(٤) البيارستان : فارسي مركب يعني المستشفى
(٥) خطط المقريزي ٤ / ٢١٧
(٦) المصدر السابق

بلوغ غرضه ، فقام الأمير أرغون العلائي زوج أمه ، في وقف قرية تعرف بدهمشا الحمام ، ورتب ما كان الملك الصالح اسماعيل قرره في حياته لو أنشأ مدرسة ، وجعل ذلك مرتباً لمن يقوم به في القبـــة المنصورية ، وهو وقف جليل ، يتحصل منه في كل سنة نحو أربعة الآف دينار ذهبا . وكان لا يلي تدريس دروسه الا قضاة القضاة [1] » .

— ولم تكن نساء المماليك كذلك بعيدات عن ميدان المدارس ورعاية أهلها . فهذه المدرسة الحجازية ، وقد أنشأتها الست الجليلة الكبرى خوند ، زوجة الأمير بكتمر الحجازي سنة ٧٦١ . وجعلت بها درساً للفقهاء الشافعية ، ودرساً للفقهاء المالكية ، ورتبت لها إماماً يقيم بالناس الصلوات الخمس ، وجعلت بها خزانة كتب . فيه بجوارها قبة من داخلها لتـــدفن تحتها ، وجعلت بجوار المدرسة مكتباً للسبيل ، فيه عدة من أيتام المسلمين ، ولهم مؤدب يعلمهم القرآن ، ويجري عليهم في كل يوم لكل منهم من الخبز النقي خمسة أرغفة ومبلغ من الفلوس ، ويقام لكل منهم بكسوتي الشتاء والصيف .. وجعلت على هذه الجهات عدة أوقاف جليلة ، يصرف منها لأرباب الوظائف المعاليم السنية . وكان لا يلي نظر هذه المدرسة الا الأمراء الأكابر [2] .. »

وقد بلغ الدافع الديني عند بعضهم حداً ؛ جعله يتهيب النظر في حساب التكاليف ، فعندما فرغ الأمير علاء الدين طيبرس من بناء المدرسة التي أنشأها سنة ٧٠٩ ، وقد تأنق في رخامها وتذهيب سقوفها « احضر إليه مباشروه حساب مصروفها ، فلما قُدّم اليه استدعى بطشت فيه ماء ، وغسل أوراق الحساب بأسرها ،

---

(١) خطط المقريزي ٤ / ٢١٧
(٢) المصدر السابق

من غير أن يقف على شيء منها وقال : شيء خرجنا عنه لله تعالى لا نحاسب عليه [1] »

أما الأمير اقبغا عبد الواحد فانه أراد أن ينفي عن نفسه أنه يوقف المدرسة ليؤول نفعها الى أبنائه - إذ أنه من مماليك الناصر بن قلاوون ، ويحق لسيده وراثته دون أبنائه - فعمد حين انتهى من انشاء المدرسة الى « جعل النظر للقاضي الشافعي بديار مصر ، وشرط في كتاب وقفه أن لا يلي النظر أحد من ذريته [2] »

ولكن هذه حالة فردية نادرة ، ويبقى من أسباب تشميرهم لبنـــاء المدارس والتوقيف عليها ؛ تأمين أبنائهم خوفاً عليهم من عاديات السلطان من بعدهم .

وعندما يكتمل بناء المدرسة تحتفل الدولة بافتتاحها ، فحين انتهى انشاء المدرسة الصرغتمشية سنة ٧٥٧ « ركب الأمير صرغتمش ، وحضر اليه الأمير مدير الدولة . والأمير صاحب الحجّاب ، والأمير الدوادار وعامة أمراء الدولة ، وقضاة القضاة الأربعة ومشايخ العلم ، ورتب مدرس الفقه بها قوام الدين ، فألقى القوام الدرس ، ثم مد سماط جليل بالهمة الملوكية ، وملئت البركة التي بها سكّراً قد أذيب بالماء . فأكل الناس وشربوا وابيح ما بقي من ذلك للعامة . وقال أدباء العصر فيها شعرا [3] »

فلا مراء في أن مثل هذا الاحتفال ينشر ذكر الواقف ، ويرفع من اسمه في أوساط العلماء والعامة ، مما يشجع الآخرين على احتذائه .

وقد يبلغ الحرص ببعضهم لتكون مدرسته تامة الفائدة ، فيعمد الى تحديد بعض الشروط . من ذلك ما فعله « بهاء الشيخ نجم الدين البادرائي سنة ٦٥٥ وقد ابتنى بدمشق مدرسة حسنة ، وشرط على المقيم بها العزوبة . وان لا يكون الفقيه في

---

(١) خطط المقريزي ٤ / ٢٢٣ وما بعدها
(٢) « « ٤ / ٢٢٥
(٣) « « ٤ / ٢٥٦

غيرها من المدارس . وإنما أراد بذلك توفر خاطر الفقيه وجمعه على طلب العلم[1] » .

ولم يكن تشجيع المماليك يتوقف عند فتح المدارس . بل سيكون ذلك بتكريمهم العلماء والسماع عليهم . كما فعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٠ ، فقد « سمع على الشيخ شهاب الدين الحجار ، وخلع عليه وألبسه الخلعة بيده[2] » .

كما أن دولة الشعر لم تزل مرفوعة الأعلام ، وألسنة الشعراء تحركها الجوائز السنية يمنحها لهم الأمراء . كما وقع في حفل افتتاح المدرسة الصرغتمشية سنة ٧٥٦ ، فقد « خلع الأمير على القوام خلعة سنية ، وأركبه بغلة رائعة . وأجازه بعشرة آلاف درهم على أبيات مدحه بها وهي[3] . »

ثم كانت عناية المماليك باقامة المارستانات ، تضيف الى ما سلف تدريس الطب ، والعناية بالصحة العامة . ويأتي في طليعتها المارستان المنصوري . « وكان سبب بنائه ؛ أن الملك المنصور لما توجه وهو أمير الى غزاة الروم ، في أيام الظاهر بيبرس سنة ٦٧٥ ، أصابه بدمشق قولنج عظيم ، فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من مارستان نور الدين الشهيد ، فبرأ وركب حتى شاهد المارستان فأعجب به ، ونذر إن آتاه الله الملك أن يبني مارستاناً . فلما تسلطن أخذ في عمل ذلك[4] » .

« وقد رتب فيه العقاقير والأطباء ، وسائر ما يحتاج اليه من به مرض من الأمراض ، وفرشها بجميع الفرش المحتاج اليها من المرض ، وجعل فيه فراشين من الرجال والنساء لخدمة المرضى ، وقرر لهم المعاليم ونصب الأسرة للمرضى . . وافرد لكل طائفة من المرضى موضعاً . . وجعل الماء يجري في جميع هذه الأماكن ،

(١) البداية والنهاية ١٣ / ١٩٦ سنة ٦٥٥
(٢) « « ١٣ / ١٥٠
(٣) خطط المقريزي ٤ / ٢٥٦
(٤) « « ٤ / ٢٦٠

وأفرد مكاناً لطبخ الطعام والأدوية والأشربة ، ومكاناً لتركيب المعاجين والاكحال والشيافات ونحوها . . ومكاناً يجلس فيه رئيس الأطباء لالقاء درس الطب . ولم يحص عدة المرضى ، بل جعله سبيلاً لكل من يرد عليه من غني أو فقير ، ولا حدد مدةً لإقامة المريض به ؛ بل يرتب منه لمن هو مريض بداره سائر ما يحتاج اليه . كما جعل فيه أقساماً خاصة بالنساء .. وجعل النظر لنفسه أيام حياته ، ثم من بعده لأولاده ، ثم من بعدهم لحاكم المسلمين الشافعي . . فبلغ مصروف الشراب منه في كل يوم خمسمائة رطل سوى السكر .

«ولما نجزت العمارة سنة ٦٨٣ وقف عليها الملك المنصور من الأملاك بديار مصر وغيرها ، ما يقارب ألف ألف درهم في كل سنة ، رتب مصاريف المارستان والقبة والمدرسة ومكتب الأيتام وبما قاله فيه شرف الدين البوصيري .

مدينةُ علمٍ والمدارسُ حولَها قُرًى أو نجومٌ بَدْرُهنَّ مُنيرُ[1]

أما بناء المماليك للمساجد فشيء كثير ، ولم تكن مقصورة على العبادة فحسب بل كانت تعقد فيها حلقات العلم على أنواعه ، وبخاصة الجامع الأزهر الذي أولاه المماليك عناية خاصة ، فأصلحوه أربع مرات . اهتم بأمره فيها الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥ ، والأمير رسلان سنة ٧٠٢ إثر زلزال أثر فيه ، فنجم الدين بن علي الإسعردي محتسب القاهرة سنة ٧٢٥ ، ثم الأمير سعد الدين الجامدار سنة ٧٦١ وكان يسكن قريباً منه ، فأراد أن يحسن الجوار اليه فأستأذن في ادخال ما يصلحه .

وقد كانت مدارسهم جوامع تقام فيها الصلوات ويتلى في أكثرها القرآن الكريم ليلاً ونهاراً شأن المدرسة الحجازية[2] .

كما ابتنى المماليك الخوانق للصوفية ، وقد زاد عددها على العشرين ، وكان من

---

(١) خطط المقريزي ٤ / ٢٥٩

(٢) » » ٤ / ٢٢٣

أشهرها خانقاه سرياقوس التي « أنشأها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون .. وجعل فيها مئة خلوة لمئة صوفي ، وبنى بجانبها مسجداً تقام به الجمعة ، وبنى بها حماماً ومطبخاً وكمل البناء سنة ٧٣٥ .. كانت معالم هذا الخانكاه من أسنى معلوم بديار مصر . يصرف لكل صوفي في اليوم من لحم الضأن رطل قد طبخ في طعم شهي ، ومن الخبز النقي أربعة أرطال ، ويصرف له في كل شهر مبلغ أربعين درهماً فضه ، ورطل حلوى ، ورطلان زيتاً من زيت الزيتون ، ومثلا ذلك من الصابون ، ويصرف له ثمن كسوة في كل سنة ، وتوسعة في كل شهر رمضان وفي العيدين .. وبها الطبائعي والجرائحي والكحال ومصلح الشعر .. فكان المنقطع بها لا يحتاج الى شيء غيرها ، ويتفرغ للعبادة ومما قيل في الخانقاه وما أنشأه السلطان بها :

سِر نحوَ سرياقوسَ وانزلْ بفِنا   أرجائها يا ذا النُهى والرُشْدِ
تَلْقَ مَحَلّاً للسرور والهَنا   فيه مُقامٌ للتُقى والزُهْدِ
نَسيمُهُ يقولُ في مَسيرِهِ   تَنَبَّهي يا عَذَبَاتِ الرَّنْدِ
ورَوضُهُ الرَّيانُ من خليجِهِ   يقول دعْ ذكرَ أراضي نَجدِ[1]

وذكر المقريزي في سبب إنشاء السلطان لهذه الخانقاه ، أنه كان راكباً للصيد « فأخذه ألم عظيم في جوفه كاد يأتي عليه ، وهو يتجلد ويكتم ما به حتى عجز ؛ فنزل عن الفرس والألم يتزايد به ، فنذر لله إن عافاه الله لَيَبْنيَنَّ في هذا الموضع موضعاً يعبد الله تعالى فيه ، فخف عنه ما يجده وركب ، فقضى نهمته من الصيد (ثم عاد بعد أيام) ومعه عدة من المهندسين واختط هذه الخانقاه .. »

كما أقام المماليك الربط والزوايا ، واعتنوا ببناء المساجد ، التي لا يزال أكثرها قائماً في دمشق والقاهرة وغيرهما ، يشهد بطول باعهم في هذا الميدان .

---

(١) خطط المقريزي ٤ / ٢٨٤ وما بعدها

أما التعليم ، فلم يكن مقصوراً على المدارس ، بل كانت تعقد حلقات للتدريس في المساجد أو في بيوت العلماء أنفسهم . وكان بعض الشيوخ يجمع بين المدارس والحلقات معاً شأن « الشيخ ركن الدين أبي يحيى زكريا بن يوسف البجلي الشافعي مدرس الطيبية والأسدية ، وله حلقة للاشتغال بالجامع ، يحضر بها عنده الطلبة [1] » .

وزاد اهتمام الناس بالعلم وتحصيله ، وشاع في المجتمع أمثال أبيات ابن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ ناصحاً ولده بقوله :

أُطْلُبِ ٱلعِلْمَ ولا تَكسَلْ فما ... أَبعدَ الخيرَ على أهلِ الكَسَلْ
واحْتَفِلْ بالفقه في الدينِ ولا ... تشتغِلْ عنهُ بمالٍ وَخَوَلْ
جَمِّلِ المَنْطِقَ بالنحوِ فَمَنْ ... يُحرَمِ الإعرابَ بالنُطْقِ اخْتَبَلْ
أُنْظُمِ الشعْرَ ولازِمْ مَذْهَبي ... في اطِّراحِ الرِفدِ لا تبْغِ النِّحَلْ
فهوَ عنوانٌ على الفَضْلِ وما ... أحسنَ الشعرَ إذا لم يُبْتَذَلْ

كما كان العلماء على درجات ، أعلاها ما اقترن بالرحلة في طلب العلم ، وكان يذكر له ذلك . فابن كثير يخبرنا عن « الشيخ الامام العالم بقية السلف رضي الدين الطبري المكي الشافعي إمام المقام أكثر من خمسين سنة ، سمع الحديث من شيوخ بلده والواردين اليها ، ولم يكن له رحلة [2] » كما ينقل الينا صورة واحد من مجالس العلم والأدب ، مما كان يعقد في منزل أحد رجاله وذلك سنة ٧٦٣ فيقول : « دعيت الى بستان الشيخ العلامة كمال الدين بن الشريشي شيخ الشافعية ، وحضر جماعة من الأعيان ، منهم الشيخ العلامة شمس الدين بن الموصلي الشافعي ، والشيخ الامام

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ١٠٣ سنة ٧٢٢

(٢) المصدر السابق

صلاح الدين الصفدي وكيل بيت المال ، والشيخ الأمام العلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي من أئمة اللغوين ، والخطيب الامام العلامة صدر الدين بن العز الحنفي أحد البلغاء الفضلاء ، والشيخ الامام العلامة نور الدين على الصارم أحد القراء المحدثين البلغاء ، وأحضروا نيفاً وأربعين مجلداً من كتاب (المنتهى في اللغة) للتميمي البرمكي وقف الناصرية ، وحضر ولد الشيخ كمال الدين بن الشريشي ، وهو العلامة بدر الدين محمد واجتمعنا كلنا عليه ، وأخذ كل منا مجلداً بيده من تلك المجلدات ، ثم أخذنا نسأله عن بيوت الشعر المستشهد بها ، فينثر كلا منها ويتكلم عليه بكلام مبين مفيد . فجزم الحاضرون والسامعون أنه يحفظ جميع شواهد اللغة ، ولا يشذ عنه منها الا القليل الشاذ . وهذا من أعجب العجائب وأبلغ الأغراب [1] » .

ولقد كان من مظاهر تشجيع المماليك للعلم والأدب وأهلها ، عنايتهم بديوان الانشاء وحسن اختيار القائمين عليه ، حتى إن ناظر الديوان كان يخضع لاختيار السلطان نفسه بما يجب أن يجتمع له من صفات العلم والموهبة الأدبية ، والتدين وحسن السيرة ، نظراً لأهمية منصبه ، واطلاعه على أسرار الدولة والسلطان . اذا كان لقب كاتب السر [2] أحد ألقاب ناظر الديوان هذا ، وقد مر بنا ما كان من « محمد بن محيي الدين بن عبد الظاهر كاتب الأسرار في الدولة المنصورية . . اذ طلب منه (الوزير) ابن السلعوس أن يقرأ عليه كل ما يكتبه فقال : هذا لا يمكن ، فان أسرار الملوك لا يطلع عليها غيرهم ، وأبصروا لكم غيري يكون معكم بهذه المثابة . فلما بلغ الأشرف ، أعجبه منه وازدادت عنده منزلته [3] » .

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٢٩٥ سنة ٧٦٣

(٢) خطط المقريزي ٣ / ٣٦٧

(٣) البداية والنهاية ١٣ / ٣٣١ سنة ٦٩١

وهكذا بلغ كاتب السر منزلة عظيمة في دولة المماليك « وصار اليه التحدث في مجلس السلطان عند عقد المشورة ، وعند اجتماع الحكام لفصل أمر مهم ، وله التوسط بين الأمراء والسلطان فيما يندب اليه عند الاختلاف أو التدبير ، واليه ترجع أمور القضاة ومشايخ العلم ونحوهم في سائر المملكة مصراً وشاماً ، فيُمضي من أمورهم ما أحب ، ويشاور السلطان فيما لا بد من مشاورته فيه [1] » .

لذلك تنافس على هذا المنصب كبار الكتاب ، وعمل للوصول الى هذه المرحلة كل أحد من ذوي الطموح ، فكان ذلك مدعاة للتوسع في التزود والتحصيل .

وفي (صبح الأعشى) يعدد القلقشندي ، ما يجب أن يعرفه صاحب ديوان الانشاء أو الكاتب فيه ، وهو شيء يستدعي من الطالب جهداً كبيراً ، وسعياً حثيثاً ، ليؤهل نفسه لذلك المنصب ، ويُعد الذين تسلموا هذا المنصب أعلاماً في الكتابة والأدب . فمنهم : ابن فضل الله العمري ، والقلقشندي ، وضياء الدين بن الأثير ، وصلاح الدين الصفدي ، وعز الدين بن أبي الحديد . . والمقريزي ؛ الذي يقول عن نفسه عند ذكره قاعة ديوان الانشاء « وأنا جلست بها عند القاضي بدر الدين محمد بن فضل الله العمري ، أيام مباشرتي التوقيع السلطاني الى نحو سنة ٧٧٠ [2] » .

ويكمل صورة العصر العلمية ، ما نتج فيه من المؤلفات الغزيرة ، فقد كان على اضطرابه السياسي كثير النتاج التأليفي . ولمع فيه مؤلفون بلغت مؤلفاتهم المئين من الكتب ، وأقرب مثال لذلك أديبنا الصلاح الصفدي ، فقد كان غزير التأليف لا يفتر عنه .

أما ما يتعلق بخزائن الكتب ، فقد كانت كثيرة وغنية ، وحسبنا أن نقول : إن كل مدرسة ومسجد ومارستان . . وغير ذلك مما أنشأه المماليك ، كانت تلحق به

---

(١) خطط المقريزي ٤ / ٣٦٧

(٢) خطط المقريزي ٣ / ٣٦٦

خزانة عامرة تضم الأحمال من الكتب النفسية ، والمصنفات النافعة ، في كل فن ومطلب . هذا سوى المكتبات في بيوت العلماء والادباء وغيرهم من المشتغلين .

هذه بالاجمال صورة دالة عن الحالة الثقافية في دولة المماليك :

اهتمام بالتحصيل العلمي ، عنـــاية بالمدارس وإنشائها ، واقامة للمساجد والخوانق والربط والزوايا للعبادة والتدريس ، ثم إنشاء للمارستانات ليكون منها كل الخير للمواطنين والعلم على السواء .

وقد سار المماليك في هذا الشوط حتى النهاية ، فلم يبخلوا بمال أو يضنوا بنفقة ، حتى غدا عصرهم ـ بغض النظر عن الاسباب الدافعة لهم ـ درة في جبين الثقافة الاسلامية ، بما كان فيه من البذل والتشجيع ، وانتشار العلم وغزارة التأليف .

★ ★ ★

الفصل الثاني

حياة الصلاح الصفدي وآثاره

صلاح الدين الصفدي

هو خليل بن الأمير عز الدين أيبك بن عبد الله الألبكي الصفدي ، صلاح الدين أبو الصفاء [1] . كان والده من أمراء المماليك ، وولد له خليل في صفد سنة ٦٩٦ هـ ، ونشأ نشأة عربية خالصة ، نظير غيره من أبناء المماليك ، وتمتع برغد العيش في ظل أبيه ، فوجدت مواهبه مجالها الفسيح لتتفتح وتعبر عن ذاتها ، فبدا ميله الى بعض الفنون « وتعانى صناعة الرسم فمهر فيها ، ثم حبب إليه الأدب فولع بـه ، وكتب الخط الجيد ، وشارك في الفنون [2] » .

« وذكر عن نفسه أن أباه لم يمكنه من الاشتغال حتى استوفي عشرين سنة ، فطلب بنفسه ، وقال الشعر الحسن ، ثم أكثر جداً من النظم والنثر والترسل والتواقيع [3] » .

فقد هيأه ولوعه بالرسم وتعلقه به ؛ لأن يكون خطاطاً بارعاً ، كما أطلق هذا

---

(١) النجوم الزاهرة ١١ / ١٩ .

(٢) الدرر الكامنة ٢ / ٨٧

(٣) المصدر السابق . والبدر الطالع ١ / ٢٤٣

الولوع خياله وأغناه ليجيد التعبير بالتصوير في الشعر والنثر ، وهـــو في الشعر وسيلته الأصيلة .

وهكذا بدت طريق صلاح الدين واضحة متميزة ، مما سيظهر أثره كذلك واضحاً متميزاً ؛ في تحصيله واهتمامه وتآليفه .

لم يجد الصفدي في علماء بلده ما يرضي مواهبه ويشبع نهمه « وكانت له همة عالية في التحصيل [1] » فرحل إلى دمشق يقرأ على علمائها ، وكانوا من أجلّ الرجال .

فأخذ الأدب عن شهاب الدين محمود [2] ولازمه ، وعن ابن نباتة الشاعر [3] ، كما لازم فتح الدين بن سيد الناس [4] ، وأخذ عنه المغازي والسير ، وأخذ النحو عن أبي حيان النحوي [5] ، وأما عن القاضي بدر الدين بن جماعة [6] ؛ فقد أخذ الفقه على المذهب الشافعي ، وأخذ عن الحافظ المزي [7] وقرأ على الشيخ تقي الدين السبكي [8] ، كما أخذ التاريخ عن أبي عبد الله الذهبي [9] ، حتى برع في الأدب نظماً ونثراً وكتابة وجمعاً . وقد أثّر اهتمامه البالغ بالأدب وتحصيله وما يتصل به بسبب ؛ على تحصيله لبقية العلوم ، والتي لم تجد كذلك هوى من نفسه ، فكأنما

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٦ / ٩٤

(٢) شهاب الدين محمود بن سليمان. متوفى بدمشق سنة ٧٢٥ هـ : انظر الدرر الكامنة ٤/٣٢٤

(٣) ابن نباتة الشاعر محمد بن محمد. متوفى بمصر سنة ٧٦٨ هـ المصدر السابق ٤/٣٣٩

(٤) فتح الدين بن سيد الناس اليعمري محمد بن محمد. متوفى بالقاهرة سنة ٧٣٤ هـ . انظـــر الوافي بالوفيات ١ / ٢٨٩

(٥) أبو حيان النحوي محمد بن يوسف الأندلسي أثير الدين. متوفى بالقـاهرة سنة ٧٤٥ هـ . بشذرات الذهب ٦ / ١٤٥

(٦) بدر الدين بن جماعة محمد بن إبراهيم. متوفى بمصر سنة ٧٣٣ هـ . البداية والنهاية ١٤/١٦٣

(٧) الحافظ المزي يوسف بن عبد الرحمن. متوفى بدمشق سنة ٧٤٢ هـ . مفتاح السعادة ٢/٢٢٤

(٨) تقي الدين السبكي علي بن عبد الكافي. توفي بالقاهرة سنة ٧٥٦ هـ . طبقات الشافعية ٦/١٤٦

(٩) أبو عبد الله شمس الدين الذهبي محمد بن أحمد. توفي بدمشق سنة ٧٤٨ هـ . المصدر السابق ٥/٢١٦

أدرك سوء تأثيرها في خيال الأديب ، وفي تعبيره الشعري « فقرأ يسيراً من الفقه والأصلين[1] » وكذلك « قرأ بنفسه شيئاً من الحديث[2] » حتى قال فيه صديقه تاج الدين السبكي « ما صنف كتاباً إلا وسألني فيه عما يحتاج إليه ، من فقه وحديث وأصول ونحو[3] » بينما يقول تاج الدين نفسه في مكان آخر « وربما وقع لي شعر ركيك من نظم الصبيان فكتبه هو عني إذ ذاك ، وبه رغبت في الأدب[4] » . وقد أجمع شيوخه على تقديره والإعجاب به ، حتى إن بعضهم سمع عنه ؛ أمثال « الذهبي وابن كثير والحسيني وغيرهم[5] » .

وقد ذكره شيخه الذهبي في « المعجم المختص » فقال فيه : « الإمام العالم الأديب البليغ الأكمل ، شارك في الفضائل ، وساد في علم الرسائل ، وجمع وصنف ، سمع مني وسمعت منه وله تآليف .. والله يمده بتوفيقه[6] » .

كما اعترفوا بموهبته في الأدب والنقد ؛ منذ أن كان يقرأ عليهم . يقول الصفدي في معرض حديثه عن شيخه ابن سيد الناس « وكتبت له استدعاءً إجازته لي ، بما صورته بعد الحمدلة والصلاة . . . (فكان مما أجابه به الشيخ) : وأذنت لك في إصلاح ما تعثر عليه من الزلل والوهم ، والخلل الصادر عن غفلة اعترت النقل أو وهلة اعترضت الفهم ، فيما صدر عن قريحتي القريحة من النثر والنظم ، وفيما تراه

---

(١) مفتاح السعادة ١ / ٢١٠

(٢) الدرر الكامنة ٢ / ٨٧

(٣) طبقات الشافعية ٦ / ٩٤

(٤) المصدر السابق

(٥) الدرر الكامنة ٢ / ٨٧

(٦) شذرات الذهب ٦ / ٢٠١

من استبدال لفظ بغيره ، بما لعله أنجى من المرهوب ، أو أنجع في نيل المطلوب ، أو أجرى في سنن الفصاحة على الأسلوب[1] » .

وقد شعر الصفـــدي في أخريات عمره ؛ بوجوب إتقان الجانب العلمي من ثقافته ، وقد كانت هذه العلوم أساساً لا يكون المتعلم بدونها « فسمع بالأخَرة من جماعة ، وقرأ على الشيخ الإمام جميع (شفاء السقام في زيارة خير الأنام) .. ولما أخرجت مختصري في الأصلين المسمى « جمع الجوامع » كتبه بخطه ، وصار يحضر الحلقة ، وهو يقرأ عليّ ، ويلذ له التقرير ، وسمعه كله عليّ ، وربما شارك في فهم البعض منه . رحمه الله تعالى[2] » .

نشاطه الأدبي :

وقد كان من أنشط أدباء عصره ، كتب الكثير في التاريخ واللغة والأدب « وله الأشعار الفائقة والفنون المتنوعة[3] » ومن قـــوله : « وكتبت أزيد من ستمائة مجلد تصنيفاً[4] » « ولعل الذي كتبته في الإنشاء ضعفا ذلك[5] » . كما أنه كثير الشعر غزيره ، وهو مبثوث في ثنايا كتبـــه ، « وقد أودع منه في شرح لامية العجم وغيرها ما يعرف به مقداره[6] » « وديوان شعره مشهور بأيدي الناس وهو من المكثرين[7] » .

---

(١) الوافي بالوفيات ١ / ٢٨٩
(٢) طبقات الشافعية ٦ / ٩٤
(٣) البداية والنهاية ١٤ / ٣٠٣
(٤) مفتاح السعادة ١ / ٢١٠
(٥) الدرر الكامنة ٢ / ٨٧
(٦) البدر الطالع ١ / ٢٤٣
(٧) النجوم الزاهرة ١١ / ١٩

مؤلفاته :

وتبعاً لما عرف به الصفدي من نشاط علمي ، وغزارة في الشعر ؛ فقد كثرت نتيجة لذلك كتبه ، فعُد « في باب التأليف من المكثرين المجودين [١] » حتى قال ابن كثير بأنه « كَتَب ما يقارب مائتين من المجلدات [٢] » أما الزركلي فقد ذكر بأنه « كثير التصانيف الممتعة له زهاء مائتي مصنف [٣] » . ويتقدم ابن العماد الحنبلي ليقول : « وقفت على ترجمة كتبها الصفدي لنفسه نحو كراسين ، ذكر فيها أحواله ومشايخه وأسماء مصنفاته ، وهي نحو الخمسين مصنفاً ، منها ما أكمله ومنها ما لم يكمله [٤] » ، هذا ما قيل ، أما ماوصل الينا فلم يزد على خمسة وأربعين ، اعتمدت في معرفتها على كتاب بروكلمان في « تاريخ الأدب العربي » مضيفاً الى قائمته ما لم يصل إليه خبره ، مما ورد عند غيره . وهاك ثبتاً أبجدياً بكتبه هذه :

١) - **أعيان العصر وأعوان النصر** : جعله لتراجم مشاهير القرن الثامن الهجري الى أيامه ، من الرجال والنساء ، في ستة مجلدات . وقد أشار غالبُ من ترجم للصفدي ، الى أنه أفرد هذا الكتاب من كتابه « الوافي بالوفيات [٥] » ولا يزال الكتاب مخطوطاً ، وقد ورد في كلٍ من : طبقات الشافعية ٩٦/٦ والدرر الكامنة ٨٧/٢ باسم « أعوان النصر في أعيان العصر » والنجوم الزاهرة ١٩/١١ والأعلام ٣٦٤/٢ والبدر الطالع ٢٤٣/١ وعند بروكلمان GAL II 32 و S II 28 برلين ٩٨٦٤ / ٩٨٦٥ - القاهرة (ثاني) ٣٥/٥ وفي دار الكتب المصرية بالقاهرة تاريخ ١٠٩١ - ١٠٩٤ .

---

(١) كنوز الأجداد ٣٨٠
(٢) البداية والنهاية ١٤ / ٣٠٣
(٣) الأعلام ٢ / ٣٦٤
(٤) شذرات الذهب ٦ / ٢٠١
(٥) انظر البدر الطالع ١ / ٢٤٣ والدرر الكامنة ٢ / ٨٧

٢) - **اختراع الخراع** : وهو شرح مفصل لأشعار مع تعليقات في علوم اللغة والعروض ، ولم يرد إلا عند بروكلمان S II 29 و GAL II 33 ليدن ٣٢١ .

٣) - **الأرب من غيث الأدب** : ولم يرد إلا في فهرس الخزانة التيمورية ٣/١٧٧ دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٨ وقد عثرت على نسخة مطبوعة ، في مكتبة معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة (ب ١ - ١٩٦) بالمطبعة العثمانية سنة ١٨٩٧ ، ويغلب على الظن أنه مقتطفات من كتاب الصفدي . بينما أشار صاحب معجم المؤلفين ٤/١١٤ إلى أن كتاب (الأرب من غيث الأدب) هو نفسه (الغيث المسجم) ويؤكد هذا محتويات كتاب الأرب المشار إليه . كما أن في دار الكتب الظاهرية بدمشق نسخة خطية باسم (غيث الأدب المنسجم في شرح لامية العجم) « شعر ٢ » وفي هدية العارفين ١/٣٥١ ، فهل هو المقصود في معجم المؤلفين ؟ .

٤) - **ألحان السواجع من المبادي والمراجع** : مجلدان وهو رسائله الى بعض معاصريه . مخطوط ، وقد ورد في الدرر الكامنة ٢/٨٧ والبدر الطالع ١/٢٤٣ والأعلام ٢/٣١٤ وعند بروكلمان S II 28 و GAL II 32 باسم : ألحان السواجع من النادي والراجع برلين ٨٦٣١ باريس ٢٠٦٧ والمتحف البريطاني ١٠١٦ وغير ذلك .

٥) - **تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب** : مخطوط ، وهو أرجوزة لكتاب ابن عساكر . وقد نشر صلاح الدين المنجد كتاباً للصفدي باسم (أمراء دمشق في الاسلام) أرجوزة ، لعلها جزء من (تحفة ذوي الألباب) وأورده بروكلمان S II 28 و GAL II 32 باريس ٥٨٢٧ وغيرها.

٦) - **التذكرة** : وهو مطوّل في الأدب والشعر ، تقع في ثلاثين مجلداً ، مرتب حسب الموضوعات ، ويقسم إلى أبواب في أنواع الفضائل والرذائل ، وفيه

كثير من الفوائد التاريخية والاجتماعية ، وكثير أيضاً من تراجم الشعراء والأدباء .
ومن المرجح أنه صنف التذكرة ليعود إليها عند الحاجة . يقول صديقه تاج الدين السبكي : « أعارني مرة من تذكرته مجلداً ، وكان يصنف كتاباً في الوصف والتشبيه وينظر عليه التذكرة ، ويكتب على كل مجلداً إذا نجز : نجز التشبيه منه [1] » .

كما ورد في الأعلام ٢/٣٦٤ . والكتاب مخطوط ، ذكره بروكلمان في GAL II 32 وقال : بعض أجزائها في جوتا ٢١٤٠ والمتحف البريطاني ٧٦٥ وغير ذلك .

٧) - **تصحيح التصحيف وتحرير التحريف** : وهو مخطوط ، ورد في معجم المؤلفين ٤/١١٤ وفي هدية العارفين ١/٣٥١ وهناك نسخة منه في دار الكتب المصرية بالقاهرة المكتبة الزكية ٣٧ لغة [2] .

٨) - **تشنيف السمع بانسكاب الدمع** : وورد كذلك باسم : لذة السمع في صفات الدمع . جمع فيه ما قاله الشعراء في الدمع ووصفه ، فبدأ بالبكاء منذ قول امرىء القيس فيه ؛ حتى جرى كالأنهار وطمى كالبحور في عصره ، مع مقدمة حسنة في النقد . وهو مطبوع في القاهرة سنة ١٣٢١ هـ .

٩) - **تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون (الجدية)** : صدرها بترجمة مطولة لابن زيدون ومراسلاته ، مع انتقادات شعرية ، ونوادر تاريخية ، عن الملوك والقواد يليه الشرح . وهو مطبوع .

١٠)- **توشيع الترشيح** : وقد أورده ابن حجر في الدرر الكامنة ٢/٨٧ فحسب .

١١)- **جلوة المذاكرة في خلوة المحاضرة** : وهو مخطوط في الخزانة التيمورية ،

---

(١) طبقات الشافعية ٦ / ٩٥

(٢) انظر (لحن العامة والتطور اللغوي) للدكتور رمضان عبد التواب ٢٦٨ - ٢٧٣

وصفه محمد كردعلي في مجلة المجمع ٣٨/١٦ ، ورد في الدرر الكامنة ٨٧/٢ والأعلام ٣٦٤/٢ .

١٢)- **جر الذيل في وصف الخيل** : وهو مخطوط ورد في : الدرر الكامنة ٨٧/٢ والبدر الطالع ٢٤٣/١ .

١٣)- **جنات الجناس** : طبع في استانبول سنة ١٢٩٩ هـ ومنه نسخة موجزة بعنوان (نزهة الخلاص في علم الجناس) مخطوط في برلين ٧٣٣٣ . انظر بروكلمان CAL S II 29

١٤)- **الحسن الصريح في مائة مليح** : مجموعة أشعار في الغلمان ، وهو مخطوط ، منه نسخة في دار الكتب الظاهرية رقم عام ٥٦٥٧ وأورده بروكلمان في GAL II 22 المتحف البريطاني ١١١٢ وأيا صوفيا ٣١٧٧ .

١٥)- **حلي النواهد على ما في الصحاح من الشواهد** : مفقود ذكره البغدادي في هدية العارفين ٣٥١/١ .

١٦)- **ديوان الفصحاء وترجمان البلغاء** : وهو منتخبات من الشعر والنثر ، ألفه للسلطان الأشرف الأيوبي ، وهو مخطوط ، ويشير بروكلمان الى أنه بخط المؤلف GAL II 32 في فينا ٣٨٩ .

١٧)- **الروض الناسم والثغر الباسم** : وهو مخطوط ورد في الدرر الكامنة ٨٧/٢ والأعلام ٣٦٤/٢ ويشير بروكلمان الى أن منه نسخة في الأسكوريال ١٨٤٨ انظر GAL II 33 .

١٨)- **رصف الزلال في وصف الهلال** : وهو مطبوع . ورد عند بروكلمان باسم (كشف الزلال) وعند زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية (رشف الزلال) ، والرشف والرصف أكثر قبولاً . كما يشير بروكلمان GAL II 33 الى أن منه قصيدة الحصكفي في معاني كلمة الهلال . برلين ٧٠٦٤ .

١٩)- **رصف الرحيق في وصف الحريق** : وهو مقامة لا يزال مخطوطاً . أورده بروكلمان بعنوان (كشف الرحيق) وزيدان (رشف) ، وكلاهما أقرب الى حسن الأداء من (كشف) في الاسكوريال ٥٦٣ . انظـــر بروكلمان GAL II 33

٢٠)- **رموز الشجرة النعمانية** : وهو مخطوط . ذكر في هدية العارفين ٣٥١/١ وفي دار الكتب الظاهرية بدمشق ورد باسم (شرح الشجرة النعمانية) رقم عام ٨٧٣١ و ٦٢٣٢ و ٧٣٣٠ .

٢١)- **الشعور بالعور** : كتاب في الأدب ، فيه تراجم العور وأخبارهم ، وهـو مخطوط . ذكره بروكلمان في GAL II 32 برلين ٩٨٦٧ منـه نسخة في المكتبة الخالدية في ١٩٠ صفحة وصفها سامح الخالدي في الرسالة (مصر) ١٩٤٠/٨ : ١٤٠١ .

٢٢)- **صرف العين عن صرف العين في وصف العين** : وهو مخطوط ورد في طبقات الشافعية ٩٦/٦ وهدية العارفين ٣٥١/١ وقال بروكلمان إن بعض أوراقه بخط الصفدي . انظر GAL II 33 في برلين ٣٨٠٦

٢٣)- **طوق الحمامة** : مختصر شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون ، وقد أورده بروكلمان في كتابه GAL II 33 .

٢٤)- **طرد السبع عن سرد السبع** . ورد في : هدية العارفين ٣٥١/١ وعنـد بروكلمان GAL II 29 في كوبرولي ١٣٣٧ .

٢٥)- **العرف الندي في شرح قصيدة ابن الوردي** : مخطوط في دار الكتب الظاهرية بدمشق رقم عام ٥٨١٩ .

٢٦)- **عبرة اللبيب بعثرة الكئيب** : وهو عند بروكلمان : عبرة اللبيب بمصرع الكئيب أو (المقامة الأيبكية) في كتابه GAL II 29 الفاتح ٤٠٢٧ .

٢٧)- **الغيث المسجم في شرح لامية العجم** : أثبت فيه تمكنه من علوم العربية ، وقد أورد فيه شيئاً من المجون ، وفيه فوائد تاريخية هامة . طبع في مجلدين .

٢٨)- **غوامض الصحاح في اللغه** : في هدية العارفين .

٢٩)- **فض الختام عن التورية والاستخدام** : مخطوط ورد في الدرر الكامنة ٢/٨٧ والبدر الطالع ١/٢٤٣ وعند بروكلمان في S II 29 ، GAL II 33 في الأسكوريال ٢١٩ وكوبرولي ١٣٥١ وغير ذلك . ومنه نسخة مصورة في معهد المخطوطات في جامعة الدول العربية بلاغة ٤٨ .

٣٠)- **قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة** : مطبوع .

٣١)- **القصيدة اللامية** : عند بروكلمان GALS II 29 في برلين ٧٩٧٢ .

٣٢)- **قصيدة تائية** : ليبزج ٤٧٥ في بروكلمان GAL S II 29 .

٣٣)- **قصيدة** . برلين ٨٧٦٠ GAL II 33 .

٣٤)- **كشف الحال في وصف الخال** : مجموعة شعرية وهو مخطوط ورد في : الدرر الكامنة ٢/٨٧ والبدر الطالع ١/٢٤٣ وعند بروكلمان GAL II 33 في هافانا ٢٩٣ ومنه نسخة في دار الكتب الظاهرية بدمشق رقم عام ٦٩٢٧ .

٣٥)- **كشف السر المبهم في لزوم مالا يلزم** : وهو مخطوط . منه نسخة في دار الكتب الظاهرية بدمشق رقم ٧١٥١ .

٣٦)- **الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه** : وهو مخطوط . وورد بعنوان التنبيه على التشبيه في الدرر الكامنة ٢/٨٧ وبعنوان : الوصف والتشبيه في طبقات الشافعية ٦/٩٦ .

٣٧)- **لوعة الشاكي ودمعة الباكي** : مطبوع . انظر سزكين ٢/١٢١٢ ومنه نسخة خطية في مخطوطات جامعة الرياض ، الرقم المتسلسل ٣٢٩ و الرقم العام ١٤٣٦ .

٣٨)- **منشآت الصفدي** : مجموعة مقالات ورسائل وتواقيـع وتقارير رسمية . وهي عند بروكلمان GAL II 32 ، S II 28 . في القاهرة (أول) ٤/٣٣٤ وموشح جوتا ٢٦ GAL II 33 وفي مكتبة الحزب الوطني بالموصل ، وصفه الدكتور داود الحلبي في مجلة المجمع ١٥٠/٩ .

٣٩)- **المنتقى من المجاراة والمجازاة** : مخطوط . ورد في الدرر الكامنة ٨٧/٢ باسم المجاراة والمجازاة في ما جريات الشعراء . وهو عند بروكلمان GALS II 29 في طوب قبو سراي ٢٦١٧ .

٤٠)- **المحاورة الصلاحية في الاحاجي الاصطلاحيه** : بروكلمان GALS II 29 في الاسكوريال ٤٣٢ .

٤١)- **نَكْتُ الهِمْيان في نُكَت العميان** : تراجم فضلاء العميان وأخبارهم . وهو منسق ، ويتحلى بمقدمة حسنة في موضوعه . مطبوع .

٤٢)- **نفوذ السهم فيما وقع فيه الجوهري من الوهم** : في اللغة . وهو مخطوط ورد في هدية العارفين ٣٥١/١ .

٤٣)- **نجد الفلاح في مختصر الصحاح** : وهو مخطوط في اللغة أيضاً ، ورد في هدية العارفين ٣٥١/١ .

٤٤)- **نصرة الثائر على المثل السائر** . مطبوع بتحقيق المؤلف .

٤٥)- **الهول المعجب في القول الموجب** : عند بروكلمان CALS II 29 في القاهرة (ثاني) ٢٢٨/٢ .

٤٦)- **الوافي بالوفيات** : ولعله أكبر المعاجم التاريخية المعروفة من نوعه « جمع فيه تراجم الأعيان ، ونجباء الزمان ، ممن وقع عليه اختياره . فلا يغادر أحداً من أعيان الصحابة والتابعين والملوك والأمراء والقضاة والعمال والقراء والمحدثين والفقهاء والمشايخ والصلحاء والأوليـــاء والنحاة والأدباء والشعراء

والأطباء والحكماء وأصحاب النحل والبدع والآراء وأعيان كل فن ؛ ممن اشتهر أو أتقن إلا ذكره :

« وذكر كل من فتح فتحاً يسره ، أو خيراً قرره ، أو جوداً أرسله ، أو رأياً أعمله ، أو حسنة أسداها ، أو سيئة أبداها ، أو بدعة سنها وزخرفها ، أو كتاباً وضعه ، أو تأليفاً جمعه ، أو شعراً نظمه ، أو نثراً أحكمه فازداد النفع به للمحدث والأديب [1] » .

دخل الكتاب في ثلاثين مجلداً [2] وفيه نحو أربعة عشر ألف ترجمة ، وساعده على الظفر بالمواد اللازمة له تنقله في ربوع مصر والشام ، وخزائن الكتب يومئذ موفورة ، والملوك وأهل الخير من العلماء والأعيان يمدون المدارس والجوامع وغيرها بالكتب ، ويوقفونها لوجـــه الله ، سعياً الى الخير لهم وللناس ، حتى استطاع أن يقدم لنا أعلام ثمانية قرون من رجال الإسلام . « ومقدمة هذا الكتاب العظيم من أمتع ما كتب مؤرخ ، تدل على سعة اطلاعه وسمو أدبه ، وعلى تدقيقه واستقصاءاته [3] » .

« وقد طبعت هذه المقدمة في المجلة الآسيوية الفرنسية سنة ١٩١١ - ١٩١٢ ونشرت في كتاب على حـــدة [4] » وقد افتتحه بمن اسمه محمد ، فبدأ بالرسول عليه الصلاة والسلام ، وثنى بمن اسمه محمد من الأعيان ، ثم عاد فساق التراجم على حروف المعجم بأسلوب مرسل رقيـــق . ومن موجبات الأسف أن هذا الكتاب النفيس لا يوجد كاملاً في مكان واحد ، وربما

---

(١) انظر كشف الظنون ٢ / ٤١٠

(٢) معظمها مخطوط . وقد ذكرها بروكلمان في SII 28 ، GALII 32

(٣) كنوز الأجداد لمحمد كرد علي ٣٨٠ وما بعدها .

(٤) تاريخ الأدب العربي ـ زيدان ٣ / ١٧٤

لا يتيسر جمع نسخة كاملة من الأجزاء المتفرقة في المكاتب التي بلغنا خبرها ، ولا يبعد وجود نسخة كاملة من هذا الكتاب في المكتبات الخاصة[1] .

هذا ما وصل إلينا من كتب الصفدي ، وهي ليست كل ما ألفه كما رأيت . وإن نظرة الى هذه المؤلفات وموضوعاتها ؛ تدلنا بوضوح على مدى ولوع الصفدي بالأدب شعره ونثره ، كتابةً ونظماً وشرحاً ونقداً ، إضافة الى إتقانه للتراجم وفن كتابتها ، من ذلك ما أورده في كتابه الوافي ، بعد أن أشار إلى أخذه ذلك عن قاضي القضاة تاج الدين السبكي . فقال :

« يشترط في المؤرخ الصدق ، وإذا نقل يعتمد اللفظ دون المعنى ، وأن لا يكون ذلك الذي نقله أخذه في المذاكرة وكتبه بعد ذلك ، وأن يسمي المنقول عنه . فهذه شروط أربعة فيما ينقله .

« ويشترط فيه أيضاً لما يترجمه من عند نفسه ، ولما عساه يطول في التراجم من النقول ويقصر ؛ أن يكون عارفاً بحال صاحب الترجمة ؛ علماً وديناً وغيرهما من الصفات ، وهذا عزيز جداً ، وأن يكون حسن العبارة عارفاً بمدلولات الألفاظ ، وأن يكون حسن التصور ؛ حتى يتصور حال ترجمته جميع حال ذلك الشخص ، ويعبر عنه بعبارة لا تزيد عليه ولا تنقص عنه ، وأن لا يغلبه الهوى فيخيل إليه هواه الإطناب في مدح من يحبه ، والتقصير في غيره ، بل إما أن يكون مجرداً عن الهوى وهو عزيز ، وإما أن يكون عنده من العدل ما يقهر به هـــواه ، ويسلك طريق الإنصاف . فهذه أربعة شروط أخرى ولك أن تجعلها خمسة ، لأن حسن تصوره وعلمه ؛ قد لا يحصل معهما الاستحضار حين التصنيف ، فيجعل حضور التصور زائداً على حسن التصور والعلم .

---

(١) علمت أخيراً أن الكتاب كاملاً في طريقه الى الظهور في بيروت ـ المعهد الألماني للأبحـــاث الشرقية .

« فهذه تسعة شروط في المؤرخ ، وأصعبها الاطلاع على حال الشخص في العلم ، فإنه يحتاج إلى المشاركة في علمه ، والقرب منه ، حتى يعرف مرتبته [1] » . .

وهكذا ، فقد أحسن الصفدي صنعاً حين نأى بموهبته وذاكرته عن التعمق في أبحاث المنطق والعلوم العقلية ، فطلبها يسيراً ، واندفع مع ميله الأدبي ينهل ويعل ، فلقد كان هذا الإحساس بتأثير هذه العلوم يعيش في نفسه ، حتى غدا ملاحظة تجد لها في كل يوم دليلًا ، الى أن عبر عن هذه الفكرة فيما بعد في كتابه (الغيث المسجم) حين قال : « وكل من عانى النظم وغلب عليه فن من الفنون ، مال به الى ذلك الفن ، وغلبت عليه قواعده ، واستعمله في مقاصده الشعرية وتخيلات معانيه ، وظهر على ما يرومه اصطلاح ذلك الفن وأحكامه .

« ألا ترى إلى أبي الفتح البستي ومقاطيعه المشهورة في الآداب والحكم ، كيف غلب عليها ألفاظ المنجمين . ! [2] » .

وانطلق الصفدي مع رأيه هذا ، يغذيه بالأدلة والشواهد ، وقد حفل بها شعر عصره ، حتى أقنع قارئه بأنه غير متجن ولا متمحل فيما ذهب إليه . وبذلك صان الصفدي ذوقه ، ومنح مؤلفاته أصالة ترقى بها عن أن تكون مجرد نسخ وتصنيف ، بل إن وجوده فيها واضح بارز ، يخضعها لذوقه ، ويسبرها بحسه ، ويبدو وجوده وصائب نظراته بخاصة ، في مقدمات كتبه ، كما تتناثر في تضاعيفها .

كل هذا جعله مؤلفاً متمكناً ، يأتي في طليعة من كتب في الأدب والنقد في عصره . لذلك لا نغلو إذا عددناه ، مثلًا ممتازاً لما كان عليه فن الأدب في تلك الفترة من عمر الأدب العربي الوسيط ، كما تنسحب هذه القيمة لكتبه إلى ما

---

(١) الوافي بالوفيات ١ / ٤٦

(٢) الغيث المسجم ١ / ١٢٤

ألفه في التراجم ، وخاصة في كتابه (الوافي بالوفيات) ، دعت العلامة كرينكو ليقول : « إنا نجد في كتاب الوافي تراجم كثيرة ، نحاول عبثاً الظفر بمثلها في الكتب التي تماثل الوافي بموضوعها . والفهرس التام لأسماء الأشخاص الذين وردت تراجمهم في الأجزاء المعروفة من هذا الكتاب ، يتألف منها مجلد ضخم [1] » .

إضافة الى ما اتبعه الصفدي في ذكر الأسماء ، تسهيلاً للاهتداء الى ترجمتها في خضم هذا الكتاب الكبير ، بإتيانه في آخر ترجمة كل اسم بأسماء الذين اشتهروا بذلك الاسم ولهم أسماء أخرى ، فيشير الى أماكن تراجمهم من الكتاب ، وبأي اسم ترجم لهم فيه . وقد اقتبس الزركلي هذه الطريقة حديثاً وسلكها في (أعلامه) .

أخلاقه :

لم يجمع المؤرخون على أمر ، إجماعهم على الاشادة بما تحلى به الصفدي من خلق جميل ، وخصال حميدة ، فأحبه كل من عرفه .

فقد وصفه ابن حجر بأنه « كان محبباً الى الناس ، حسن المعاشرة ، جميل المودة ـ وأورد فيه قول الحسيني وهو أحد شيوخه بأنه ـ كان إليه المنتهى في مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، وأنه من بقايا الرؤساء الأخيار كما قال ابن سعد[2] » حتى إن تاج الدين السبكي وهو يصغره بثلاثين سنة ، شعر بصداقة تربطه بالصفدي ، حين كان يتردد الى والده تقي الدين ليأخذ عنه .. « ولم يزل مصاحباً لي إلى أن قضى نحبه » ودفعه حبه للصفدي الى أن يقدم له المساعدة لدى الحكام ؛ حين أضحى قاضياً ، ليأخذ مكانه في مناصب الدولة .. كما كان من حسن خلقه أنه كان عطر

(١) كنوز الأجداد ص ٣٨٠
(٢) الدرر الكامنة ٢ / ٨٧

السمعة طيب الذكر ، في كل ما تولاه من مناصب ، رغم ما كان يصيب أمثاله من المصادرة والاتهام .

وقد لمسنا جانباً من حسن خلقه في تواضعه العلمي ، حين عاد إلى تحصيل ما فاته من الفقه والأصول ، بعد أن كبرت سنه ، وأضحى له المقام المبجل المرموق في مجتمعه ، فعاد ليقرأ « على الشيخ الإمام جميع (شفاء السقام في زيارة خير الأنام) . وأكثر من هذا ؛ عودته ليحضر حلقة صديقه تاج الدين ، ويقرأ عليه كتابه (جمع الجوامع) ويكتبه بخطه .

كما وصلت بينه وبين أصدقائه مكاتبات أدبية وودية ، يلفها الشوق والحنين كلما فرقت بينهم أسباب النوى . وقد ذكر تاج الدين في طبقاته طرفاً من هذه المكاتبات[1]

وكم من مجلس علم وأدب ضمه وأصدقاءه من القضاة والأدباء ، يتداولون مسائل علمية أو أدبية بروح الود والمحبة . وقد نقل الينا ابن كثير جانباً من هذه المجالس سنة ٧٦٣ هـ فقال : « دعيت الى بستان الشيخ العلامة كمال الدين الشريشي شيخ الشافعية . وحضر جماعة من الأعيان منهم الشيخ العلامة شمس الدين بن الموصلي الشافعي ، والشيخ الإمام العلامة صلاح الدين الصفدي وكيل بيت المال ، والشيخ .. وأحضروا نيفاً وأربعين مجلداً من كتاب (المنتهى في اللغة) للتميمي البرمكي وقف الناصرية ... [2] .

كما كان من دلائل حبه للناس ، وابتعاده عما يسيء اليهم ؛ أنه في كل ما ترجم وأرخ لم يستهدف لغضب المترجم له ، ولا أثار حفائظ الملوك والأمراء ، ولم

(١) طبقات الشافعية ٦ / ٩٤

(٢) البداية والنهاية ١٤ / ٢٩٥ - ٢٩٦ سنة ٧٦٣ .

يكن ذلك على حساب الحقيقة ؛ بل لعدم اعتنائه كثيراً بتاريخ السياسة ، أو تدوين وقائع الملوك .

ويبدو أن ما حمدناه فيه من لين العريكة وإيثاره محبة الناس ؛ سيترك للمجتمع تأثيراً واضحاً في أحكامه النقدية عند تصديه لذلك ، مما سيأتي في حينه إن شاء الله .

أعماله :

كان أول عمل تولاه خليل بعد أن كملت أدواته ؛ هو كتابة الدرج في ديوان الإنشاء في صفد ، إذ أن ديوان الإنشاء ، كان يتألف من ناظر الديوان ويسمى كذلك كاتب السر ، وتحته كتاب الدست وعددهم أربعة ، ويسمون كذلك الموقعين ، لأنه يحق لأحدهم التوقيع على الكتب الواردة في غياب ناظر الديوان ، ويأتي بعد ذلك كتاب الدرج ويغلب أن يكونوا أربعة [1] .

ثم نقل الى القاهرة للعمل نفسه ؛ كاتباً للدرج في ديوان الإنشاء هناك ، ولكنه بطبيعة الحال وهو في حاضرة البلاد ، أسمى مكانة منه في أي مملكة من ممالك الدولة . ويبدو أن المقام طال به في القاهرة في عمله هذا ، الذي استمر به حتى حوالي سنة ٧٦٠ هـ وكان قد بلغ الصفدي الرابعة والستين من عمره .

وهنا يتقدم اليه صديقه الحميم تاج الدين السبكي ، وهو قاضي قضاة الشام ، ليحدثنا بقوله : « وقد ساعدته آخر عمره فولي كتابة الدست بدمشق ، ثم ساعدته

---

(١) البداية والنهاية ١٤ / ٢٧٥

فولي كتابة السر [١] » يتولى بعدها أبو الصفا كتابة السر أو ناظر ديوان الأنشاء بالرحبة ، ثم يتقدم تاج الدين ليقول : « ثم ساعدته فحضر الى دمشق على وكالة بيت المال وكتابة الدست .. وكان لا يلي نظر بيت المال إلا من هو من ذوي العدالات المبرزة [٢] .

وهكذا تسلم الصفدي في نهاية عمره منصبين كبيرين من مناصب الدولة المدنية ، وكان ذلك قبل وفاته بعامين أي سنة ٧٦٢ هـ [٣] .

وثقل سمعه في آخر حياته « وكان قد تصدى للإفادة بالجامع ، وسمع منه من أشياخه الذهبي وابن كثير والحسيني وغيرهم [٤] » كما استمر قائماً على عمله الرسمي في منصبيه المذكورين ، الى أن مات بالطاعون في دمشق ليلة عاشر شوال سنة ٧٦٤ هـ

★ ★ ★

(١) هو صاحب ديوان الانشاء ويسمى كذلك كاتب السر « ومتولي رتبة كتابة السر أعظم أهل الدولة » خطط المقريزي ٣ / ٣٦٧ - ٣٦٨ .

(٢) خطط المقريزي ٣ / ٣٦٥

(٣) البداية والنهاية ١٤ / ٢٧٥

(٤) الدرر الكامنة ٢ / ٨٧

الفصل الثالث

الخصومة حول « المثل السائر »

(١)

بين ابن أبي الحديد وابن الأثير

قام ابن الاثير بتأليف كتابه (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) بعد سنة ٦١٧ هجرية ، وذلك بعد استقراره في الموصل ، تعرض فيه لكل ما يتعلق بالأدب والأديب ، ونشر خلاله الشيء الكثير من إنشائه ، عارضاً إياه في كثير من الزهو والإعجاب بما يقول ، والأمثلة على ذلك لا تحصى كثرة ، فمن تعقيباته قوله بعد الإشادة بشرحه للأبيات « وهن من الحسن على غاية يكون كمد حسودها من جملة شهودها[١] » . أو قوله في مكان آخر : « وفي هذا من الحسن ما لا خفاء به ، فمن شاء أن ينثر شعراً فلينثر هكذا وإلا فليترك[٢] » .

أو قوله في مكان ثالث « وقد قال الشعراء في ذلك كثيراً ، الا أني أنا تصرفت في هذا المعنى تصرفاً لم يتصرف فيه أحد غيري[٣] » وغير ذلك كثير .

---

(١) المثل السائر ١ / ١٣٥

(٢) المصدر السابق

(٣) » » ١ / ١٤١

كما كان يشير في بعض الأحيان الى أديب من أدباء العربية الكبار ، فإذا وضع يده ـ كما يرى ـ على مأخذ وجده عند أحدهم ، أنحى عليه باللائمة ، وصب عليه ما شاء من ألفاظ التجريح والسخرية مما لا ضرورة له بحال .

فمن ذلك ما قاله في حق المعري عند الإشارة الى اعجابه بأبي الطيب ، وتسميته إياه بالشاعر وتسمية غيره باسمه . فقال ضياء الدين : « فياليت شعري ، أما وقف على هذا البيت المشار اليه ، لكن الهوى كما يقال أعمى ، وكان أبو العلاء أعمى العين خلقة ، وأعماها عصبية ، فاجتمع له العمى من جهتين [1] » .

كما عارض القاضي الفاضل في رسائله ومكاتباته [2] ليظهر تفوقه . وقد كانت شهرة الفاضل حينذاك فوق كل نقد أو تقليد .

واشتهر المثل السائر ، وذاع صيته ، وكثر الحديث حوله ، مما حدا بابن أبي الحديد الى التماس نسخة له ، وما أن وردت عليه في غرة ذي الحجة سنة ٦٣٣ حتى راحت عيناه تطويان سطوره وصفحاته ، وقلمه يندفع في الرد عليه ، حتى أتم ذلك في ثلاثة عشر يوماً مع أشغاله الديوانية كما يقول .

وقد حرص ابن أبي الحديد على رد ما في (المثل السائر) واظهار الخطل فيه ما وسعه . حتى قال في ذلك : « وقد سميت هذا الكتاب الفلك الدائر على المثل السائر » لأنه شاع من كلامهم ، وكثر في استعمالهم أن يقولوا لما باد ودثر : قد دار عليه الفلك كأنهم يريدون أنه قد طحنه ومحا صورته . من ذلك قول أبي العتاهية :

إنْ كُنْتَ تَنْشُدُهُمْ فإنَّهُمْ هَمَدُوا ودارَ عَلَيْهِمُ الْفَلَكُ [3] »

---

(١) المثل السائر ١ / ٤١١

(٢) « « ٢ / ٣٧٤

(٣) الفلك الدائر ٣٥ (مطبوع مع الجزء الرابع من المثل السائر)

إذن فابن أبي الحديد شديد الحرص ، ليس على نقد ما في الكتاب والتماس وجه الصواب له ، بل يريد طحنه ومحوه . ترى ما هي الأسباب التي وصلت بأبي حامد الى هذه المرحلة من الحنق على هذا الكتاب ؟

ويقطع علينا بنفسه طريق التساؤل والتأويل ليقول في مقدمة كتابه : « وقفت على كتاب نصير الدين بن محمد الموصـــلي ، المعروف بابن اثير الجزيرة ، المسمى (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) فوجدت فيه المحمود والمقبول ، والمردود والمرذول .

« أما المحمود منه فإنشاؤه وصناعته ، فإنه لا بأس بذلك إلا في الأقل النادر .. وأما المردود فيه فنظره وجدله ، واحتجاجه واعتراضه ، فانه لم يأت في ذلك في الأكثر الأغلب بما يلتفت اليه مما يعتمد عليه [1] » .

وهكذا يدلنـا ابن أبي الحديد منذ البداية ، إلى الميدان الذي سيجول فيه مع ابن الأثير ، انه جدله واحتجاجه واعتراضه .. بعيداً عن الفن وقضايا الأدب .

وبعد هذه المقدمة ، يبدأ بسرد أسباب حملته على هذا الكتاب فيقـــول : « فحداني على تتبعه ومناقضته في المواضع النظرية أمور :

— « منها ازراؤه على الفضلاء ، وغضه منهم ، وعيبه لهم ، وطعنه عليهم ، فإن في ذلك ما يدعو الى الغيرة عليهم والانتصار لهم .

— « ومنها افراطه في الاعجاب بنفسه ، والتبجح برأيه ، والتقريظ لمعرفته وصناعته ، وهذا عيب قبيح يحبط عمل الانسان والاجتهاد ، ويوجب المقت من الله والعباد .

— « ومنها أنه قد أومأ مراراً في كتابه الى عتاب دهره ، إذ لم يعطه على قدر استحقاقه ، فأردنا أن نعرّفه أن الأرزاق ليست على مقادير الاستحقاق ، وأن الرزق مقسوم لا يجلبه الفضل ، ولا يرده النقص .

---

(١) في المثل ٤ / ٣٢

— « ومنها أن جماعة من أكابر الموصل ، قد حسن ظنهم في هذا الكتاب جداً ، وتعصبوا له حتى فضلوه على أكثر الكتب المصنفة في هذا الفن ، وأوصلوا منه نسخاً معدودة الى مدينة السلام وأشاعوه ، وتـداوله كثير من أهلها (١) . فاعترضت عليه بهذا الكتاب ، وتقربت به الى الخزانة الشريفة المقدسة النبوية الإمامية المستنصرية (٢) ، عمر الله بعمارتها أندية الفضل ورباعه ، وأطال بطول بقاء مالكها يد العلم وباعه (٣) » .

ولا ينتهي من تعداد ما رأى من أسباب قبل أن يشير كذلك الى نفسه حتى فاق خصمه إذ يقول :

« وكان أكثر قصدي في ذلك ، أن يعلم مصنف هذا الكتاب ورؤساء بلدته ، أن من أصاغر خوَل هذه الدولة الشريفة ـ فالعُجب مبير ولا أنبىء عني فمثلي كثير ـ من إذا ألغز أدرى ، وإذا ضرب أفرى ، وإذا رشق أصمى ، وإذا نكأ أدمى . وأنّ دار السلام ، وحضرة الإمام ما خلت كما تزعم المواصلة ممن إذا سوبق خلّى ، وإذا يوسر فاز بالقدح المعلى ، وإذا خطب خضعت لبراعته المناصل ، وإذا كتب سجدت ليراعته الذوابل ، وإذا شاء علم الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل » .

« وأن في الأغفال المغمورين من رعاياها من لو هدر لقرت (٤) له الشقاشق ، ولو نطق لتجلت بشموسه المهارق (٥) ، ولو جرد حسام قلمـه لقال الملك للسيف أغرب فأنت طالق . فكيف بسدنة كعبتها ، والحافّين بشريف سُدتها ، فحول البلاغة الذين إذا ركض أحدهم في حلبة البيان أخجل البروق وسخر بالرياح ، واذا ضرب الاعداء بصارم اللسان قد الساوقي المضاعف حتى توقد نار الحباحب في الصُّفّاح (٦) » .

(١) صورة من الرقي الثقافي وملاحقة المؤلفات في القرن السابع الهجري .
(٢) كان ذلك أيام الخليفة المستنصر بالله ٦٢٣ ـ ٦٤٠ هـ منشىء المدرسة المستنصرية ببغداد .
(٣) المثل السائر ٤ / ٣٣ وما بعدها .
(٤) سكنت . ويقال للفصيح : هدرت شقشقته .
(٥) الصحائف . فارسي معرب .
(٦) حجارة عريضة رقيقة .

هذه هي اذن أسباب تأليف (الفلك الدائر) عند ابن أبي الحديد . وكانت على التوالي :

— أسباب اجتماعية من تطاول ابن الأثير على الفضلاء .

— أسباب نفسية من إعجاب ابن الأثير بنفسه بألفاظ صريحة ، أو في عتاب الدهر لغمطه حقه .

— أسباب إقليمية ، من التنافس الذي يقوم عادة بين المدن .

فهل هذه هي كل الأسباب التي دعت ابن أبي الحديد لتصنيف فلكه ؟ إن صح هذا فقد افتقد الدافع الأهم في مثل هذه الشؤون ، ذلك هو الدافع العلمي أو الفني . هذا الدافع الذي كان من نزاهة المقصد ، ونبل الغاية ، أن ينفرد وحده حافزاً الى مثل هذا العمل .

ولكن ابن أبي الحديد لم يكن يحمل مثل هذا الشعور على الإطلاق عند إقدامه على الرد والنقض ، هذا الشعور الذي يصل بكل فكرة الى سدادها ، وكل رأى الى مستقره الصحيح ، فتكون الحقيقة في النهاية هي الثمرة الشهية المنشودة . وهو لم يخف ذلك على أية حال ، فقد صرح بأنه يبغي محو (المثل السائر) وطحنه وابادته ، ولم يكن يسعى للوصول مع خصمه الى حقيقة علمية أو فنية ، ولدينا من كتابه ما يوضح قولنا ويؤكده .

فقد بدأ ابن أبي الحديد المسألة الستين بقوله : « قال المصنف في الكلام عن الصناعة المعنوية : وصاحب هذا الفن ، لا يحتاج الى ما ذكره الحكماء في علم المنطق في الشعر ، وقد قرأت كلام أبي علي بن سينا في المنطق ، وتأملت ما قاله في الشعر ، فوجدته يقول : يورد على مقدمتين ونتيجة . قال : وقد كان ابن سينا ينظم الشعر ، ولا يرتبه عند إفاضته في صوغه بالأصالة ، لأنه لم تخطر المقدمتان والنتيجة له ببال ، ولو أنه استحضر المقدمتين والنتيجة ، ثم أتى بالنظم والنثر بعدهما ، لم يأت بشيء ينتفع به ، وانما هذه فقاقع وألفاظ طول القوم بها كتبهم [1] »

---

(١) ملخص من المثل السائر ٢ / ٥

« أقول : هذه جناية عجب الإنسان بنفسه ، وذلك أن الانسان يدعوه فرط اعتقاده في نفسه ، وشغفه بما يخطر له ؛ أن يتكلم على قوم لا يعرف أقوالهم ، ولا يحصل معنى اصطلاحاتهم فضلاً عن أن يبلغ رتبتهم ويترقى درجتهم ، الى أن ينقض عليهم فيقع هذا الموقع .

« وليس مراد القوم بالشعر ما يتوهمه ، والذي يريدونه بالشعر يأتي في كل قياس مختلّ يعلم العاقل كذبه ، لكنه يحدث له مع ذلك نوع قبض أو بسط ، أو إقدام أو احجام ، كما يقال : لا تأكلوا العسل فإنه ثمرة مقيئة ، أو يقال للحلواء الرطبة المزعفرة : لا تأكلها فإنها غائط . فالعقل والحس يكذبان هذا الكلام الذي هو في قوة قياس ، صورته هكذا : كل غائط فهو غير مأكلة . ومع علمه بكذبه ينقبض عن الأكل . وأكثر اقدام الناس وإحجامهم بسبب هذه التخيلات والأوهام . وهي الأقيسة الشعرية التي يذكرونها ، وإنما سميت شعرية لمشابهتها مقاصد الشعراء في تخيلاتهم وتزويقاتهم .

وأما توهمه أن الشاعر يحتاج وقت نظم الشعر الى استعمال مقدمتين ونتيجة ، وقوله إن ابن سينا كان ينظم شعراً ولا يرتب المقدمتين وقت نظمه ؛ فتوهم بعيد وإن كان القوم عنده بهذه الصورة ؛ ويراهم بهذه العين ، فإنه لم يعرفهم (١) .

وفي إصرار ابن أبي الحديد على رده هذا ؛ رغم وضوح وجه السداد في قول ابن الأثير أحدُ تفسيرين :

— إما أنه لا يهتم الا بالجدل للجدل ، حتى لا يدع لابن الاثير ما يدعي الصواب المطلق فيه .

— أو على ضعف إحساس ابن أبي الحديد ، بما يتصل بالشعر وحال الشاعر أوقات الخلق الفني عنده .

---

(١) في المثل السائر ٤ / ١٩٠

وهكذا فإذا افتقر ابن أبي الحديد الى الدافع العلمي النبيل ، فانه لم يفتقر - وان لم يصرح بذلك - الى الدافع المذهبي المتعصب .

فابن الأثير سني شافعي ، وصل الى منصب الوزارة الخطير لدى الأيوبيين ، ونال الحظوة والتكريم لدى ملوك الموصل ، وانتشار كتابه بهذه الشهرة الطاغية ، التي تسبقه وترافقه وتتبعه ؛ لا شك يسوء شيعياً معتزلياً مثل ابن أبي الحديد ، خاصة وأنهما متعاصران ، والمعركة حينذاك على أشدها بين الفئتين ، وقد امتد لهيبها ، حتى أتت على بغداد ومحت الخلافة منها . فكيف لا تكون سبباً لابن أبي الحديد لمحو كتاب يعارضه .

نقول هذا ونحن لا نزال في مقدمة الكتاب ، فاذا اجتزنا ذلك إلى مجلس الرد الذي تصدره ابن أبي الحديد ، لوجدنا أن الحجة هي التي تتردد بينهما ، ، والحقيقـة المجردة هي وحدها التي تفوز في النهاية ، وإن تجاهلها ابن أبي الحديد ، وتجـاوز وضوحها أحياناً ؛ فإن ذلك لا يسري على كثير من الحضور ، الذين يزون رؤوسهم في عدم اقتناع ورضى .

يلف ذلك كله ، روح ابن أبي الحديد الجدلية الكلامية ، وهي لا تصلح لمجال للفصل في شؤون الأدب وجوانبه الفنية .

(٢)

بين الصفدي وابن الأثير

إذا كان من أسباب الخصومة بين ابن أبي الحديد وابن الأثير ؛ المذهبية ثم الاقليمية ، وكذلك التنافس الشخصي بين متعاصرين ؛ فاننا سنفتقد ذلك عند الصفدي في خصومته لابن الأثير .

فالصفدي كما يعلن ذلك عنوان كتابه (نصرة الثائر على المثل السائر) يناصر

ابن أبي الحديد ، مع أنه يخالفه في المذهب ، وهو يشير الى ذلك في المقدمة ، بعد أن يشيد بعلم ابن أبي الحديد وقدرته الجدلية « ولكن أدته مواده الغزيرة الى أن اعتزل وتشيع ، وأهمل جانب السنة وضيّع [1] » مما يدل على نزاهة الصفدي وبعده عن الهوى ، وسعيه للوصول الى الصواب المجرد .

أما الأسباب التي دعته الى نقد المثل السائر ، والرد على صاحبه ، فلم تخرج عما يلي:

١) أسباب نفسية مما بدا عند ابن الأثير ، من زهو وكبر وإعجاب بالنفس لا حد له « عامله الله بلطفه ، وسامحه بما هزت به نسمات الخيلاء من غصن عطفه . . . فقد توهم أن بدر فضله قد تم وكمل ، وتخيل أن جيد الإنشاء بعده قد عطل وفنه قد خمل . . . ووصف نفسه ولا وصف امرىء القيس لأفراسه ، ومدحها ولا مدح أبي نواس سلافة كاسه وكرر ذلك فغثى النفوس بذلك الغث ، وزاد حتى رثّ القلق ثوب الصبر لما رث » .

٢) أسباب اجتماعية من تطاول ابن الأثير على أعلام الأدب والإزراء بهم . فقد « ظن أن الله قد حرّم الفصاحة على من يأتي من بعده ، وأن الذين من قبله ، إما شيخ قد خرف في هرمه ، وإما طفل يعبث في مهده . . . خصوصاً القاضي الفاضل . . رحمه الله تعالى ـ فإنه قد عارضه في بعض ما أنشاه ، وعاب عليه ما دبجه ووشاه » .

٣) أسباب فنية تتعلق بما حواه الكتاب من نصوص ، ومن نظرات في انشائها وتذوقها ونقدها ، « هذا إلى ما في الكتاب من فلتات عديدة ، واختيارات غير موفقة ولا سديدة ، ونصر باطل وتحليه عاطل ، وترجيح ما ضعف ووهى ، وتوهين ما تحرر وانتهى . . وإذا ناقشته في بحث أورده ، ونافسته في صالح أفسده ، لا أكاد أخلي ذلك الموطن من محاسن أرباب هذا الفن » .

---

(١) نصرة الثائر ص ٥٠ بتحقيق المؤلف

هذا مع اعتراف الصفدي الصريح ، بما في الكتاب من حسنات ، وبما كان يتمتع به من الشهرة الواسعة ، فهو « من الكتب التي خفقت له في الاشتهار عذبات أوراقه .. واشتهر بين أهل الانشاء .. وأولع به أهل الأدب في الآفاق ، ولع الكريم بالإنفاق لا بل ولع الرقباء بالعشاق » كما كان من حسنته « أن واضعه رحمه الله - قد جمع فيه بين العلم والعمل » .

ولكن ماذا يقول الصفدي ، بعد أن سبقه ابن أبي الحديد الى مطالعة الكتاب ، والرد على ما جاء فيه « وأي قوادم ينهض بها من جاء بعد هذا المتكلم ، وأي سيف يفري فريه وهو متثلم ... والمعتزلة فرسان المباحث ، وممن توفرت لهم الهمم على الجدل وطاوعتها الدواعي والبواعث .. »

ويجيب نفسه بقوله « وقد ترك الأول للآخر اكثر مما جاء به ، وتفاوتت الأذهان في انتقاد مها الحسن وكواعبه . » .

فقد أدرك الصفدي أن ابن أبي الحديد ، ابتعد في مناقشته لابن الأثير عن الأدب وقضاياه الأصيلة ، وعن النصوص ونقدها ، وغاص معه في جدل ينسجم مع ما يحمله في فكره وتهواه نفسه « والمعتزلة فرسان المباحث ، وممن توفرت لهم الهمم على الجدل » . لذا فإن الصفدي سيجد الميدان خالياً ، وما يهوى الحديث فيه متروكاً ينتظره ، ولا غرو في ذالك فقد « تفاوتت الاذهان في انتقاد مها الحسن وكواعبه » .

أما طريقته في نقد ابن الأثير ومناقشته ، فهي من خير ما يُتّبع في نقد النصوص وكشف مزاياها ، بيّنها بقوله :

« فإذا ناقشته في بحث أورده ، ونافسته في صالح أفسده ، لا أكاد أخلي ذلك الموطن من محاسن أرباب هذا الفن .. » مما يبصّر القارىء ، ويفتح ذهنه ونفسه ويجعله - بهذا النقد التطبيقي ومقارنة النصوص - يضع يده على أسرار الجمال ، كما تلوح له نقاط التخلف والضعف .

فلا مجال إذن للمقارنة بين الصفدي وابن أبي الحديد ، فالفارق بينهما كبير في الروح والثقافة وزاوية النظر واسلوب التناول والنتيجة ، إنه باختصار الفرق بين عالم في الشرعيات ، يعتمد المنطق أساساً للمناقشة واسلوبا لها ، وبين أديب بالفطرة ثم بالتكوين ،يعتمد النصوص أساساً ، والنقد الفني منطلقاً ، والذوق ودقة الحس وسيلة لإدراك الأسرار وتذوقها والانفعال بها ومعها .

وهكذا فان لدينا في الرد على المثل السائر كتابين منفصلين ، لا يلتقيان الا عند اسم ضياء الدين في مثله السائر .

وأخيراً لا بد من الإشارة الى الاسلوب الذي اتبعه الصفدي في مقدمته هذه ، فقد اعتمد فيها اسلوب النثر الفني المسجوع في تلك العصور . بيد أنه سرعان ما يتنكب ذلك الى أسلوبه المرسل الرقراق ، عندما يغادر هذا المدخل الى جو الكتاب ولبابه . كما نلمس في هذه المقدمة كذلك ، ميل الصفدي للتعبير بالصور ، عما يريده من مشاعر ومعان .

★ ★ ★

الباب الثاني

الناقد الصفدي

تقديم

مر بنا عند الحديث في ترجمة الصلاح الصفدي أن مؤلفاته زادت على المائتين ، وأن ما وصل إلينا منها جاوز الأربعين ، قام أكثرها على موضوعات أدبية استقطبت حولها الغزير من النصوص ، وإن غلب القريض على منثورها ، يتطلب ذلك كله ما يعرض له أثناء بحثه من نهج القول وشئون الكلام ، كما حفل بعض هذه الكتب بالآراء والنظرات النقدية ، في مقدماتها وفي ثنايا صفحاتها وسطورها ، وكان لا بد لتكوين صورة كاملة للصفدي الناقد ؛ من العودة الى أكبر عدد من هذه المؤلفات ، والتماس ما جاء فيها من نقد ، سواء أكان قواعد نظرية أم نظرات تطبيقية .

وقد رأيت من تمام العمل الا أقصر نظري على (نصرة الثائر) في رسم ملامح الشخصية الناقدة ، فكان لا بد من الاستئناس ببعض كتبه الأخرى ، تؤكد ما بدأه فيه ، وتوسع ما اكتفى بالإشارة اليه ، فكان أبرزَ هذه المظان كتاباه (الغيث المسجم في شرح لامية العجم) ومقدمة كتابه الموسوم (بتشنيف السمع بانسكاب الدمع) .

ورب متسائل عن سبب اقتصاري على هذه الكتب ، في رسم صورة الصفدي الناقد ، رغم وجود كتب أخرى من مؤلفاته ، مما تشي عنواناتها بأن ما فيها يخدم غرضنا ؛ لكن ذلك لن يؤثر في وضوح شخصية الصفدي ، التي ستبرز أمامنا من خلال كتبه الثلاثة المعتمدة لأسباب عدة :

- أولها ما ثبت لي من أن كتاب (الغيث) هذا ؛ قد استأثر بقلم المؤلف في أخريات أيام حياته ، إذ ورد في مطاوي صفحاته العديـــدُ من أسماء كتبه الأخرى ، و (النصرة) كذلك من بينها .

— ثانيها ما لمسته في هذا الكتاب من جرأة ؛ لم تكن عند الصفدي في نصرته ، في تعليقاته ونظراته ، فقد بدا فيه ذوقه وقد صقل وتحدد ، وآراؤه وقد استحصدت وتكاملت ، كما بدا اعتداده بنفسه لا يقبل الشك ، بعد أن غنيت تجاربه ، وفاض من ذلك رصيده ، وغدوت أسمع جهره مخالفاً علماء العروض ، في بعض قواعدهم وقيودهم ، أو أئمة اللغة في أذواقهم ونظراتهم ، بعد أن كان في (نصرته) يشدّ أزره بما يقولون ، ويستشهد بأقوالهم ليطمئن الى سداد ما يعرضه ويبديه .

— ثالثها ما تميز به حجمها الكبير ؛ من تركيز في الغرض ، وغزارة في المادة الأدبية ، وخاصة كتابه الغيث في صفحاته المشرفة على الثلاثمائة .

وبذلك أغنت هذه الكتب عما سواها ، وأخذت الخطوط الأساسية للشخصية الناقدة ؛ تظهر من خلالها وتتوضح وتتحدد ، الى أن نرى الصفدي آخر المطاف في شخصيته المنشودة ، قائماً سويا ماثلا للعيان ، بحدوده الواضحة وقسماته المتميزة .

أما (نصرة الثائر) ، فقد قام الصفدي بتأليفه للرد على ابن الأثير ، ومناقشته في كثير مما ذكره في كتابه ، من قواعد ورسائل وآراء ، وصل مجموع ما أورده منها وناقش خصمه فيها ؛ سبعة وسبعين موضعاً ، واتبع في عمله هذا منهجاً واضحاً بادي التنسيق ، مما عرف به مؤلفو تلك العصور .

فقد بدأ الكتاب بمقدمة يشير فيها الى دوافع تأليفه ، والى من سبقه الى الرد على ابن الأثير ، مما يستدرجه للتعريف بابن أبي الحديد و (فلكه الدائر) ثم عمن رد عليه من تلامذة ضياء الدين . فقد أحدث « المثل السائر » في عصره جلبة ، كان فيها أشبه بحجر ألقي في بركة راكدة ، نجم عنها عدد من المؤلفات ، عرفنا منها سبعاً ، مما ذكره مؤرخو الأدب في ذلك الحين (١) .

---

(١) انظر لتفصيل ذلك على الصفحة ٢٥ وما بعدها من « نصرة الثائر » .

يدخل بعد ذلك في لب الكتاب ، حيث كان يورد قول ابن الأثير مأخوذاً من المثل السائر ، ويردفه برده عليه ، مضمناً ذلك بالأشعار وغيرها ، حسبما تدعو الحاجة إلى ذلك . . وهكذا حتى نقرأ خاتمة الكتاب .

وجدير بالذكر ؛ أن الصفدي تناول من آراء ابن الأثير ، ما هو من قضايا الأدب الأصيلة ، شعره ونثره ، وناقشها بروح الأديب ذي الذوق النامي ، والتجربة الطويلة ، بيد أنه لا يغادر ما كان عليه ذوق عصره ، من الاهتمام بجمال الشكل ومراعاة امتاع الحواس ، إلا أن هذا التقيد بالاتجاه الفني الشكلي ؛ لم يلغ الدور الذي نهض به ذوقه المتطلع ، وحسه اللغوي الدقيق ، في إملاء العديد من آرائه وأحكامه وتعليقاته .

وقبل أن نسلم للصفدي ليكون المرآة التي تعكس لنا صورة النقد في عصره ، يحق لنا أن نسأل عن الصفات التي تؤهله لمثل هذا ، بما يسلمنا إلى فصول الدراسة التالية ، التي أرجو أن أوفق فيها إلى اعطاء هذه الصورة المنشودة ، من خلال الصفدي الأديب .

الفصل الأول

الصفـدي النـاقد بين معاصريه

لقد كان للصفدي في عصره وجود واضح من الناحية الأدبية ، ونحن هنا لن نبحث فيما قاله فيه مصنفو كتب التراجم ، بل سنتجه أكثر إلى الدقـة ؛ لنلتقط شيئاً مما تناثر من الأخبار ، التي ترد عفواً في ثنايا كتابات المعـاصرين ، لندرك فيها بأن الصفدي كان أحد كبار النقاد ، الذين تعرض عليهم الآثار الأدبية ، والكتب المصنفة ، ليقولوا فيها كلمتهم الفصل ، فيكون لها أوسع الصـــدى في صفوف القراء والمتأدبين .

فهذا فتح الدين محمد بن سيد الناس ، أحد شيوخ الأدب في عصره ، وقد أخذ عنه الصفدي بنفسه ، ثم ترجم له في كتابه الوافي ، فكان مما قاله فيه « وشعره رقيق ، سهل التركيب ، منسجم الألفاظ ، عذب النظم ، وترسله جيد . وكان النظم عليه بلا كلفة ، يكاد لا يتكلم إلا بالوزن [1] » . إلى هذا الحد من الإجادة ، وصلت موهبة ابن سيد الناس كما وصفه تلميذه القديم ، دون أن نلمس فيما قاله الصفدي هنا مبالغة ما ، بل إن عباراته هذه تميزت بالدقة ووضوح القصد ، يؤكد ذلك انسجام هذه الصفات فيما بينها وتكاملها ، فإن إنساناً يملك الأذن الموسيقية الرهيفة حتى لا يكاد يتكلم إلا بالوزن ، وعنده القدرة على البيان ما يجعله ينظم بلا كلفة ؛ لا بد أن

(١) الوافي بالوفيات للصفدي ١ / ٢٨٩

يأتي قريضه عذباً في نظمه ، منسجماً في ألفاظه ، سهلاً في تراكيبه ، ثم تكون رقة شعره صادرة عن بساطة طبعه ورهافة حسه .

إن ابن سيد الناس هذا ، وهو من اتصف أدبه بما سلف ؛ كتب إلى الصفدي يجيزه في رواية ماله من آثار فيقول :

« وأذنت لك في إصلاح ما تعثر عليه من الزلل والوهم ، والخلل الصادر عن غفلة اعترت النقل أو وهلة اعترضت الفهم ، فيما صدر عن قريحتي القريحة من النثر والنظم ، وفيما تراه من استبدال لفظ بغيره ، مما لعله أنجى من المرهوب ، أو أنجع في نيل المطلوب ، أو أجرى في سنن الفصاحة على الأساليب [1] » .

إذن فابن سيد الناس هنا ، لا يكتفي بأن يجيز تلميذه السابق برواية آثاره ، على عادة أمثاله من العلماء والأدباء ، بل يعترف له بالمقدرة وسلامة الذوق ، ما يؤهله لمثل هذه التعديلات في كتاباته ، في عبارات دقيقة المعنى ، محددة القصد والغاية .

وهكذا صعد الصفدي ، إلى المنزلة التي رفعه إليها الأدباء آنذاك ، فكان له في ميدان النقد نشاط ملحوظ ، تحدث فيه أصحاب المصنفات في عصره وما تلاه ، أمثال شمس الدين الذهبي ، وابن حجة الحموي ، والقلقشندي الذي قدم لنا من خلال ذلك ، صورة عن النقد وأسلوبه المتبع فقال :

« قد جرت العادة ، أنه إذا صنف في فن من الفنون ، أو نظم شاعر قصيدة فاجاد فيها .أو نحو ذلك ، أن يكتب له أهل تلك الصناعة على كتابه أو قصيدته ، بالتقريظ والمدح ، ويأتي كل منهم بما وسعه من البلاغة في ذلك .

« فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي ، على مصنف وضعه الشيخ تاج الدين علي بن الدرهم الموصلي الشافعي ، في الاستدلال على أن البسملة من أول الفاتحة وهي : وقفت على هذا التصنيف ، الذي وضعه هذا العلامة ، ونشر

---

(١) الوافي بالوفيات للصفدي ١ / ٢٨٩

به في المذهب الشافعي أعلامه ، وأصبح ونسبته اليه أشهر علم وأبهر علامه . فأتم ما سام الروض حدائقه ، ولا شام أبو شامة بوارقه . كل الأئمة تعترف بما فيه من الأدلة ، وكل التصانيف تقول أمامه بسم الله ، كم فيه من دليل لا يعارض . . .

أَكرِمْ به مُصَنَّفــاً فاقَ تَصانيفَ الوَرَى
ليلُ المُدامِ فيـه بالـ ـمَعْنى المُنيرِ أَقْمَراً
كم فيه بُرْدُ حُجَّــةٍ قَد حاكَهُ مُحَرِّرا
وكم دَليــلٍ سيفُهُ إذا ٱلتقى خَصْماً فَرَى
فلم يكُنْ مِن بَعدِهِ مُخـالفٌ قَطُّ يُرَى[1]

ولن نعلق على ما قد يثير في هــذا النص ، لأن لذلك مكاناً يبسط القول فيه ، بل نكتفي بالإشارة إلى ما أوردنا الخبر من أجله ، في إبراز الدور الذي كان الصفدي يؤديه في ميدان النقد الفسيح .

* * *

(١) صبح الأعشى ١٤ / ٣٣٥

الفصل الثاني

الصفدي الناقد من خلال كتبه

سنعكف في هذا الفصل على ما خلفه لنا الصفدي من آثار ، نطل منها على الناقد فيه ، بتوجيه الأضواء من نوافذ متعددة ، فتتعاون الخطوط وتتكامل السمات لتنجلي الصورة بعد ذلك واضحة للعيان ما أمكن ذلك .

وتحقيقاً لهذا نجعل الحديث موزعاً على الجوانب المتعددة ، التي تؤهل الأديب ليكون ناقداً جديراً ، وأول هذه الجوانب هو :

موهبته :

وفي الكلام تحت هذا العنوان نحاول الإجابة عما اذا كان الصفدي موهوباً حقاً ، ليكون ناقداً يتصدى للنصوص بالدرس والتحليل ، والكشف عن نقاط الضعف ومواطن الجمال ، والتعليل ما أمكن لما يقول ويحكم .

والحق إن الصفدي تمتع بالموهبة ، فما أن يعرض له نص حتى ترى نفسه تسبقه للتعبير عن اعجابٍ أثاره ، أو قبحٍ يصدم حسه وذوقه ، أو اقتراح تعديل يضمن فيه للنص سحره . . ولا تطالعه في الأدب ظاهرة ؛ حتى يهتم لها ويبقى معها يقلبها ويدور حولها ، إلى أن يجد لها التعليل الذي تسكن إليه نفسه ، ويستقر له خاطره وفكره . وقد تعهد الصفدي موهبته هذه بالتدريب والممارسة ، حتى قضى حياته كلها مع الأدب يعالجه بالدرس والمقارنة والتصنيف .

وهاك بعضاً من النماذج الدالة على توفر الموهبة لديه ...

فمنها قوله بعد أن أورد قول المعري من أبيات يدافع بها عن الكهولة فيقول :

واذْكُري لي فَضْلَ الشبابِ وما يَجْـ ـمَعُ من مَنْظَرٍ يَرُوقُ وطِيبِ
غَـدْرُهُ بالخليلِ أم حُبُّهُ للغَـ ـيِّ أم أنّه كَدَهْرِ الأديبِ

« وهذا هو تشبيه المعقول بالمحسوس ، وهو أعلى مراتب التشبيه طبقة ، لأنه ينشأ عن لطف ذوق ، وسلامة فطرة ، وصحة تخيل ، فهو صعب على من يرومه ، متقاعس عمن جذب زمامه ، لأن العلوم العقلية تستفاد من الحواس ، في المقادير والألوان والطعوم والرائحة وطيب النغم ونعومة الملمس وخشونته . ولهذا قالوا من فقد حاسة فقد علماً ... وإذا كان كذلك فالمحسوس أصل والمعقول فرع ، وتشبيه المعقول بالمحسوس من باب رد الفرع أصلاً ، وأحسن ما جاء فيه قول القائل :

وكأنَّ ٱلنُّجومَ بينَ دُجاها سُنَنٌ لاحَ بينَهُنَّ ابتِداعُ

وقول الآخر :

كأنَّ ٱلقَلبَ والسُّلوانَ ذِهنٌ يَحُومُ عليه مَعْنًى مستحيلُ

وقول الآخر :

كأنَّ انتِضاءَ ٱلبَدرِ تحتَ غَمامِهِ نَجاةٌ من ٱلبَأساءِ بعد وُقوعِ »[1]

وهكذا نرى كيف أفصح لنا هذا النص ، عن ادراك الصفدي لهذا النوع الرفيع من التشبيه ، الذي لايستطيعه الا المطبوعون ، أصحاب الذوق اللطيف والإحساس

(١) الغيث المسجم ١/٢١٠ - ٢١١

الصادق والتخيل السامي الدقيق ، بينما يمتنع على المتكلفين ، ممن يقصد إليه قصداً ويجهد لجره بالزمام. فهذا النوع قبل أن يكون تشبيهاً ؛ ما هو إلا إرضاء لإحساس صادق غلاب جاشت به النفس الشاعرة . كما لمس الصفدي بالتالي دور الحواس في تكوين المعقولات والصور ، وأن المحسوسات البسيطة هي الأصول الأولى لتلك . ثم دل على نضج هذا الادراك لديه ؛ بما أورده من النماذج الوفيرة ، التي اجتزأت منها بايراد ما يفي بالمطلوب .

وقال الصفدي بعد أن أورد بيتي الطغرائي في لاميته :

والدَّهرُ يَعْكِسُ آمالي ويُقْنِعُني   من الغنيمةِ بعدَ ٱلْكَدِّ بالقَفَلِ
وذي شِطاطٍ كَصَدْرِ الرمحِ مُعْتَقِلٍ   بمثله غيرِ هَيّابٍ ولا وَكِلِ

« ألا ترى أن الطغرائي لما أخذ في وصف حاله ، وما هو فيه من النكد وضيق الحال ، كأنه أطال على المخاطب في ذلك وأحس منه الملل ، فالتفت الى وصف هذا الصاحب الذي رافقه ، فانشأ للسامع معنى غير الأول بعث له نشاطاً جديداً ، واستأنف له إصغاء آخر ، وجدد له تطلعاً يتشوق معه الى الوقوف على هذا الخبر الثاني ، وهذا غير خاف .

« وقوله كصدر الرمح معتقل بمثله ، من الإيجاز والاختصار لأنه استغنى (بمثله) عن أن يقول : برمح طويل قويم معتدل . وما أحسن المثل المشهور (ويكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق) . وقال البحتري :

وٱلشِّعْرُ لَمْحٌ كفَتْ إشـارَتُهُ   وليس بالهَذْرِ طُوِّلَتْ خُطَبُهْ [1]

فاذا نظر الصفدي في بيتي المعري الى التشبيه ، وأدرك سمو الفن فيه في

(١) الغيث المسجم ١ / ١٥٨

إدراك العلاقة بين الصور الحسية والحالات المعنوية ؛ فإنه في هـذا النص اتجه في نقده الى الأثر النفسي الذي أحدثه النص ، في انتقال الشاعر من الحديث عن نفسه الى وصف صاحبه ، مما يوقظ انتباه السامع وينبه ذهنه لهذا الجديد . كما أشار الى صفة هامة من صفات الشعر ، في لمحاته المثيرة التي تطلق الخيال ، لدى مصافحـة كلمات هذا الشعر المكتنزة بالإيماءات والأصداء أذنَ السامع المتذوق .

ويعمق الصفدي إحساسنا بهذه الإشارة ، إلى الإيجاز الغني في التعبير ، دالاً بهذا على تأصل ذلك لديه فيقول :

« وأحسن ما ورد في الإيجاز قوله تعالى : (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين) .

« وهذه الآية مشهورة بين أرباب البلاغة بالإبداع ، وأعظم ما فيها شرح شأن نوح عليه السلام في الطوفان ، من أوله الى أخره في هذه الألفاظ القلائل ، ومن جملة إعجاز القرآن إيجازه ، وهو مشحون بذلك [1] » .

ولا يتوقف الصفدي عند هذا ؛ بل يعود ثانية الى حديقة الشعر يتنقل بين نماذجه ، ويتخير منها ما يكشف عما ينطوي عليه هـــذا الايجاز الموحي من إثاره ومتعة وابداع .

وكما يطرب الصفدي للإبداع ويهتز للجمال ، فإنه لا يخفي انفعاله ونفوره في مواطن الضعف أو الركة والإسفاف ، من ذلك ما أورده في كتابه فقال : « وما أحسن قول ابن التعاويذي :

بينَ ٱلسُّيوفِ وعينيه مُشاكَلَةٌ من أَجلِها قيلَ للأَغمادِ أَجفانُ

(١) الغيث ١ / ١٥٨

« وإن كان أخذه من أبي الطيب في قوله :

ولذا اسمُ أَغطيةِ ٱلعُيونِ جفونُها   من أَنَّها عملُ ٱلسيوفِ عواملُ

« فإنه تناوله خبَث حديد وأعاده قلادة جيد . ولم يكف أبا الطيب بشاعة اللفظ في قوله (أغطية العيون) حتى هجّنه بتقديم ترتيبه وتأخيره . والتقدير : من أنها عوامل عمل السيوف [1] » .

ولن نناقش الصفدي هنا في سر إعجابه ببيت ابن التعاويذي ، بل ننظر في رده لبيت المتنبي بالرغم من شدة إعجابه بالمتنبي ، ورضاه عما قاله فيه أبو العلاء وغيره ، ولكنها في الناقد الفني من مبررات وجوده وإحدى بدهيات سماته .

وحين يسمع ابن الأثير ، يحمل على الحريري ويضع من قدره ، لعجزه عما كلف به في الديوان ، وهو العلَم المشهور صاحب المقامات ؛ ينبري الصفدي للكلام ويسير في تعليل هذه الظاهرة ، حتى يضع أيدينا على الأسباب ، ويطمئن الى حسن وصولنا الى شاطىء الوضوح والاقتناع إذ يقول :

« أما عجب الناس من واقعة الحريري ، فهي موضع العجب في بادىء الرأي ، لأن من يصدر عنه مثل هذا الكتاب الذي لا نظير له في بابه .. ثم يتوقف في كتاب يطلب منه ، فإن ذلك غريب ، وأما إذا فكر الانسان وعلم أن الانشاء من باب الفتوح على الانسان ، لم يكن ذلك بعجيب . لأن الله تعالى قد يفتح بذلك في وقت دون وقت . وقد عد الشيخ محيي الدين بن العربي النظمَ وحسن الكتابة من الفتوح ، وما زال الناس كذلك تارة يُفتح عليهم وتارة لم يفتح ، والحريري في ذلك الوقت لم يفتح عليه .

« على أن الحريري في وقت عمل المقامات كان في بيته مخلّى ونفسه ، يصوغ

---

(١) الغيث ١ / ١٧

ويكسر ويهدم ويبني . فاذا نبا به مقام تحول الى غيره ، واذا تقاعس عليه معنى تركه وجذب ما هو أسلس قياداً منه . وقد ذكر أن مسودات المقامات كانت حمل جمل . وذلك غير جلوسه في الديوان وأول قدومه وهو بين جماعة من أرباب الفن ، ويقترح عليه معنى لا محيد له عنه ، ولا فسحة له في مضيقه ، ولا نجاة له من زلله ، ولم يكن استعد له .

« لا جرم أنه أفحم ونتف عثنونه [1] » .

وهكذا يذهب الصفدي كل مذهب ، باحثاً عن علة عجز الحريري عن تحرير كتاب في ديوان الانشاء ببغداد . لأن منصفاً لا يمكن أن يصم أديباً كالحريري لأمرٍ هين الشأن كهذا ، بما كاله له ابن الأثير وغيره ، فكان أن جمع الأسباب في أمور ثلاثة :

— أولها : الحالة النفسية التي يكون عليها الكاتب وسماها الفتوح .

— وثانيها : ضائقة الزمن التي أحاطت به وفرضت عليه ، بينما اتسع له الوقت في بيته وهو يكتب المقامات . حتى بلغت مسوداته حمل جمل .

— وثالثها : ضائقة الموضوع ، أو المعنى الذي لا عهد له به ولا محيد له عنه .

ولكن هذه العلل مجتمعة لم تقنع صاحبها نفسه ، فعندما وصل في تعليله الى هذه النقطة ، بقي ذهنه يضطرب لتساؤل جديد ، لأن الكاتب القدير لا يعجزه تحرير كتاب مهما ضاق الزمن ، وتحدد الموضوع ، وكانت الحالة النفسية غير مواتية . فراحت حاسته القلقة تبحث دائبة الى أن قال :

« وقد ظلم المقامات من جعلها من باب الترسل والترسل جزء منها ، بل هي كتاب علم في بابه » . وبذلك وضع الصفدي يده على السر ، فالمقامات تأليف في

---

(١) نصرة الثائر ص ٥٦

الأدب من نوع جديد ، فهو فن مستقل من فنونه ، له خصائصه ومزاياه « وما ذاك إلا أن هذا الكتاب أحد مظاهره تلك الحكايات المضحكة ، التي إذا شرع الانسان في الوقوف عليها ، تطلعت نفسه الى ما تنتهي اليه ، وتشوقت نفسه الى الوقوف على آخر تلك القصة [1] » .

إذن فقد زال العجب من عجز الحريري عن تحرير كتاب ديواني ، بما يلزمه فيه من مراعاة قيود وتقاليد تتعلق بالألقاب والمقدمات ، واسلوب في المخاطبات لا يعرفها إلا الموظفون في دواوين الدولة .

وليس هذا فحسب ، بل إن هؤلاء الكتاب ليعجزون أن يأتوا بمثل ما أتى به الحريري ، لما تتطلبه المقامات من ملاحظة دقيقة ، وخيال مجنح حي ، وروح فنية ، مما يفتقر اليه كبار كتاب الدواوين . وقد « قيل لابن عميرة كاتب الأندلس : لأي شيء ما تصنع مثل المقامات ؟ فقال : أما الألفاظ فما أغلب عنها ، وأما تلك الأكاذيب التي تكذبها ، فما أحسن أن أضع مثلها [2] » بهذا فسر ابن عميرة موهبة الحريري في صدقه الفني إذن .

أما الصفدي فقد استمر مع هذا الأمر كما رأيت ، حتى وصل في التعليل الى قرار اطمأن فيه ، وشاطىء ارتاحت نفسه اليه .

وينتبه الصفدي على صوت ابن الأثير ، وهو يدعي ان أبا نواس ومسلم بن الوليد وأبا تمام والبحتري وأبا الطيب وغيرهم كعبد الحميد وابن العميد والصابي ، لم يتعلموا من كتب اليونان شيئاً وجاءوا بما جاءوا به [3] » . فيتصدى الصفدي ليثبت غير ذلك مبتدئاً بالتوجه نحو شعر هؤلاء يستدرجه ليشي بالحقيقة ، متلطفاً للحصول عليها من أفواه أصحابها ، والبحث عن الحقيقة رائده فيبدأ « بقول أبي نواس :

---

(١) نصرة الثائر ص ٦١
(٢) « » ص ٦٠
(٣) المثل السائر ٢ / ٤

أَباحَ ٱلعراقيُّ ٱلنبيــذَ وشُربَهُ   وقالَ حَرامانِ المُدامَةُ والسُّكْرُ
وقال الحِجازيُّ ٱلشرابانِ واحدٌ   فحَلّتْ لنا من بين قوليهما الخَمْرُ
سـآخذُ من قوليهما طرفيهما   وأشربُها لا فارقَ ٱلوازرَ ٱلوِزْرُ

« فمن أنعم النظر في هذه الأبيات علم أن أبا نواس كان منطقياً ، فإن استنتاجه حل الخمر من مقدمتي كلام الفقيه العراقي والحجازي يدل على ذلك . وهذا على عادة مجاز الشعر ، وإلا فالصحيح حرمة الخمر .

« وأما أبو الطيب فقد قال : أنا وأبو تمام حكيمان وانما الشاعر البحتري . وكلام هذين الشاعرين يدل على أنهما ما عَرِيا عن شــيء من علوم الفلسفة خصوصاً المتنبي ، والخاتمة تدل على أنه كان ينظر في كلام القوم .

« ألا ترى قوله يمدح ابن العميد :

مَنْ مُبلغُ الأَعرابِ أني بعدَهـا   جالسْتُ رِسْطاليسَ والإسكندرا
وسمعْتُ بَطْلَيْموسَ دارسَ كُتْبِهِ   مُتَبَــدِّياً مُتَمَلِّكاً مُتَحَضِّرا

وهذا بعيد أن يصدر ممن لم ينظر في كتب القوم .

« وأما ابن العميد فقد قال ابن خلكان رحمه الله تعالى في ترجمته : وكان متوسعاً في علوم الفلسفة والنجوم . قلت : والبيتان الرائيان المذكوران لأبي الطيب في مدحه يؤيد ما قاله ابن خلكان . وأقول : أليس هو بصاحب الصاحب بن عباد ، وقد كان من رجالات المعتزلة ، وله في أصولهم مصنف . ومن المستحيل أن معتزليا لا ينظر في كتب الفلسفة [1] » .

---

(١) نصرة الثائر ص١٨٥ وما بعدها

وبذلك يقرر الصفدي الحقائق الأدبية ، بعد أن يسعى إليها في سبلها السليمة عن طريق النصوص ، ببصر نافذ وخطى وئيدة ثابتة .

وعندما يصل الصفدي الى بيت الطغرائي :

إنَّ ٱلْعُلا حَدَّثَتْني - وهي صادِقَةٌ - فيما تُحَدِّثُ أَنَّ ٱلْعِزَّ في ٱلنُّقَلِ

يهزه ما يرى فيه من صدق وابداع ، ولكن حاسته الناقدة لا يرضيها الاكتفاء بالاستمتاع قبل أن يذهب في التعليل كل مذهب ، ليكشف عن سر هذا الإبداع ما وسعه ذلك فيقول : « وقد استعار الحديث للعـــلا ، لأن العلا أمور معنوية لا تتصف بالكلام ، ولكنه لما جرب وجود العز بالنقلة والحركة ، صارت التجربة عنده علماً استفاده ، فصار كأنه حدثه العلا بذلك ، فاسند ذلك الى العلا ، تعظيماً للرواية في إسنادها الى العلا ، ليتلقاها السمع بالقبول . وقوله : (وهي صادقة) جملة اعتراضية اعترض بها ، وقد زاد الكلام حسناً لتأكيد الصدق عند المخاطب ، وهذا أبلغ من قوله : ان العلا حدثتني فيما تحدث أن العز في النقل [٢] » . ولكي يطيل تذوقنا لهذا النوع من الاعتراض ، يذهب بنا في جولة بين النصوص الرفيعة فيقول : ومن الجمل الاعتراضية قوله تعالى « فلا اقسم بمواقع النجوم - وإنه لقسم لو تعلمون - عظيم ، إنه لقرآن كريم » .

فاعترض اعتراضين : احدهما أصل والثاني فرع . الأول اعتراضه بقوله : (وإنه لقسم) بين قوله بمواقع وبين قوله إنه لقرآن كريم . الثاني أنه اعترض بقوله : (لو تعلمون) بين قوله وإنه لقسم وبين قوله عظيم .

وقد رأيت ما أفادت الجملتان في الاعتراض من الجزالة والبلاغة . ومثل هذا الاعتراض يسميه البلاغون حشو اللوزينج . كقول عوف بن محلم :

---

(١) الغيث المسجم ٢/٥٦ - ٥٧

إنَّ الثمانينَ — وبُلِّغْتَهـا قد أَحْوَجَتْ سمعي إلى تَرْجُمانِ

فقوله (وبلغتها) حشو يتم المعنى بدونه . وقول كثيّر عزة :

ولَوَ انَّ عزَّةَ حاكَمَتْ شمسَ الضُّحى في الحُسْنِ ـ عندَ مُوَفَّقٍ ـ لقَضى لها»[1]

ونكتفي بما مر من نصوص ، رأينا فيها موهبة النقد عند الصفدي ، لننقل الكلام الى ذوقه فنتعرف اليه من خلال آثاره .

وبعدُ فهذا نموذج مما تسرع بالصفدي حاسته للاستدراك على الأديب ما يراه في أداء معنى ، أو اتقان صياغة ، ليتم للنص ما يراه من الاجادة والتأثير . من ذلك ما قاله في بيتي ابن سناء الملك :

لها ناظرٌ ياحسْرَةَ الظَّبْيِ إذْ رَنا به كَحَلٌ ناداه يا خَجْلَةَ الكُحْلِ

وأَثْقَلَها الحُسْنُ الذي قد تكاثَرَتْ مَلاحَتُـهُ حتّى تَثَنَّتْ من الثِّقْلِ

« ولو كان لي في البيت الأول حكم لقلت : لها ناظر يا حيرة الظبي عنده ، وتخلصت من إذ وعدم وضعها للمجازاه .

« وأما قوله : وأثقلها الحسن : فابن جبارة[2] معذور فيه ، لأن حسناً يثقل صاحبه سمج بارد غث ، لأن الحسن إنما يفيد الخفة والحركة والنشاط ، وما مدح بالثقل غير الأرداف ، وما يتركها الشعراء بل يقرنونها بخفة الحصر ورشاقة القد .

« ومنه قول شمسة الموصلية :

هَيْفاءُ إنْ قالَ الشَّبابُ لها انْهَضي قالَتْ رَوادِفُها اقْعُدي وتَمَهَّلي[3]

---

(١) الغيث المسجم ٢ / ٥٨

(٢) قال ابن جبارة في تعليقه على الأبيات : « كان الصواب أن يقول : أثقلته الملاحة التي قد تكاثر حسنها . . [ثم قال :] وقد وكلت شرح هذا البيت ـ لعجزي عن معناه ـ الى عريف الحمالين فعساه يعرف معناه » الغيث ١ / ٢٤٣ .

(٣) المصدر السابق .

ونكتفي بما مر من نماذج تنم عما توفر للصفدي من موهبة فطرية في النقد ، تعهدها بالمران والإغناء والصقل ، باطلاعه الواسع على تراث العرب الادبي الغزير ، وما حفظه من نصوصه الرفيعة ، فكانت له خير مورد يمتح منه ويعود اليـــه ، ليؤصل به اسلوبه الفني في النقد ، الذي يقوم على لقاء النصوص في المعنى الواحد أو الشعور المتقارب ، والمقارنة فيما بينها على هذا الأساس الفني المجرد الرفيع .

ذوقه :

وفي الحديث عن ذوق الصفدي ؛ أنهج ما كان مني في طريق الكشف عن موهبته في النقد ، وذلك بترك النصوص تتحدث بما فيها ، فنخرج بالحقيقة بعد ذلك .

وإن كان لا بد من كلمة سريعة أقولها هنا ، فهي أن الذوق المتمرس المدرب ، هو أول ما يرسب في نفوسنا عن الأديب الصفدي لدى مطالعة كتبه ، لما نراه من سمو مختاراته من ناحية ، وفي نظره ببعضها بما يدل على بصره بالنصوص من ناحية أخرى . ومن الطبيعي أن يكون هذا عند من عايش القريض والكتابة ، وعاناهما قارئاً وقائلاً ، ولازمته النصوص في كل ما يتعلق بالأدب والحديث فيه ، فقلما تحدث الصفدي في ميدان النقد حديثاً نظرياً ، لأنه أبعد ما يكون عن الغاية التعليمية ورصف القواعد النظرية ، التي كانت تحدو ابن الأثير في مولفاته .

فمن نظرات الصفدي المتذوقة ، رده على ابن الأثير في تعليقه وقد أورد قول أبي نواس :

أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ويوماً له يوم الترحل خامس

بقوله : « مراده من ذلك أنهم أقاموا أربعة أيام . ويا عجباً له يأتي بمثل هذا البيت السخيف الدال على العي الفاحش في ضمن تلك الأبيات ... »

ويعجب الصفدي من وصم أمثال هذا الأداء بالسخف والعي فيقول : « ليس الأمر كما ادعاه من أنه أراد أنهم أقاموا أربعة أيام ، بل قد ذهب بعض المتأدبين إلى أن المقام كان سبعة أيام ، بدليل أنه أقام يوماً ويوماً وثالثاً فهذه ثلاثة أيام ، ثم قال ويوماً له يوم الترحل خامس فزاد الثلاثة أربعة أخر خامسها يوم الرحيل. وما يشك صاحب الذوق أن هذه العبارة أحسن من قوله أقمنا بها اسبوعاً ، وإن كان هذا أخصر في اللفظ ، ولكن ذلك له موقع (ويستطرد الصفدي فيقول) :

« سلّمنا أن المقام أربعة أيام ، لكنه كرر ذلك لمعنى لم يوجد إلا في هذا التكرار ، وهو أن المقام في هذه الحالة مقام وصف لأيام قطعها في لذة ، فأخذ يعددها أفراداً غير جملة ويقول : أقمنا بها يوماً ويوماً ويوماً كالمتلذذ بهيئة كل يوم ، استحضرها في ذهنه وما مر لهم فيها من أنواع اللذاذات والمسرات . وهذا أمر متعارف في الخير والشر فيقال :

« واصلني يوماً في يوم في يوم في يوم ، وهجرني يوماً في يوم في يوم في يوم .

« ومن هذا قول مروان الأصغر :

سَقَى اللهُ نَجْداً وَٱلسّلامُ على نَجْدِ ويا حَبَّذا نَجْدٌ على ٱلنَّأيِ وَٱلْبُعْدِ

« كرر ذلك تلذذاً بذكرها وتحرقا بالشوق اليها . . .

« ولله در المتنبي حيث قال :

أَبا شُجاعٍ بفارسَ عَضُدِ الد .. دولةِ فَنّا خُسْرَوْ شَهِنْشاها

أَساميـاً لم تَزِدْهُ معـرفـةً وإنَّما لذةً ذكرناها » (١)

هكذا يعيش الصفدي مع التجربة ، وينفذ بذوقه الى أغوار الأداء ، ليدرك

(١) نصرة الثائر ص ٣١٥ وما بعدها .

موطن السحر في هذا التكرار ، بيد أنه وقع كما أرى في بعض التناقض لأن الأيام لا يمكن أن تكون سبعة بعد أن أدرك سر هذا التكرار ، وإلا فكيف يطوي أبو نواس الأيام الأخيرة طياً وهو يريـد الاستعراض المتأني المصحوب بالتنهدات كما رأيت ...

ومن ذلك قول الصفدي بعد أن أورد بيتي الطغرائي :

وَرَدْنَا سُحَيْراً بين يومٍ وليلةٍ   وقد عُلِّقَتْ بالغَرب أيدي الركائبِ
على حينَ عَرّى مَنكِبَ ٱلشرقِ جَذْبُهُ   من ٱلصُّبْحِ واسْتَرْخى عنانُ الغَياهبِ

« ما أحسن هذه الاستعارة في (عرى منكب الشرق) وفي (استرخاء عنان الليل) يعني أن الصبح ظهر وانكشف ، والليل أسرع ذاهباً .

« والاستعارة الأولى من قول ذي الرمة :

وقد لاحَ للسّاري الذي كَمّل ٱلسُّرى   على أُخْريَاتِ اللَّيْـلِ فَتْقٌ مُشَهَّرُ
كمثلِ الحصانِ الأَنْبطِ البطنِ قائماً   تمايَلَ عنه الجُلُّ واللَّوْنُ أَشْقرُ

« فأخذه ابن المعتز فقال :

وساقٍ يجْعَـلُ المنديلَ منه   مكانَ حمائلِ ٱلسَّيْفِ ٱلطوالِ
غدا والصبحُ تحتَ الليلِ بادٍ   كطِرْفٍ أشْقرٍ مُلْقى الجِلالِ

« والاستعارة الثانية تشبه قول ابن عمار الاندلسي :

أَدِرِ الزُّجاجةَ فالنسيمُ قد انبَرَى   واللَّيلُ قد صَرَفَ ٱلعِنَانَ عن ٱلسُّرَى

« لكن ابن عمار كنّى عن ذهاب الليـل بصرف العنان ، والطغرائي كنى

عن ذهابه بإرخاء العنان كأنه أسرع وولى هارباً (١) » .

فلم يكتف الصفدي بلمس مواطن الحسن في الأبيات ؛ بل ذهب بعيداً ـ وهو الناقد الفني ـ في إغناء نفوسنا وتوسيع افق تذوقنا عن طريق المقارنة . فإيراده لأقوال الشعراء الآخرين لم تكن للاشارة الى أن هذا الشاعر سرق المعنى من ذاك ، وإنما يدفعه الى هذا امتاع تذوقه بالنظر الى المعنى أو الشعور وقد ترجمت عنه نفوس متعددة . ولامراء في أن هذا الاسلوب هو أحلى ما يتفتح له الذوق ويأنس به صاحبه .

وعلى هذا الأسلوب قال بعد ذكره بيتي مسلم بن الوليد :

يقولُ صَحْبي وقد جَدُّوا على عَجَلٍ   والخَيْلُ تَسْتَنُّ بالرُّكْبانِ في اللُّجُمِ
أَمَطْلِعَ الشَّمْسِ تَبْغي أَنْ تَؤُمَّ بِنا   فقُلْتُ كلاّ ولكنْ مَطْلِعَ الكَرَمِ

« وهذا في غاية الحسن التي تكبو الفحول دون بلوغها ، ويعجز الشعراء عن الظفر بصونها والتحلي بصوغها . فإن عين السها تطيل النظر الى رفعتها وتتأمل ، ومطايا التخيل تكل عن النهوض بعبئها فتتحمل وما تتجمل .

« وقد أحسن أبو العلاء المعري كل الاحسان حيث قال :

مُواصِلَةٌ بها رَحْلي كَأَنّي   منَ الدُّنيا أُريدُ بها انْفصالا
سَأَلْنَ فَقُلْتُ مَقْصِدُنا سَعيدٌ   فَكانَ اسْمُ الأَميرِ لَهُنَّ فالا

« هذا مما يطلب لحاقه فما تحمل الجواد قوائمه ، ويستبى له من كل حسن كرائمه ، ويفتح له في البديع نَور والقلوب كمائمه ، ويُجلي الأسماع من الدر بسمط لم يثقبه ناظمه (٢) » .

---

(١) الغيث المسجم ١ / ٢٣
(٢) « « ١ / ١١٦ - ١١٨

ونلاحظ هنا أن الصفدي لم يدلنا بدقة ، على ما أعجبه في قول مسلم وكذلك في قول المعري ، بل سار في تعليقه على القولين على طريقة عصره في النقد ، القائمة على المبالغة في التقريظ ، مع التزام السجع والقصد اليه .

وإنني إذ أبين أن هذا قلما لجأ إليه الصفدي مع النصوص ؛ أعتقد بأن شدة إعجابه بتعبير كل من الشاعرين ، دفعته الى أن يفسد على نفسه نشوتها ، بالتنقيب المتأني والتعليل الدقيق . ولا بأس من الاستمرار مع الصفدي ، في التعرف الى مدى ما يمتد اليه ذوقه . فنسمعه وهو يقول :

« ولا زلنا نستحسن الحكاية المروية عن المخنث ، الذي أنشد أبو بكر الخالدي بحضرته قصيدته في سيف الدولة ، وقد تأنق في معانيها وروق ألفاظها ومكنها بقوافيها . من جملتها قوله :

وَأَنكَرَتْ شَيْبَةً في الرَّأْسِ واحدَةً فعادَ يُسْخِطُها ما كانَ يُرضيهـا

« فقال المخنث : أما تستحي تخاطب الأمير أن تقول (في الرأس واحدة) فجن الخالدي والحاضرون تعجباً ، فقال الخالدي : فما أقول ؟ قال : قل لائحة أو واضحة .

« وكذلك قول مهيار يتغزل :

في صَدْرِها حَجَرٌ وتَحْتَ صِدارِها مَاءٌ يَشِــفُّ وبانَةٌ تَتَعَطَّفُ

« فقوله في صدرها حجر من أبشع لفظ ، لما فيه من ايهام الدعاء[1] » .

ففي النص الأول ، ينفر الصفـدي من الحشو الذي لا يضيف الى المعنى جديداً ، وقد ردد الصفدي مثل هذا في مواطن متعددة من كتابه ، منها قوله بعد أن أورد قول أبي الغياث الهذلي :

---

(١) الغيث المسجم ١ / ١١٤ - ١١٥

ذكرتُ أخي فعاودني صُداعُ الرأسِ والوَصبُ

« فذِكر الرأس بعد الصداع حشو يستغنى عنه . وكذلك قول ديك الجن :

فتنفَّستْ في البَيتِ إذ مُزِجتْ بالماءِ واستَنَّتْ سَنَى اللّهبِ

كتنفُّسِ الريحانِ خالَطَهُ من وَرْدِ جورٍ ناضِرُ الشُّعَبِ

فذِكر الماء بعد المزج فضل يستغنى عنه ، والبيتان يكفي عنهما قول أبي نواس :

فتنفَّستْ في البَيْتِ إذْ مُزِجتْ كتنفُّسِ الريحانِ في الأنفِ »[1]

وبذا نرى تمسك الصفدي بإغناء المعنى ، ونفي كل لفظ لا يكون له وجود مكين في التعبير عن المعنى أو إغنائه .

أما في تعليقه على بيت مهيار ، فلقد أصاب الصفدي موطن الاثارة ، واستحق الشاعر منه كلمة أبشع التي عبر بها ، لكن « ايهام الدعاء » أسبق ما وصل الى لسانه ، والحقيقة أن الجو الذي تنقلنا اليه لفظة (الحجر) بوحشته وقسوته وبيوسة ملمسه يباين كلية ما أراد الشاعر اطلاقه من شعوره ، وفي مثل هذا يستحب التفصيل ونثر الجزئيات ، لتستوعب الموقف وتستنفد الشعور .

ويطل على نفوره من الحشو ماعبر به الصفدي بعد ذكره خبر « الأمير بدر الدين بيليك الخازندار ، وقد أحضره الى القاهرة تاجر كان يحسن اليه وهو في رقه ، فلما باعه تنقلت به الأيام الى ما صار اليه . وافتقر التاجر فيما بعد ، فحضر إليه بالديار المصرية وكتب له رقعة فيها هذان البيتان :

كُنّا جَميعَيْنِ في بُؤسٍ نُكابِدُهُ والقَلْبُ والطَرْفُ منّا في أذىً وقَذَى

---

(١) الغيث ١ / ١١٢

والآنَ أقبلَتِ الدُّنْيا علَيكَ بما تَهْوَى فَلا تَنْسَني إنَّ الكِرامَ إذَا

إشارة الى البيت المتقدم :

إنَّ الكِرامَ إذا ما أَيْسَرُوا ذَكَروا مَنْ كانَ يَأْلَفُهُمْ في المَنْزِلِ الخَشِنِ

« قلت : وهذا عندي أشرف من التضمين الكامل ، وأطرب للفهم وأعذب للسمع . وفيه من البلاغة حسن التضمين مع ما في ذلك من الاختصار الذي هو من أشرف أنواع البلاغة ، لأنه يرفع عن المخاطب مؤنة الإصغاء وقرع السمع بما هو محفوظ مقرر في الذهن [1] » .

وهكذا يرى الصفدي في مثل هذه الاشارات المعبرة واللمحات المؤدية طرباً للفهم ، لما أحدثه من إثارته وإطلاق كوامن قدرتـه ، وعذوبةً للسمع بما أوحاه لصاحبه من احترام له واعتراف بحسن فهمه وتذوقه وادراكه .

وكما يرتع ذوق الصفدي في رياض الشعر ؛ فانه كما رأينا لا يرى بأساً من تنسم عبير ما راق من زهرات النثر بمثل قوله :

« وما أطرب لشيء كطربي لاستعارات القاضي الفاضل رحمه الله في مثل قوله : وتلك الجبهة وإن كانت غريبة ، فإنها مستودع الأنوار وكنز دينار الشمس ومصب أنهار النهار » وقوله « في ليلة جمد خمرها وخمـــد جمرها ، الى يوم تود البصلة لو ازدادت قميصاً الى قمصها والشمس لو جرت النار الى قرصها [2] » .

كما يبدي اعجابه في كل مناسبة بسمو التعبير القرآني وغنى ألفاظه بما تعنيـه وتوحيه وتخلفه من الأصداء الرحبة . فمنها « وقوله تعالى : (وإنا وايا كم لعلى هدى

---

(١) الغيث المسجم ١ / ١٣٥

(٢) « « ١ / ١٨٤

أو في ضلال مبين) وفيه لطيفة ، وذلك أنه أتى بعلى للهدى وبفي للضلال ، لأن صاحب الهدى والحق كأنه مستعل على ما هو عليه ، كالجواد يركض كيف شاء ، وصاحب الضلال والباطل كأنه منغمس فيما هو فيه ، ورأسه منخفض لا يدري أين يتوجه . وهذا من لطائف القرآن وغوامض معانيه [1] » .

لكن جولته بعيداً عن الشعر لا تعدو أن تكون التفاتة سريعة ، يعود بعدها الى القريض الذي يعيش به مرجِّعاً وقارناً ، ويتنفس في أجـــوائه متذوقاً وناقداً ليقول :

« وما أحسن الفاء التي تكررت في قول الشنفرى :

بِعَيْنِيَ مَنْ أَمْسَتْ فباتَتْ فَأَصْبَحَتْ　　فَقَضَّتْ أُموراً فاسْتَقَلَّتْ فَوَلَّتِ » [2]

وليت الصفدي لم يكتف بهذا الاستحسان وحده ، ولو أنه مثير يطلق التذوق في آفاق الخيال الرحبة ، بل ليته تغلغل أكثر ليقول إن هذه الفاء روح المشهد كله ، بعثت دفقة الحياة فيه ، فكأنها خطوات فاتنة الشنفرى هذه ولفتاتها وحركات كل جارحة فيها في كل ما صنعت ، فهي بحق نبضة الحياة تسري في كل حركة من حركاتها ، وترافقها منذ أن أمست الى أن تولت وغابت عن الأنظار . كما تدل هذه الفاء كذلك على ملازمة تتبعه لأدق حركاتها ، بقلب واجب ، ونفس تفيــض بالحسرة والإعجاب .

« وقال ابن صُرَّدُرّ :

قَومٌ إذا حَيَّ الضُيُوفُ جِفانَهُمْ　　رَدَّتْ عَلَيهِمْ أَلْسُنُ النِّيرانِ

(١) الغيث ١/٢١٢
(٢) « ١/١٩٤

« وهذه استعارة اخرى هي أكمل ، لأن في النار من اللسان شيئين وهما : الشكل الشبيه باللسان ، والزفير الشبيه بالتصويت [1] » .

وسمو هذا الذوق عند الصفدي لم يكن يأبى عليه استساغة أدب عصره ، شعره ونثره ، بما اكتسى من أثواب الصنعة والتكلف والبديع ، تلك الأثواب الصفيقة المزركشة على حساب المعاني ، ليختنق تحتها في غالب الأحيان كل معنى أو شعور .

بيد أن للصفدي في شعر عصره هذا موقفاً واضحاً ، يقوم على تحقيق اللذة الحسية ، لكنه لا يقبل أن يكون ذلك على حساب المعنى ، بل إنه ليطالب بأن يكون تحقيق وجه من وجوه البديع مثلاً بغية خدمة المعنى أو الشعور ، في إغناء أو زيادة تأثير مع انتفاء ما يدل على التكلف . والنص الآتي للصفدي ، يحدثنا في هذا بما يكشف لنا عن ذوقه حيال نتاج عصره الأدبي فيقول :

« والجناس وإن كان من أنواع البديع لكن بعض صوره مستثقل . كقول ابن الفارض من قصيدة :

أَما لَكَ عن صَدٍّ أَما لَكَ عن صَدِ ... لِظَلْمِكَ ظُلْماً منكَ مَيْلٌ لِعَطْفَةِ

فَرِحْنَ بحُزْنٍ جازعاتٍ بُعَيْدَما ... فَرِحْنَ بحَزْنِ الجِزْعِ بي لشَبيبتي

« فانظر الى استثقال البيت الأول لما فيه من جناس التحريف في صد وصد ، الأول من الصدود والثاني صدٍ أي عطشان . وفي ظلم وظلم ، الأول الظلم بالفتح وهو الريق ، والثاني بالضم وهو الجور ، مع التقديم والتأخير الذي يحتاج الى اقليدس حتى يستخرج ترتيبه على خط مستقيم . والتقدير فيه : أمالك ميل لعطفة عن صد ، أما لك ظلماً منك عن صد لظلمك .

---

(١) الغيث ١ / ٢٥٣

« فأما لك الأولى مركبة من همزة الاستفهام وما النافية ولام الجر وكاف الخطاب ، وأمالك الثانية مركبة من فعل ماض من الإمالة وكاف الخطاب .

« وأما البيت الثاني ففيه فرحن مرتين . الأولى الفاء فاء العطف ، ورحن فعل ماض من الرواح لجماعة الاناث ، والثانية فعل ماض من الفرح لجماعة الاناث أيضاً . والراء في الأولى مضمومة وفي الثانية مكسورة .

« وفيه الحزن مرتين . الأولى بضم الحاء ضد الفرح ، والثانية بفتح الحاء من الارض ضد السهل .

« ولهذه الألفاظ التي عقدها عقد الميزان لأجل الجناس ، صار كلامه وحشياً من العوام بل من بعض الخواص الذين لم يتمهروا في الأدب ، وهذه الأشياء لا يخفى على ذي الذوق السليم ما فيها من الاستثقال ، ولم أقل هذا الكلام جهلاً بمقدار الشيخ شرف الدين بن الفارض رحمه الله ، وأنه لم يكن من الفصحاء .

« ألا ترى قصائده التي أخلاها من الجناس ، مثل الميميتين والجيمية واللامية والمهموزة وغيرها فما أرقها وأحلاها » .

« والجناس إذا كثر في الكلام مُل ، اللهم إلا أن يكون سهل التركيب ليس على المتكلم فيه كلفة ، كما حكي عن بعض جواري المعتمد بن عباد ، أنها قالت وهما في سجن أغمات يا مولاي لقد هُنّا هُنا . فقال المعتمد :

قالَتْ لقدْ هُنّا هُنــا ... مولايَ أَيْنَ جاهُنا

قُـلْتُ لها إلهُنــا ... صَـيَّرَنَا إلى هُنا » [1]

وواضح من هذا النص أن شروط الصفدي لتقبُّل صنعة ما في الشعر ؛ لا يستطيعها إلا شاعر موهوب قدير ، قد غلب عليه طبعه فتأتي وجوه البديع لا لتزين الكلام ، بل لتقوم بدورها في أداء ما قصد الشاعر للتعبير عنه .

---

(١) الغيث ٢ / ٣٦ - ٣٧

لذا فان الصفدي عندما احتاج الى مثال يجسد فيه كلامه ، لم يجده إلا عند أمثال المعتمد بن عباد ، وهو في حال من البؤس ، تغمره فيها أمواج عاتية من الألم والشقاء ، لا تسمح له بالتظرف في قوله ، أو التكلف فيما يترجم به عما جاش في نفسه من شعور .

وإذا أردنا أخيراً أن نتعرف الى ذوق الصفدي من خلال مختاراته ، فلن نبتعد كثيراً وقد مر بنا - فيما عرضت له من نصوص - مختارات كثيرة دالة ؛ اضافة الى أنه كان يشير في ثنايا كتبه الى ما يستحسنه من شعر الشعراء .

من ذلك قوله في اشارة سريعة « ويعجبني أبيات الحطيئة وإن كان فيها طول وطاوى ثلاث [1] . . » وهذه القصيدة إن هي إلا مجموعة من المشاهد النابضة بالحياة ، تتحرك فيها شخصياتها ماثلة للعيان ، وقد أخذ كل منهم سمته المميزة له ، عبر عنها فيما ألقاه الحطيئة على لسانه ، فكانت في النهاية قصة من واقع الحياة والصحراء .

والحق إن اعجاب الصفدي بتصوير المشاهد الحية لم يكن بدعاً في اشارته هذه ، بل لقد ردد ذلك أكثر من مرة ، قرنه هناك بما يظهر إعجابه بقدرة الشاعر على تصوير الحركة مما سيرد في حينه .

كما كان من مختاراته التي طرب لها قول ابن خفاجه في معرض حديثه عن استخدام الأدباء للالوان فقال :

« والعلم المشهور في هذا قول الحريري في المقامة الثالثة عشرة : مذ اغبر العيش الأخضر ، وازور المحبوب الأصفر ، اسود يومي الأبيض ، وابيض فودي الأسود ، حتى رثى لي العدو الأزرق ، فحبذا الموت الأحمر [2] » .

---

(١) الغيث ١ / ٢٥٣
(٢) « ١ / ٢٢٦

وقول ابن خفاجه :

لقد جُبْتُ دونَ الحيِّ كلَّ تنوفَةٍ ... يَحُومُ بها نَسْرُ السَّماءِ على وَكْرِ
وخُضْتُ ظَلامَ اللَّيلِ يَسْوَدُّ فَحْمةً ... ودُسْتُ عَرِينَ اللَّيْثِ يَنْظُرُ عن جَمْرِ
وجِئْتُ دِيارَ الحَيِّ والليْلُ مُطرِفٌ ... مُنَمْنَمُ ثوبِ الأُفْقِ بالأَنْجُمِ الزُّهْرِ
أَشيمُ بها بَرْقَ الحَديدِ ورُبَّما ... عَثَرْتُ بأَطْرافِ المُثَقَّفَةِ السُّمْرِ
فلَمْ أَلْقَ إلاَّ صَعْدَةً فوقَ لأْمَةٍ ... فَقُلْتُ قَضيبٌ قد أَطَلَّ على نَهْرِ
ولا شِمْتُ إلا غُرَّةً فوقَ أَشْقَرٍ ... فَقُلتُ حَبابٌ يَسْتَديرُ على خَمْرِ
فَسِرْتُ وقَلْبُ البَرْقِ يَخْفِقُ غَيْرَةً ... هُناكَ وعَيْنُ النَّجْمِ تَنْظُرُ عن شَزْرِ » (1)

ونختم الكلام حول ذوقه ومحاولة الكشف عن مختلف جوانبه ، بما كان من مختاراته النثرية في الرد على ابن الأثير بقوله :

« قال (ابن الأثير) ومن ذلك ما ذكرته في ذم الدنيا . وهو :

« أنكاد الدنيا مشوبة بالأشياء التي جبلت النفوس على حبها ، وكل ما تستلذه الأبدان من مآكلها فانه يضرها من جهة طبها ، ولهذا تنمُّ من منفعة الهليلج ومضرة اللوزينج ، وأعجب من ذلك أنه لا ينتفع الإنسان بشيء من اذتها إلا ضرته من جهة ثوابه ، فهو كالذي ينتفع باصطلاء النار وهي محرقة لأثوابه . . . وقد ضُرب لذلك مثل من الأمثال وقيل : إن كل ما ينفع الكبد مضر بالطحال » .

(ويعلق الصفدي على هذا فيقول) :

---

(1) الغيث المسجم 1 / 233

«انظر الى هذه الركة والعامية ، ألا تراه أشبه شيء بكلام العجائز قوابل النساء اذا أخذن يعظن ويضربن الأمثال ، أكذا توصف الدنيا في حالة الذم . . أتراه ما سمع بشيء من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذ قال له رجل: صف لنا الدنيا . فقال ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء ، حلالها حساب وحرامها عذاب ، من استغنى فيها فُتن ، ومن افتقر حَزِن .

«ولا بشيء من أقوال الحكماء فيها كقول بعضهم : الدنيا أمل بين يديك ، وأجل مطل عليك ، وشيطان فتـــان ، وأماني جرارة العنان ، تدعوك فتستجيب ، وتدعوها فتخيب .

«أما سمع بزهديات أبي نواس التي منها :

وما ٱلنَّاسُ إلاّ هالِكٌ وابنُ هالِكٍ … وذو نَسَبٍ في الهالِكينَ عَريقِ
إذا امْتَحَنَ الدُّنيا لَبِيبٌ تَكَشَّفَتْ … لهُ عَنْ عُدُوٍّ في ثِيابِ صَديقِ

«حتى إن الرشيد أو المأمون قال: لو وصفت الدنيا نفسها ما وصفت بأكثر من قول أبي نواس . أما سمع بشيء من أقوال أبي العتاهية وصالح بن القدوس ومحمود الوراق ومن تعرض لذمها من الشعراء كالمتنبي وأبي تمام وغيرهما . أما سمع بقول الزمخشري . . . أما وقف على رسائل المعري في ذم الدنيا . . . وبقـــول ابن الشبل البغدادي . . . أما وقف على الخطب النُّباتية ورأى كلامه فيها . . . حتى يقول الهليلج واللوزينج والكبد والطحال . . [1]» .

وجدير بالذكر أن الصفدي هنا تناول نماذجه من أرفـــع مصادرها وأسمى نصوصها ، فلم يعرج على شيء من إنتاج عصره على غزارته ، مجاراة لذوقه ، وادراكاً منه لما كان عليه هذا الانتاج من التخلف والتقصير .

---

(١) نصرة الثائر ص ١١٦

غزارة محفوظه الأدبي :

قد يتبادر الى الذهن أن من نافلة القول الكلام في المحفوظ الأدبي عند ناقد ما ، وليس الاطلاع الأدبي فحسب ، فاذا تذكرنا أن المقاييس النقدية في أمة من الأمم انما تستقى من آثارها الأدبية الرفيعة ، أدركنا أهمية اطلاع الناقد على أدب أمته ، وإتقانه لما سما من نصوصها وآثارها ، ليقيم بذلك أحد الركائز الأساسية التي تؤهله للتصدي لأدبها بالدراسة والنقد وملاحظة الظواهر المتجددة .

ولو أردنا بالتالي أن نختصر الجهد لاستطعنا أن نتعرف الى ما يحفظه الصفدي من تراث الأدب العربي الغزير ، من خلال معرفتنا لجوانب ثقافته التي صرح فيها بالعلوم التي يوصي المتأدبين باتقانها أو الإلمام بها . ومنها ما يتعلق بالنصوص « حفظ جانب جيد من شعر العرب والمخضرمين والمحدثين وفحول المتأخرين ، وحفظ جيد الحماسة ومختار المفضليات وبعض قصائد منتهى الطلب جمع ابن ميمون ، وحفظ جانب جيد من المقامات والخطب النباتية ، وبعض ديوان المتنبي وأبي تمام والبحتري وسقط الزند وغير ذلك [٢] »

لكنّ ما سنحصّله من المعرفة عن هـذا السبيل ستكون قاصرة لأن الادعاء غير الواقع من جهة ، ولأن غايتنا أبعد من ذلك من جهه اخرى . فغايتنا هي الكشف عن محفوظه ذاك ، من نواحي النوع والمستوى الفني بالكم ، ثم مدى استفادته من هذا المحفوظ وتحريكه في مجال نشاطه في دراسة الأدب ونقده .

ولمَ نتلكأ في هذا والنصوص الدالة لا تحصى في كتبه كثرة ، وهذه بعض نماذج منها مما نلمس فيها ما قصدنا اليه .

« قال (ابن الأثير) وكذلك جاء قول بعض المغاربه في الخمر وكأسها وهو :

---

(١) نصرة الثائر ص ٦٤

ثَقُلَتْ زُجاجاتٌ أَتَتْنا فُرَّغاً ... حتّى إذا مُلئَتْ بِصِرْفِ الرّاحِ
خَفَّتْ فكادتْ أن تَطِيرَ بما حَوَتْ ... وكذا الجُسُومُ تَخِفُّ بالأَرواحِ

« وهذا معنى مبتدع أشهد أنه يفعل بالعقول فعل الخمر سكراً ، ويرق كما رقت لطفاً ويفوح كما فاحت نشراً » .

ويعقب الصفدي على هذا ناثراً أمامنا مجموعة من الأشعار من صوب محفوظه مما قيل في هذا المعنى فيقول :

« هما لأبي علي ادريس اليماني وأصل المعنى لابن المعتز حيث قال :

وَزَنّا ٱلكأسَ فارِغَةً ومَلأَى ... فكانَ ٱلوَزْنُ بَيْنَهُما سَواءَ

« ولكنه زاده مبالغة وهي أن الكؤوس استفادت بالخمر خفة ، ثم إنه أراد لذلك مثالاً في الخارج فلم يجده إلا في الروح والجسم .

« ولابن حمديس هذا المعنى بعينه فإنه قال :

وَكَأْسِ نَشْوانَ فيها ٱلشَّمْسُ بازِغَةٌ ... باتَتْ تُديمُ إلى الإصْباحِ لَثْمَ فَمِهْ
تَخِفُّ مَلأَى وتَعْطي الثِّقْلَ فارِغَةً ... كالجِسْمِ عِندَ وُجودِ الرُّوحِ أو عَدَمِهْ

« وقال أيضـــاً :

جامٌ تُجَمِّعُ شُرْبُهُ لَذّاتِنا ... وعُقولُنا بالسُّكْرِ مِنْهُ تَبَدَّدُ
ويَخِفُّ مَلْآناً ويَثْقُلُ فارِغاً ... كالجِسْمِ يُعْدَمُ روحُهُ أو يوجَدُ

« على أن ابن حمديس أتى بالمعنى كاملاً في بيت واحـد ، وادريس اليماني انما أتى به في بيتين ولكن نظـم ادريس أعلق بالقلب وأوقع في النفس وأعذب في السمع .

« وقريب من هذا المعنى قول أبي العلاء المعري في اللزوميات :

لم يكُنِ الدَّنُّ غيْرَ نُكْرٍ سُلافَةُ الرَّاحِ عرَّفَتْهُ
كآدمٍ صيغَ من تُرابِ ونفخةُ الرُّوحِ شرَّفَتْهُ

وكلاهما تسلق على هذا المعنى ونقله الى الثقل والخفة والا فهو هو [1] » .

وننتقل مع الصفدي في محفوظه الى وصف الأزهار ، إذ يثيره ابن الأثير بما كتبه في وصف اللينوفر ، فينبري له الصفدي تحف به نصوصه في هذا المعنى ، ليتدفق بما يحيا في ذاكرته منها ، وأغلبه هذه المرة من شعر المتأخرين ، لأن وصف اللينوفر والأزهار بعامة مما لم يطرقه شعراء العصور المتقدمة فيقول :

« ومن طريف ما جاء للشعراء في اللينوفر قول الخبز أرزي :

خافَ المَلالَ إذا طالَتْ إقامَتُهُ فصارَ يَظْهَرُ أحياناً ويَحْتَجِبُ
كأنَّهُ حينَ يَبْدُو من مَطالِعِهِ صَبٌّ يُقَبِّلُ حِباً وهو يَرْتَقِبُ

« وما أحسن قول مجير الدين محمد بن تميم :

غدا اللَّيْنَوْفَرُ المُصْفَرُّ يَحْكي النُّجومَ فَلا يُغادِرُها شَبيها
تَغوصُ الْعَيْنُ فيهِ إذا تَجَلَّى النَّهارُ وفي الظَّلامِ يَغوصُ فيها

« وقد استخدم العين هنا في معنيين : أولها العين الباصرة ، والثاني العين الجارحة .

« وقول ابن حمديس الصقلي :

إشْرَبْ على بِرْكَةِ لَيْنَوْفَرٍ مُصْفَرَّةِ الأَوْراقِ خَضْراءِ

---

(١) نصرة الثائر ص ٢٢٤ وما بعدها

كأنّما أَزْهارُها أَخْرَجَتْ ... أَلْسنَةَ النّارِ من الماءِ

« وما ألطف قول التنوخي من أبيات :

أَلِفَ المياهَ مُشاكلاً بلَطافةٍ ... حتى يُفارِقَ شَكْلَهُ لم يَصْبِرِ
فيَقومُ طَوْراً ثم يَرْفَعُ رأْسَهُ ... بتَخَنُّثٍ وتَأَوُّدٍ وتَكَسُّرِ
وكأنّهُ في الماءِ صاحِبُ مَذْهَبٍ ... أَغْراهُ وَسْواسٌ بأَنْ لم يَطْهُرِ

« وقول الآخر :

كأَنَّ لَيْنوفَرَها عاشِقٌ ... نَهارَهُ يرْقُبُ وَجهَ الحَبيبْ
حَتَّى إذا اللَّيْلُ بدا سِجْفُهُ ... وانْصَرَفَ المَحْبوبُ نَحْوَ الكَثيبْ
غَمَّضَ عَيْنَيهِ عسى أنْ يرى ... في النَّوْمِ مَنْ فازَ بِهِ عَنْ قَريبْ

« وبالغ الآخر في الظرف حين قال :

وكأَنَّهُ إذْ غابَ وَقْتَ مَسائهِ ... في الماءِ واحْتَجَبَت نَضارةُ قدِّهِ
صَبٌّ يُهَدِّدُهُ الحَبيبُ بِهَجْرِهِ ... ظُلْماً فَغرَّقَ نَفْسَهُ مِنْ وَجْدِه

« وقال الوجيه بن الذروي يهجو اللينوفر المصري :

ولَيْنوفَرٍ أَبْدَى لنا باطِناً لَهُ ... مَعَ الظّاهِرِ المُخْضَرِّ جَمْرَةَ عَنْدَمِ
فَشَبَّهْتُهُ لما قَصَدْتُ هِجاءَهُ ... بِكاساتِ حَجّامٍ بها لَوْثَةُ الدَّمِ » (1)

(1) نصرة الثائر ص ٢٣٠ وما بعدها

وندع حديث الخمر ووصف الأزهار الى دوحة الغزل ، نستمع في ظلالها الى ما يرويه لنا الصفدي ، من أرق ما قيل في هذا المجال منذ العصر الجاهلي الى زمنه ، فهذا باب ولجه كل أحد من الشعراء .

وينطلق الصفدي في ايراده لهذه النماذج ، من مناقشته كلام ابن الأثير وقد ذكر أنه أملى رسالة من عاشق الى معشوق كلفه بها أحد أصدقائه ، وانثالت الأشعار على لسان الصفدي ، تتحدث في المعاني التي وردت في رسالة ابن الأثير ، نتبين من خلال ذلك ، سوء استخدام ابن الأثير لمعاني الشعراء في الغزل عبر العصور الأدبية المتطاولة .

وسأجتزىء هنا بعبارة يسيرة مما قاله الصفدي في الرسالة ، نلم منها بجو هـــذه الرسالة عندما قال يصفها :

« هذه العبارة والتهديد تصلح أن تكون في حق عدو خرج عن الصداقة الى العداوة ، أو مسؤول أكثر الظلم والفساد في البلاد والعباد ، ولم يُفده الإنـذار ولا التحذير ، أو عبد خرج عن طاعة مولاه ولم يخف سلطانه .

« أما وقف هذا على شعر المتيمين من العرب ، الذين خاطبوا أحبابهم وتوسلوا في طلب الوصال ، وتلطفوا في طلب الرضا والمساعدة على الهوى .

« أكذا قال قيس بن ذَريح ، وعبد الله بن العجلان النهدي ، وعروة بن حزام ، وأبو ذؤيب ، وقيس المجنون ، وجميل بثينه ، وكثيّر عزة .

أكذا تغزل عمر بن أبي ربيعة ، والحارث بن خالد ، والعباس بن الأحنف .

« أما سمع بقول أبي الطيب :

زِيدِي أذًى مهجتي أَزِدْكِ هَوًى ... فَأَجهَلُ ٱلنّاسِ عاشِقٌ حاقِدُ

« وقول أبي فراس :

أَسَاءَ فَزَادَتْهُ الإِسَاءَةُ حُظْوَةً حَبِيبٌ على ما كانَ مِنْهُ حَبِيبُ
يَعُدُّ عَلَيَّ الواشِيانِ ذُنُوبَهُ ومِنْ أَيْنَ للوَجْهِ الجَميلِ ذُنُوبُ

« وقول الآخر :

لَئِنْ سَاءَنِي أَنْ نِلْتِنِي بِمَسَاءَةٍ لقد سَرَّنِي أَنِّي خَطَرْتُ بِبالِكِ

« وقول الآخر :

وَيَدُلُّ هَجْرُكُمُ على أَنِّي خَطَرْتُ بِبالِكُمْ

« أما سمع قول المعري :

لِغَيْرِي زَكاةٌ مِن جَمالٍ فَإِنْ تَكُنْ زَكاةُ جَمالٍ فاذْكُرِي ابنَ سبيلِ

« ما أحلى قوله فاذكري ابن سبيل إن اخرجت زكاة جمالك ، لم يأمرها بصرفها اليه ولا أوجبها عليها (صنيع ابن الأثير في رسالته) بل قال : ان كان شيء فاذكري ابن السبيل المستحق .

« ومن هذا قول كثير عزة :

لَئِنْ كانَ يُهْدَى بَرْدُ أَنْيابِها ٱلْعُلَا لِأَفْقَرَ مِنِّي إِنَّنِي لَفَقِيرُ

« على أن معناه مشكل إذا تأملته حق التأمل ، وليس هذا مكان الكلام عليه .

« وما ألطف بن سناء الملك في قوله :

وغانِيةٍ لم تَعْدُ عشرينَ حِجَّةً أَقولُ لها قَوْلاً لَدَيْهِ صَوابُ
عَلَيكِ زَكاةٌ فاجْعَليها وِصالَنَا فعُمْرُكِ في ٱلْعِشرينَ وَهْيَ نِصابُ

« وقول ناصر الدين بن النقيب :

لَقدْ وَجبَتْ عليكِ زَكاةُ حُسْنٍ   وفيهِ كَمِثْلِ ما في المالِ حَقُّ
فلا تَعْدِلْ به عَــنّي فإنّي   لِمَصْرِفِـهِ ٱلفقيرُ المُسْتَحِقُّ

« أما سمع بقول جميل بن معمر العذري :

لا خَيْرَ في الحبِّ وقْفاً لا تُحَرِّكُهُ   عَوارِضُ ٱليَأْسِ أَوْ يَعْتادُهُ ٱلطَّمَعُ
لو كان لي صَبْرُها أو عندَها جزَعي   لَكُنْتُ أَعرِفُ ما آتي وما أَدَعُ

« وقول أبي الطيب :

وأَحْلَى الهوَى ماشَكَّ في الوَصْلِ رَبُّهُ   وفي الهَجْرِ فَهْوَ ٱلدَّهْرَ يَخْشَى ويَتَّقي

« وقول كشاجم :

لولا ٱطِّرادُ ٱلصَّيْدِ لم تَكُ لَذَّةٌ   فَتَطَارَدي لي بالوِصالِ قليلا
هذا ٱلشَّرابُ أَخو الحَياةِ ومالَه   مِن لَذَّةٍ حتى يُصيبَ غليلا

« وقول العباس بن الأحنف :

وأَحْسَنُ أَيّام الهوَى يومُكَ الذي   تُرَوَّعُ بالهِجْرانِ فيه وبالعَتْبِ
إذا لم يَكُنْ في الحُبِّ سُخْطٌ ولا رِضَى   فأَيْنَ حَلاواتُ الرَّسائِلِ وٱلكُتْبِ

« وقول عُلية بنت المهدي :

وُضِعَ الحُبُّ على الجَوْرِ فَلو   أَنْصَفَ المَعْشوقُ فيه لَسَمِجْ
ليسَ يُسْتَحْسَنُ في شَرْعِ الهوَى   عَاشِقٌ يُحْسِنُ تأليفَ ٱلحُجَجْ

« أما سمع بقول محمد بن بشير الخارجي :

ولقد أَرَدْتُ ٱلصَّبْرَ عَنْكِ فَعاقَني   عَلَقٌ بقلبي من هَواكِ قَديمُ

يَبقى على ريْبِ الزّمانِ وصرْفِه   وعلى جَفائكِ إنّهُ لكَريمُ

« وما أحسن قول العباس بن الأحنف حين عنف أحبابه على المطل بالوصل :

كأنْ لمْ يَكُنْ بيني وبَيْنَكُمْ هوى   ولَمْ يَكُ مَوْصُولاً بِحَبْلِكُمْ حَبْلي

وإنّي لأسْتَحْيي لَكُمْ مِنْ مُحَدِّثٍ   يُحَدِّثُ عَنْكُمْ بالمَلالَة والمَطْلِ

« ومما قلت أنا :

وإذا تَهتّكَ في الهوَى سِرّي غدا   وتَحدَّثتْ بِصَبَابتي ٱلسُّمّارُ

أو قيلَ ذا المِسْكينُ أَصلُ جُنُونِهِ   سِحْرُ العُيونِ ومَا لَهُ أنصَارُ

أَيَحِلُّ في شَرْعِ الهوَى هذا؟ ومَنْ   أَفْتَى بأَنَّ دَمَ المُحِبِّ جُبَارُ

وعَلِمْتِ أنَّ هَواكِ أَصلُ بَلِيَّتي   فعَلَى صُدُودِكِ لا عَلَيَّ ٱلْعَارُ

« أما سمع بما قنع به المجنون مثل جميل حيث يقول :

وَإنّي لَرَاضٍ منكِ يا بُثْنُ بالذي   لوَ ٱيقَنهُ الواشي لَقَرَّتْ بَلابِلُهْ

بِلا وبِأَنْ لا أَسْتَطِيعَ وبالمُنى   وبالوَعْدِ حتّى يَسأَمَ الوَعْدَ ماطِلُهْ

وبالنَّظْرَةِ ٱلْعَجْلَى وبالحَوْلِ تَنْقَضي   أواخِرُهُ لا نَلْتَقي وأَوائِلُهْ

« وجحدر حيث يقول :

أَلَيْسَ ٱللَّيْلُ يَجْمَعُ أُمَّ عَمْرٍو   وَإيّانا فَذَاكَ بِنا تَدَانِ

وَتَنْظُرُ لِلْهِلالِ كما أَرَاهُ   ويَعْلُوها ٱلنَّهارُ كما عَلاني

« والآخر حيث يقول :

أَلَى الطَّائِرِ النَّسْرِ انْظُرِي كُلَّ لَيْلَةٍ فَإِنِّي إِلَيهِ بِالعَشِيَّةِ ناظِر
عسى يَلْتَقِي طَرْفِي وطَرْفُكِ عِنْدَهُ فَنَشْكُو جَمِيعاً ما تُجِنُّ الضَّمَائِرُ

« وأبي العلاء المعري حيث يقول :

لاقاكِ في العامِ الذي وَلَّى ولَمْ يَسْأَلْكِ إلّا قُبلَةً في القابِلِ
إنَّ الْبَخِيلَ إذا تَمُدُّ لهُ المَدَى في الجُودِ هَانَ عَلَيهِ بَذْلُ النَّائِلِ »[1]

والصفدي لم يأت بهذه النماذج كلها لمجرد أنها في الغزل فحسب ، ولكنه أتى بها ليدلنا على المصدر الذي انتزع منه ابن الأثير ما ساقه في رسالته من معان مرصوفة ، بعد أن جرده من الإيجاز الموحي والمجاز المعبر .

كما كان من غاية الصفدي كذلك أن يترك لنا الفرصة للمقارنة وإدراك البون بين أداء الشاعر للمعنى ـ وقد نفخ فيه من شعوره وحرارة وجده ورشاقة عبارته ـ وبين استخدام ابن الأثير لهذا المعنى ، بعد أن حوله إلى جسد هامد وعبارات جافة .

وجدير بالذكر أن الصفدي في مختاراته ونقده خير منه في شعره . وقد يكون من أسباب ذلك ما ذكره ابن حجة[2] حيث قال فيه : « إن الشيخ صلاح الدين ـ سامحه الله ـ كان من المكثرين ، وكان هو والشيخ شهاب الدين بن أبي حجلة يرضيان لرغبتهما في الكثرة بالأشياء الرخيصة » .

وإني وإن رأيت الالتفات إلى هذا أشير فأقول بأن مثل هذا لا يغض البتة من منزلة الناقد ، إذ لا يشترط في ناقد الفن أن يحسن أداءه . علماً بأن عناصر الشاعرية لم تعزُب عن الأديب الصفدي مما لا مجال هنا للكلام فيه .

---

(١) نصرة الثائر ص ٢٤٧ وما بعدها
(٢) خزانة الأدب ص ٣٠٩

وهنا أجد من المناسب الاكتفاء بما عرضت دليلاً على غزارة ما زخرت بـه حافظة الصفدي ، من مختارات أدبية في القريض والنثر ، لأن وفرة هـذا المحفوظ تتبدى للقاصد في كل النصوص التي عرضتها وأتعرض اليها فيما يلي ، ليس تحت هذا العنوان فحسب ، بل في كل فصول الدراسة القائمة .

تواضعه :

إذا كان العُجب والكبْر مما أساء ابن الأثير ، ووصم الكثير من أقواله وآرائه بالهوى والانحياز إلى النفس إعجاباً بها ، ومجانبة الصواب في عدم استعداده الاصغاء الى غيره ، أو الالتفات إلى قوله أو الاعتراف له بحسن أو اجـــادة مع اقتباسه الدائم ، وادّعائه الكثير ؛ فإن الصفدي كان على النقيض من ذلك . وكان يعبر في كل مناسبة عن نفوره من التيه والعجب وثنائه على التواضع ، وأورد لذلك بعضاً من الأحاديث النبوية والقدسية ، كما استشهد بقول بعض الحكماء بأن « البلية التي لا يؤجر المرء عليها العجب ، والنعمة التي لا يحسد عليها التواضع . ومما قيل : لا شيء أكتم للمحاسن من التيه والعجب [1] » .

حتى إن الصفدي كان يعترف لخصمه بالفضل ، رغم الاختلاف المذهبي العميق الذي كان في ذلك الحين شيئاً كبيراً ، إذ يقول في ابن أبي الحديد وفلكه الدائر بتواضعه المعهود « على أنني بعد ابن أبي الحديد ، كمن جاء بعد اجتحاف سيل ، وأصبح بعد قاطف النهار حاطب ليل [2] » . هذا مع يقينه التام بأن ابن أبي الحديد بروحه الجدلية الثقيلة بعيد كلية عن رياض الشعر وتذوقه والانفعال به . وقد صرح

(١) نصرة الثائر ص ٤٤

(٢) المصدر السابق

بذلك حين قال فيه : « والمعتزلة فرسان المبحث ومن توفرت لهم الهمم على الجدل[1] » كما أشار الى هذا حين قال : « فلما وقفت على الفلك الدائر وجدته قد أغفل كثيراً وأخذ قليلاً وترك أثيراً [2] » .

ولم يكن القليل سوى ما غلب على الفلك الدائر من مسائل الفقه والنحو والمنطق ، كما كان هذا الأثير الذي عناه ؛ إنما هو مسائل الأدب والشعر وصوره وعناصره وأساليب أدائه فالشعر في نظر ابن أبي الحديد إنما « بني على الاجتداء والطلب [3] » وأن الشاعر « يرتب المقدمتين والنتيجة وقت نظمه [4] » ويعلق الصفدي على هذه الأقوال بهدوء بأنّ « مَن جهل شيئاً عاداه [5] » ، ومع كل هذا نرى الصفدي لا يتردد في تفضيل شرح ابن أبي الحديد على شرحه هو لبيت المتنبي :

يا بَدْرُ يا بَحْرُ يا غَمامَةُ يا لَيثَ الشَّرى يا حِمامُ يا رَجُلُ

بقوله : « على أن هذا التأويل ليس في قوة ما ذكره ابن أبي الحديد ولا في حسنه[6] »

وبلغ من تواضعه ، أنه قال مرة بعد أن أدرك الصواب في مناقشته مع ابن الأثير في ثقة العالِم « وما أظن بابن الأثير ـ رحمه الله ـ أنه جهل هذا ، ولكنها غفلة ليس إلا [7] » .

والحق إن صفة التواضع والمرونة لما يحمد في الناقد الأدبي ، فليس في

---

(١) نصرة الثائر ص ٥١
(٢) « « ص ٤٤
(٣) في المثل السائر ٤ / ٣٠٨
(٤) « « ٤ / ١٩٢
(٥) نصرة الثائر ص ١٨٧
(٦) « « ص ٢٨٨
(٧) « « ص ١٣٨

مسائل الأدب وتذوقه حدود قاسية ، وقواعد ثابتة ، وأحكام لا تقبل الرد ، فما أكثر ما تتغير الحقائق الأدبية التي يظن لها الخلود مع اكتشاف قول أو العثور على قصيدة أخفاها غبار السنين. كما أن في إصغاء الناقد لما يصل اليه غيره قد يوقفه على أمر طال فيه تردده. أو تفسير لحقيقة أدبية أدنى الى الصواب مما رأى .

تجرده الفني :

وتأتي صفة التجرد الفني عند الصفدي ملازمة لطبيعة التواضع الآنفة ، وتواضع المرء لا يسمح له بتنكب الصواب جرياً وراء الهوى وسعياً لفرضه ، هذا مع الاعتراف بتباين الأذواق ودورها في اختلاف الأحكام على النصوص ، وهذا لا ينفي القدر المشترك من الذوق العام من جهة ، ووجود عناصر ملموسة في النصوص . للعقل دوره في مناقشتها وتقويمها من جهة اخرى .

والأمثلة كثيرة على ما تمتع به الصفدي من نزاهة وتجرد في ممارسة النصوص والحكم فيها . من ذلك ما قاله عند حديثه عن المثل السائر بأنه « من الكتب التي خفقت له في الاشتهار عذبات أوراقه ، وسعى القلم في خدمته على رأسه إذا سعى الخادم على ساقه . واشتهر بين أهل الانشاء ، اشتهار الليل بالكتمان والنهار بالإفشاء ، لا بل اشتهار بني عـذرة في الحب بتحرق الأحشاء . وأولع به أهل الأدب في الآفاق ، ولع الكريم بالإنفاق ، لا بل ولع الرقباء بالعشاق (١) » .

وربما لا يكون النص السالف كافياً للدلالة على التجرد الفني ، لأنه إنما يتحدث عن كتاب اشتهر في عصره وخاصة بين الأوساط الأدبية ، وتصدر العقل للحكم

(١) نصرة الثائر ص ٤١

عليه مستفيداً من العناصر الحسية التي تؤلف الرأي في هذا الكتاب ، وليس من الضروري أن يكون المرء في هذه الحال ناقداً .

ومهما يكن من أمر فان رأي الصفدي هذا لا يخلو من دلالة ناصعة على بعده عن التعصب في أحكامه عامة .

فلا بد على أية حال من نص أدبي نختاره ، مما كتب ابن الأثير نفسه . من ذلك قوله في وصف كلام بالفصاحة « وإذا اختصر واصفه قال : إنه يستميل سمع الطروب ، ويستخف وقار القلوب . ويعلق الصفدي قائلاً « إذا كان يستميل سمع الطروب فما في هذا كبير مدح ، وذلك أن صيغة فعول مبالغة فيمن يطرب ، ولا يقال طروب إلا لمن يميل لأدنى لذة ، ويتحرك لأقل نغمة ، مثل أكـــول وشروب لكثير الأكل والشرب لما يمر به .

« وإذا كان الذي يميل إلى الطرب ويتكرر منه ذلك يطرب لهذا الكلام فما في هذا مزية توجب مدحه . ولهذا قيل : المستعد للشيء يكفيه أدنى سبب . وإنما المدح أن يقال : يستميل من لا يرتاح للطرب » .

الى هنا والصفدي كما ترى يفصل القول في بيان خطأ المعنى ، وسوء مدلوله في المديح ، فاذا انتقل مع ابن الأثير إلى العبارة الثانية ؛ سارع الرضا الى محياه فكأنما عثر على ضالته ، فعبر عن ذلك بقوله : « كما قال في الثانية (ويستخف وقار القلوب) فان هذا هو المدح المعهود » .

ولم يكتف برضاه عن العبارة فحسب ؛ بل دفعه طربه لها الى الاستمرار في الحديث عليها والدفاع عنها بقوله « فان قلت هذا يرد على البحتري في قوله :

مُستَميل سَمْعَ الطَّروبِ المُغَنَّى عن أَغانيِّ مَعْبَدٍ وعَقيدِ

قلت : هذا مما يؤيد ما قلته ، لأنه قال : يستميل سمع الطروب المغنى عن

سماع ألحان معبد وعقيد اللذين هما أصل الغناء ، وإذا كان يلفت من بهذه الصفة عن لذته الى سماعه كان ذلك مدحاً . فهو من باب يستخف الحليم ويصبي الناسك .

« وما خلص هذا للبحتري إلا بقوله عن أغاني معبد . ولو قال ابن الأثير يستميل الطروب عن أغانيه بفصاحته لما أوردت عليه هذا الايراد [1] » .

ولا أجد ضرورة للاستزادة من عرض النماذج ، إثباتاً لما عرف به الصفدي من بعد عن التعصب ، لأنه إذا كان على هذا المستوى السامي من النزاهة والتجرد ، وهو حيال نص لخصمه الذي وضع كتابه من أجله ، فما بالك حينما يعالج غيرها ، أعتقد جازما أنه لا يتغير ، لأن حاسته المميزة المتذوقة لا يتغير موقفها بتغير صاحب النص ، والنموذج المعروض أعلاه أوضح ما يمكن أن يستدل به على تجرد الصفدي الناقد ؛ لوجه الفن وحده .

منهجه في النقد :

لقد أدرك الصفدي أهمية النقد في الأدب وانتاجه ، وأدرك كذلك أن الذوق هو أول ، ما يجب توفره عند من يدخل هذا الميدان ، يلي ذلك بالضرورة الدراية والمران والرياضة ، حتى يغدو صاحب الذوق هذا قديراً في تعمق النصوص ، والوصول الى أغوارها ، وإدراك أسرارها ، مدفوعاً الى ذلك بميل لا يقاوم ، وهوى الى ممارسة النصوص لا يعوقه عائق .

وقد عبر الصفدي عن هذه الحقائق الأولية في خطبة كتابه بقوله « أحمده على نعمه التي أوضحت ما أبهم وألبس ، وأبدت نار الهدى التي لم تكن بسوى أنامل الذوق تقبس ، وراضت جواد الانتقاد الذي إذا أمّ غاية لم يثن عنانه ولم يحبس [2] » .

---

(١) نصرة الثائر ص ١٢٤ وما بعدها

(٢) » » ص ٤١

اعتماده النصوص والمقارنة بينها :

وقد قلنا في مناسبة مضت ، إن الصفدي قلما تحدث في النقد حديثاً نظرياً ، فروحه تأبى القواعد وتنفر منها ، وإنما يتحدث من خلال النصوص المختارة في المعنى الواحد أو الشعور المشترك ، فيجمعها على تباين عصورها ، ويقوم التمييز على المقارنة فيما بينها ، وهذا لعمري منهج رائع ؛ بل إنه المنهج الفني السليم في اكتناه النصوص وتذوقها وملاحظة خط التطور فيها من جهة ، وتقريبها الى أفهام الآخرين وأذواقهم ووضعها في محيط تجاربهم الاجتماعية والشعورية الخاصة من جهة أخرى .

وقد قام الصفدي بالتقديم لمنهجه هذا في أول كتابه كذلك ، فقال مشيراً إلى ابن الأثير « وإذا ناقشته في بحث أورده ، ونافسته في صالح أفسده ، لا أكاد أخلي ذلك الموطن من محاسن أرباب هذا الفن الذين عابهم ، وتردد الى مواقف ذمهم وانتابهم »[1] وقد قام فعلاً بتطبيق منهجه هذا تطبيقاً دقيقاً ، فلم يشذ فيه مرة واحدة ، والسبب في هذا ليس يقظته وحرصه على تحقيق ما وعد به لولا أن هذا المنهج يعيش في نفسه فطرياً طليقاً ، ولم يصل إليه بطريق العقل والقاعدة .

فالنصوص عنده هي التي تتحدث ، تتلاقى وتتجاور ، فيبرز الحسن من تلاقيها ، وسر الجمال من جوارها ، وسحر البيان من هذه المقارنة التي تقوم بينها ، من غير قصد اليها ، ولا عناء يتجشمه القارىء في ذلك .

وأكثر ما يسوء الصفدي ، أن يقرأ عند ابن الأثير تفنيداً وانتقاداً لاذعاً في منأى عن النص محور الكلام .

من ذلك استنكار ابن الأثير لعبارة وردت عند الكاتب ابن زيادة البغدادي ،

---

(١) نصرة الثائر ص ٤٦

دون أن يقرن حكمه بملاحظة وجود العبارة في نسيج النص . وسمع الصفدي بهذا فخف مسرعاً ليقول : « وأما قول ابن زيادة (وكل ما يستصلحه المولى على العبد حرام) فانه مناسب ، ولعله أتى به في صورة أحسن من هذه ، وجاء في أثناء كلامه مطبوعاً .

وينبه ابنَ الأثير إلى خطئه فيقول : ولم يذكر ابن الأثير ما أتى به (الكاتب) ليعلم حسنه من قبحه ، ولم يحضرني عند تعليق هذا الفصل كلام ابن زيادة ، ولعلي أظفر به فيما بعد فأثبته في الحاشية .

« وقفت على كلام ابن زيادة فيما بعـــد ، وكان ما ختم به فصل الانكار على اللقب .. »[1] .

وننتقل الى نص آخر للصفدي يتضح فيه ما فات ذكره ، كما نلمح من خلال ذلك روح كل من الأديبين الصفدي وابن الأثير ، ومنهجه في دراسة الأدب ومعالجة قضاياه . وهاك هو : « قال (ابن الأثير) في النوع الثامن من التشبيه :

« وقد قيل إن من شرط بلاغة التشبيه أن يشبه الشيء بما هو أكبر منه وأعظم ، ومن هنا غلط بعض كتاب أهل مصر ، في ذكر حصن من حصون الجبال مشبهاً له : « هامة عليها من الغمامة عمامة ، وأنملة خضبها الأصيل وكان الهلال لها قلامة » .

« ثم إنه أخذ يعيب هذا ويقول : أي مقدار للأنملة أن تشبه الحصن ! وأطال باعتراض وجواب ، أقول : إن ابن أبي الحديد ناقشه في ذلك وقد بقي شيء من مؤاخذته على هذا » .

وهنا لا يدخل معه الصفدي في جدال نظري ، ليثبت له خطأ ما قرره وقعّد له ؛ بل يسلمه لأرفع النصوص المناسبة فيقول : « فعلى هذا تبطل غلبة الفرع على الأصل في التشبيه ونخطىء مثل ذي الرمة في مثل قوله :

---

(١) نصرة الثائر ص ٧٧

ورَمْلٍ كأوْراكِ العَذارَى قَطعْتُهُ إذا أُلبِسَتْهُ المُظْلماتُ الحَنادِسُ

فانه شبه كثبان الرمل بما هو أقل منها وأحقر ، لأن أوراك العـذارى دون الكثبان .

« ولا نستحسن مثل قول أبي بكر محمد بن هاشم :

والمُشْتَري وسْطَ ٱلسَّماءِ تَخالُهُ وَسناهُ مثْلَ الزِئبَقِ المُتَرَجْرِجِ
مِسْمارَ تِبْرٍ أصْفَرٍ رَكَّبْتَـهُ في خاتَمٍ وٱلْفَصُّ مِن فَيْروزَجِ

فان كرة السماء والمشتري أكبر من الفص والمسمار .

« ومثل هذا كثير ؛ وكل ما كان في العالم العلوي لا يشبه بشيء من العالم الأرضي لأنه أحقر وأقل ، كما تشبه الثريا بالنرجس الذابل ، والهلال بالقلامة والنعل . والبرق بالسيف ، والشمس بالمرآة ، والنجوم بالسراج ، وقوس قزح بأذيال العروس . وجميع ما هو من هذا الباب لا يجوز تشبيهه ، وإن كان فلا يكون بليغاً على هذا التقرير ! وهيهات هذا سد لباب الحسن .

« وأما الحصون فقد شبهها الشعراء بالأنامل ، منهم الغزي حيث يقول :

سَـدَّ ٱلبَسيطَةَ نازِلاً من قُلَّةِ الـ جَبَلِ الأَشَمِّ إلى قَرارِ الوادي
حتّى غدا الحِصْنُ المُبارَكُ خِنْصَراً في خَـاتَـمٍ من بَهْمَـةٍ وَجوادِ

« وقد استعمل ابن الأثير ذلك فقـال في فصل تقدم : (فنزلنا منه بمرأى ومسمع ، واستدرنا به استدارة الخاتم بالإصبع) .

« وقول القاضي الفاضل يشبه قول ابن خفاجه :

في خَصْرِ غَـوْرٍ بالأَراكِ مُوَشَّحٍ أو رَأْسِ طَوْدٍ بالغَمامِ مُعَمَّمِ

« وقال كعب الأشقري يصف حصناً :

مُحلَّقَةٌ دونَ السَّماءِ كأنَّها غَمامَةُ صَيْفٍ زالَ عنها سَحابُها
فَلا يَبْلُغُ الأرْوَى شَمارِيخَها العُلا ولَا الطَّيْرُ إلاَّ نَسْرُها وعُقابُها
ولَا خُوِّفَتْ بالذئْبِ وِلدانُ أَهْلِها ولَا نَبَحَتْ إلاّ النُّجومَ كِلابُها

(وأورد للخالديين ولغيرهما في وصف القلاع ، ولم يهمل النماذج النثرية في هذا الباب)

« وقال أيضاً في ذلك :

وحَلْقاءُ قد تاهتْ على مَن يَرَوْنَها بمَرْقَبِها العالي ومَرْكَبِها الصَّعْبِ
يَزُرُّ عليها الجَوُّ جَيْبَ غَمامِهِ ويُلْبِسُها عِقداً بأَنْجُمِهِ الشُّهْبِ
إذا ما سَرَى بَرْقٌ بَدَتْ من خِلالِهِ كما لاحَتِ العَذْراءُ من خَلَلِ السُّحْبِ[1]

وبذا ترى أن الصفدي ينغمس في منهجه من حيث اعتماد النصوص الغزيرة ، لتقوم المقارنة على أوسع مدى ، فتتوسع نظرة المرء الى المعنى ، الذي يغنى في النفس وتتزاحم أحواله وتفصيلاته مما يسمح بوضع النص المدروس ، في مكانه الصحيح بين هذه النصوص الكثيرة ، السابقة منها واللاحقة .

ومن الملاحظ أن الصفدي لا يعلق بالضرورة على كل نص يورده ، فقد يذكر شيئاً أو يورد النص ثم ينتقل الى غيره ، تاركاً المجال رحباً أمام القارىء لينبه حواسه ، ويوقظ نفسه ، ويعمل فكره ، ويحكِّم بالتالي ذوقه .

(١) نصرة الثائر ص ٢٩٧ وما بعدها

ولا أجد بأساً من إيراد صورة أخرى من صـــور تطبيق الصفدي لمنهجه في النقد ، مما زخر به كتابه نصرة الثائر ، دالاً على أصالة هذا المنهج عنده ، حتى إن شطراً من الشعر أو جملة من النثر ، كافية لجعل النصوص في المعنى نفسه تنثال على لسان الصفدي ، الى أن يشعر أنه قد حقق الغاية وبلغ المطلوب .

اعادة المعاني الى مصادرها :

وألفت النظر هنا الى أن الصفدي ، سيضيف الى منهجه هذا مبدأ آخر يساير منهجه في اعتماد النصوص ، وذلك في اعادة معاني النص المدروس الى مظانها الأولى ، اشارة منه الى أن أدباء عصره لم يأتوا بجديد من حيث المعاني ولو ادعوا ذلك ، وإنما هى معاني السابقين من الشعراء ، نقلها المتأخرون الى النثر من جهة ، والى أغراض اخرى من جهة ثانية .

«قال (ابن الأثير) : ومن ذلك ما ذكرته في ذم الشيب فقلت :

والشيب إعدام لا يسار ، وظلم لا أنوار ، وهو الموت الأول الذي يُصلي ناراً من الهم أشد وقوداً من النار . ولئن قال قوم إنه جلالة فانهم دقوا به وماجلوا ، وأفتوا في وصفه بغير علم فضلوا وأضلوا ، وما أراه إلا محراثاً للعمر ولم تدخل آلة الحرث دار قوم إلا ذلوا ، ومن عجائب شأنه أنه المملول الذي لا يستطاع فراقه ، والخلق الذي يكره نزع برده ، ولما فُقد الشباب كان عنه عوضاً ولا عوض عنه في فقـــده .

» أقول : إنه أخذ بعد فراغه من هذا الفصل في الدندنة على العادة ، وأن المعنى الذي ابتدعه هو تشبيه الشيب بآلة الحرث .

» وقد شبه الناس الشيب بأشياء ، منها اشتعال النار ، وقد نطق القرآن العظيم به في قوله تعالى « واشتعل الرأس شيباً » .

« وقال الأرّجاني :

قد أَشْعَلَ الشَّيبُ رأسي للبِلى عَجِلاً ... والشَّمْعُ عندَ اشْتِعالِ الرَّاسِ يَنْسَبِكُ
فإنْ يكنْ راعَها من لَوْنِهِ يَقَقٌ ... فطالما راقَها من لونِهِ حَلَكُ

« ومنها تشبيهه بالصبح قال :

وقالوا انْتَبِهْ من رَقْدَةِ اللَّهْوِ والصِّبا ... فقد لاحَ صُبْحٌ في دُجاكَ عجيبُ
فقلت : أَخُلّاني دَعُوني ولَذَّتي ... فإنَّ الكَرَى عندَ الصَّباحِ يَطيبُ

« ومنها تشبيهه بالنجوم قال : . . .

« ومنها تشبيهه بالتبسم ، قال أبو تمام :

رأَتْ تَبَسُّمَهُ فاهْتاجَ هائِجُها ... وقالَ لاعِجُها للعَبْرةِ انْسَكِبي
فلا يُؤَرِّقْكِ إيماضُ القَتيرِ بِهِ ... فإنَّ ذاكَ ابتِسامُ الرَّأْيِ والأَدَبِ

« ومنها تشبيهه بالحبب ، قال . . .

« ومنها تشبيهه بالغبار ، قال ابن المعتز :

صَدَّتْ شُرَيْرُ وأَزْمَعَتْ هَجْري ... وصَغَتْ ضَمائِرُها إلى الغَدْرِ
قالَتْ كَبِرْتَ وشِبْتَ قُلتُ لها ... هَذا غُبارُ وقائِعِ الدَّهْرِ

« ومنها تشبيهه بالسيف ، قال :

أَنَا إنْ نَزَعْتُ عن الغِوايَةِ والصِّبا ... فَلَطالَما اسْتَهْوَتْنِيَ الآثامُ
أَصْبو وسَيْفُ للمَشيبِ مُجَرَّدٌ ... وقَفَتْ على رأْسِي بِهِ الأَيَّامُ

« ومنها تشبيه بالزهر ، قال الغزي :

تَأَلَّقَ الشَّيْبُ فاعتَذَرْتُ لهُ   وقُلْتُ نَوْرٌ بدا على قُضُبِهْ
كَأَنَّ ثغرَ الحبيبِ رُكِّبَ في   مَفارِقي فأَضَاءَ مِن شَنَبِهْ

« ومنها تشبيه بالبوم والقطاة ، كقول الشافعي رضي الله عنه في أبياته التي منها :

أيا بومَةً قد عَشَّشَتْ فوْقَ هامَتي   على الرُّغْمِ منّي حينَ طارَ غُرابُها

« وقال الغزي :

قَطاةٌ في الهِدايَةِ كانَ شَيْبي   وإنْ سَمَّتْهُ نُقْبَتُهُ غُرابا

« وشبه السّراج الوراق بالقرطم ، وإنما حسن ذلك لأنه رحمه الله كان أشقر فقال :

ذَهَبَ ٱلعُصْفُرُ منّي   وبَدَا قِرْطِمُ شَيْبي
والتي قد مَلَكَتْ رِقِّي   رَدَّتْني بِعَيْبي

« وقيل لأعرابي عن الشيب : ما هذا البياض الذي في رأسك ؟ فقال : زبدة مخضتها الأيام ، وفضة سبكتها التجارب .

« وما أحسن قول القاضي الفاضل رحمه الله :

إلَيْكَ بعدَ انْقِضاءِ اللَّهْوِ واللَّعِبِ   عَنّي فلَمْ أَرَ بي ما يَقْتَضي أَرَبي
والعُمْرُ كالكَأْسِ والأيَّامُ تَمْزُجُهُ   والشَّيْبُ فيه قَذًى في مَوْضِعِ الحَبَبِ

« وشُبه بأشياء مناسبة غير هذه ...

« ولم أر تشبيهه بآلة الحرث ، وأي مناسبة بين آلة الحرث والشيب ، وما وجه

الشبه وليس هذا من باب تشبيه المحسوس بالمحسوس ، ولا من باب المحسوس بالمعقول وما أدري ما هو ، وأما تشبيه الهرم بالحرث نفسه فجائز .

« وأما قوله : إعدام لا يسار فمأخوذ من قول المتنبي :

وقَدْ أَراني الشَّبابُ الرُّوحَ في بَدَني وقد أَراني المَشيبُ الرُّوحَ في بَدَلي

« وأما قوله : ظلام لا أنوار ، فمأخوذ من قول أبي تمام :

لهُ مَنْظَرٌ في ٱلْعَيْنِ أَبْيَضُ ناصِعٌ ولكِنَّهُ في ٱلْقَلْبِ أَسْوَدُ أَسْفَعُ

« وقول أبي الطيب :

إِبْعَدْ بَعِدْتَ بَياضاً لا بَياضَ لهُ لَأَنْتَ أَسْوَدُ في عَيْني من الظُلَمِ

« وما أحسن قول الغزي :

كَيفَ لا يَنْفِرُ الظِّبَاءُ من الشَّيْـ ـبِ ومِن عادةِ الظِّباءِ النُّفُورُ
أَبْيَضٌ مُظْلِمٌ وكُلُّ بَياضٍ في سِوَى العَيْنِ والمَفَارِقِ نُورُ

« وأما قوله (وهو الموت الأول) السجعة .

« قال محمود الوراق : الشيب إحدى الميتتين . وقال غيره : الشيب غمام قطر الغموم ، وأما قوله : (ولئن قال قوم إنه جلالة) السجعة ، فذكرت به قول بعض المتأخرين :

وقالوا شَبابُ المَرْءِ لَهْوٌ وغِرَّةٌ ومِنْ خَلْفِهِ شَيْبُ الوَقَارِ ولا رَيْبُ
وأَيُّ وَقَارٍ لامرِىءٍ عُرِّيَ ٱلصِّبا وقُدَّامُهُ شَيْبٌ ومن خَلْفِهِ شَيْبُ

« وأما قوله (وهو المملول الذي يُشفَق من بُعده) فمأخوذ من قول مسلم بن الوليد . وقول مسلم في غاية الحسن :

أَلشَّيْبُ كُرْهٌ وكُرْهٌ أن يُفارِقَني ... أَعْجِبْ بشَيْءٍ على البَغْضاءِ مَوْدُودُ

يَمْضي الشَّبابُ فيأْتي بَعْدَهُ بَدَلٌ ... وأَلشَّيْبُ يَذْهَبُ مفقُوداً بِمفقُودِ

« قيل : إن المنذر بن أبي سبرة نظر الى أبي الأسود الدؤلي وعليه قميص مرقوع . فقال له : ما أصبرك على هذا القميص ؟ فقال : رب مملول لا يستطاع فراقه ، فبعث اليه تختاً من ثياب .

« ونظر سليمان بن وهب في المرآة فرأى الشيب فقال : عيب لا عدمناه .

« وقد جاء في ترسل الفاضل ذكر الشيب فقال : فمن يطلع شرف السبعين يهبط الى الحضيض ، ومن يعمر العمر الطويل يقع في الطويل العريض ، وأيام المشيب كلها بيض ، وما نحن ممن يصوم الأيام البيض .

« وما ألطف قول ابن المعتز :

أيا نَفْسُ قد أَثْقَلْتِني بِذُنُوبي ... أيا نَفْسُ كُفّي عن هَواكِ وتُوبي

وكيفَ ٱلتَّصابي بعدأن ذَهَبَ الصِّبا ... وقد مَلَّ مِقْراضي عِتابَ مَشيبي

« وما أحلى قول (ابن خلكان) :

أَلا ياسارِياً في بَطْنِ قَفْـــرٍ ... لِيَقْطَعَ في الفَلا وَعْراً وَسَهْلا

قَطَعْتَ نَقى المَشيبِ وبِنْتَ عنهُ ... وما بَعْدَ ٱلنَّقـــا إلا المُصَلَّى

« ولبعض الشعراء :

ولمّا رَأَيْتُ ٱلشَّيْبَ داءً بِعارِضي ... تَيَقَّنْتُ أنَّ الوَصْلَ لي مِنْكِ واصِلُ

ربما يفهم من هذا البيت غير ما قصده الناظم ، فيتوهم أنه يظن أن الشيب سبب لوصاله وهو على خلاف المعهود من كلام الشعراء ، فإنهم ما زالوا يقولون : إن الشيب سبب نفار الغواني عن المحبين .

« وما أحسن قول خالد الكاتب في هذا :

لَمّا رَأَتْ شَيْباً أَلَمَّ بِمَفْرِقي ... صَدَّتْ صُدُودَ مُفَارِقٍ مُتَجَمِّلِ
وَجَعَلْتُ أَطْلُبُ وَصْلَها بِتَذَلُّلٍ ... والشَّيْبُ يَغْمِزُهَا بأَنْ لا تَفْعَلي

« والشاعر إنما أراد هذا المعنى المعهود ، فإن واصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة كان يلثغ في الراء لثغة قبيحة ، وكان يتجنب الراء في كلامه ، ولا تكاد تسمع منه كلمة فيها راء .. [1] » .

التعديل الفني :

كما يتخذ الصفدي في نقده مبدأ ثانياً ، يكاد يلازمه في كل ما يتعرض له من النصوص نثريها وشعريها ، ألا وهو اقتراح صياغة من عنده ، تطرب لها نفسه ، ويرضى بها ذوقه . فهذا ابن سناء الملك يقول متغزلاً :

لَهَا نَاظِرٌ يَاحَيْرَةَ الظَّبْيِ إِذْ رَنَا ... بِهِ كَحَلٌ نَادَاهُ يا خَجْلَةَ الكُحْلِ

ويعلق الصفدي بقوله : « لو كان لي في هذا البيت حكم لقلت : لها ناظر يا حيرة الظبي عنده ، وخلصت من إذ وعدم وضعها للمجازاة [2] » .

---

(١) نصرة الثائر ص ٢٣٣ وما بعدها

(٢) الغيث المسجم ٢٤٣/١

كما يعمد الى مثل هذا في نصوص النثر : « قال (ابن الأثير) وقد جاءني من التخلصات في الكلام المنثور أشياء كثيرة . فمن ذلك ما أوردته في كتاب الى بعض الاخوان أصف فيه الربيع ، ثم خرجت من ذلك الى ذكر الأشواق فقلت : وكما أن هذه الأوصاف في شأنها بديعة ، فكذلك شوقي في شأنه بديع ، غير أنه بجرّه فصل صيف وهذا فصل ربيع .

« أقول : قد أورد هذا الرجل من تخلصات الشعراء كأبي تمام وأبي الطيب والبحتري وغيرهم أمثلة ، وما تنبه للتخلص وحسنه . أترى مثل هذا يعد من التخلصات ! ولو كان قال : وشقيق شق كمامه ، ورفع أعلامه ، وملأ من المدام جامه ، وجلا خده الأحمر وفيه من السواد شامة ، وأوقد ناره فحكت جمر أشواقي وضرامه . لعد الناس هذا تخلصاً [1] » .

الاعتذار للاديب :

وختاماً للحديث في منهج الصفدي في النقد ؛ أشير الى مبدأ أخير اعتمده في دراسة الأدباء والحكم على قدرتهم الفنية ، ذلك هو الاعتذار للأديب إذا كبابه جواد البيان في بعض الأحيان .

من ذلك قوله في المتنبي ، بعد أن أورد ما استجاده من شعره وكلـه في الحكمة .

« فهذا يسير من كثير ، وقليل من غزير . ولكن هذا القدر كاف في الدلالة على ماله من الجيد . فانظر الى انحطاطه وارتفاعه . ولكن أين ارتفاعه ! ،

---

(١) نصرة الثائر ص ٣٦٣

« وهذان الرجلان قد سار ذكرهما وثبت أمرهما وأسكرت الألباب خمرهما .

وفي تَعَبٍ مَنْ يَحْسُدُ الشَّمْسَ ضَوْءَها ... وَيَزْعُمُ أَنْ يَأْتِي لها بِضَرِيبِ

« فالقاضي الفاضل رحمه الله انفرد بالترسل ، وانفرد المتنبي بالشعر مع مالهما من الانحطاط ولكن انحطاط المتنبي أوضع وأشنع .

« ولو أن الناس إذا رأوا جواداً بخل في وقت ، أو شجاعاً فر في وقت ، أو صانعاً ماهراً قصر في وقت ، يرمونهم بالعيب ويطعنون عليهم ولا يعدون لهم إحساناً ؛ لما كان في الوجود جواد ولا شجاع ولا صانع ماهر ولا خطيب بليغ ولا شاعر مجيد .

« وانما العبرة بالأغلب والأكثر ، والقليل معفو عنه ، لأن العصمة لا تشترط إلا للمرسلين صلوات الله عليهم وسلامه (١) » .

وقد كرر الصفدي هذا المعنى ، واعتمد الى هذا الأساس في تعليله لعجز الحريري عن تحبير كتاب في ديوان الإنشاء ببغداد . وختم كلامه بقوله :

وليْسَ يُعَابُ المَرْءُ في جُبْنِ يَومِهِ ... إذَا عُرِفَتْ منهُ ٱلشَّجَاعَةُ بالأَمْسِ

وهكذا رأينا كيف كان للصفدي في نقده منهج واضح ثابت ، تسايره مجموعة من المبادىء الفرعية . أما المنهج الأصيل الثابت الذي يسبقه الى كل نص يتعرض له بالدرس ، فهو اعتماد النصوص ، والمقارنة بينها ، دون أن يقيم وزنا لتقدم هذه النصوص الزمني وتأخرها .

---

(١) نصرة الثائر ص ١٧٦

وأما المبادىء الفرعية في منهجه ، فقد تحددت في إعادة معاني النص المدروس الى مواطنها الأولى ومصادرها الأساسية ، وفي إقدام الصفدي على اقتراح تعديلات من عنده على عبارة النص الذي يتصدى لدراسته ، لتتوفر لهذا النص عناصر الجودة المنشودة ، والتأثير المطلوب .

ثم كان من مبادىء هذا المنهج اعتذاره للأديب في مواطن إسفافه وانحطاطه ، إذا كان له في إنتاجه الرفيع ما يشفع له ؛ مما يدعونا الى التسامح في حالاته الأخرى .

★ ★ ★

الفصل الثالث

لُمع من آرائه

تأكد لنا في الفصلين الماضيين ، أن صلاح الدين الصفدي كان أهلاً لما مارسه من نشاط في النقد ، وذلك بشهادة معاصريه في الفصل الأول ، ثم بما نطقت به نصوص كتبه فى الفصل الثاني .

ويحق للناقد الصفدي بعد أن وصلنا به الى هذه المرحلة ، أن يحدثنا بشيء من آرائه في مختلف جوانب الأدب والفن وما يتصل بها .

اللفظة المفردة :

لقد كان تحقيق الجمال في الألفاظ من الغايات الأساسية في التعبير عند الصفدي ، إذ لا يكفي أن تكون الألفاظ مؤدية للمعنى ؛ بل لا بد من أن تكون سائغة في حد ذاتها ، فتوحي بالمعنى وتساعد على جلاته وتأثيره بأصدائها وأصوات حروفها ونبراتها ؛ إضافة الى معناها المعروف . والحق إن الصفدي يتمتع من هذه الناحية بحس لغوي دقيق ، بدا ذلك في ترداده هذا الأمر وغزارة نماذجه فيه .

ولكي تكون فكرتنا عن رأيه في اللفظة كاملة ؛ نعمد الى تحديد ما يتطلبه فيها ليتحقق لها الجمال وتنال رضاه وقبوله .

فأول شروطه : أن تتميز اللفظة بالسهولة ووضوح المعنى ، لتكون عذبة يلذها السمع فلا تحوج قارئها إلى التوقف عندها ، بغية معرفة معناها أو تحديده ، فتقطع على القارىء انفعاله ونشوته . من ذلك قوله بعد أن عرض لبيت الطغرائي :

مَجْدِي أخيراً وَمَجْدِي أَوَّلاً شَرَعٌ ... وَالشَّمْسُ رَأْدَ الضُّحَى كالشَّمْسِ في الطَّفَلِ

« وقد أخذ الطغرائي هذا المعنى ، من قول أبي العلاء المعري حيث قال :

وافَقْتَهُمْ في اختِلافِ من زَمَانِكُمُ ... والبَدْرُ في الوَهْنِ مِثْلُ البَدْرِ في السَحَرِ

« فهذا هذا خلا أن ذاك في الشمس وهذا في القمر ، ولكن قول المعري ألطف عبارة ، وأحسن اشارة ، لأن الطغرائي أغرب في لفظتي رأد والطفل ، وعذوبة الألفاظ أمر مهم في البلاغة [1] » .

وقد أكد الصفدي هذا الأمر في أكثر من موضع ، فقال يخاطب الأدباء :

مِيلُوا إلى سَهْلِ الكَلامِ فَإِنَّهُ ... مَنْ خافَ مَالَ إلى الطريقِ الأَوْعَرِ [2] »

ومن شروط اللفظة المقبولة لديه ، أن تكون شعرية لا تصدم الحس بمدلولها النابي ، بما ينفّر الطبع ، ويعكر على المتذوق لذته .

وقد رأينا كيف ازورّ عن بيت مهيار في الغزل :

في صَدْرِهَا حَجَرٌ وتَحْتَ صِدارِها ... مَـــاءٌ يَشِفُّ وبَانَةٌ تَتَعَطَّـــفُ

(١) الغيث المسجم ١/٥١ وما بعدها

(٢) تشنيف السمع ١٦

وقال : « في صدرها حجر من أبشع لفظة ، لما فيه من إيهام الدعاء[1] » .

وكذا عبر عن استيائه من بيت بشار متغزلاً :

وإذَا أَدْنَيْتَ منهـــا بَصَلاً غَلَبَ المِسْكُ على رِيحِ ٱلْبَصَلْ

بقوله « لكنه هجّن المعنى بذكر البصل[2] » .

وكذلك : يتوخى الصفدي في اللفظة حسن موقعها في الاذن ، وذلك يتأتى من انسجام حروفها ، وجمال مخارجها عند النطق بها ، مما يطرب السمع ويلذه .

من ذلك تعليله إفراد اليمين وجمع الشمائل في قوله تعالى « أو لم يروا الى ما خلق الله من شيء يتفيأوا ظلاله عن اليمين والشمائل » بقوله : « فان لفظة الشمائل أعذب في الجمع من الإفراد وأحلى ، والعرب من عادتها مراعاة خفة الألفاظ وعذوبتها ، مع عدم تناسب المعاني[3] » .

كما أنه لا علاقة للمعنى في نظره في جمال اللفظة ، فالذي يمنح اللفظـــة جمالها ، إنما هو عذوبتها من حيث تركيبها في انسجام حروفها ، وأصداء هذه الحروف عند نطقها والتصويت بها ، وسهولة مخارجها ، ثم في ايحاءاتها . وليس للمعنى في نظره أدنى علاقة في هذا الجمال زيادة أو نقصاً ، وقد عبر عن ذلك بقوله :

« ولو أن المعنى يؤثر في اللفظ عذوبة ، لكانت هركولة للمرأة المرتجة الأطراف والأرداف عذبة ، ولو أثر المعنى في اللفظ ركة ؛ لكانت لفظة سعير وحيف ثقيلة في السمع .

---

(١) الغيث المسجم ١ / ١١٥

(٢) نصرة الثائر ٢٢٨

(٣) « « ٣٦٤

ولما لم يكن العذوبة والثقالة يتعلقان بالمعنى ؛ علمنا أن المعنى لا عبرة له في الفصاحة [1] » .

ثم فرق بعد ذلك بين مدلول الفصاحة عند الأدباء وعند اللغويين فقال : « وأئمة اللغة إذا قالوا فصيح ما يريدون به العذوبة والحسن ولا بد ، وإنما يريدون به كثرة الاستعمال ، والعذوبة قد تجيء بعد ذلك ضمناً وتبعاً ، ولهذا تسمعهم يقولون : اللغة الفصحى في زئبق وزئبر الثوب ؛ الهمز دون التسهيل ، وإن كان أخف وأعذب من الهمز فالأفصح الهمز .

وكذا قولهم السمَع بتحريك الميم أفصح من السكون ، والحس يشهد بأن التسكين أخف وأحسن . فكل عذب فصيح ولا ينعكس [2] » .

وتتجلى دقة الحس اللغوي عند الصفدي بأروع مظاهرها ، في ادراكه القيم التعبيرية للحروف في اللفظة الواحدة ، وبالتالي في إحساسه بالجو الشعوري الذي تبثه اللفظة من حولها ، فيهتز لها ويحيا في ايحاءاتها وتصوراتها منفعلاً بها ، فيغمره الجزع أو الرضى ، النشوة أو الحزن ، متأثراً بالحالة الشعورية التي تضمها تلك اللفظة بين جوانحها ، وتطلقها مع أصداء حروفها وحركاتها .

وهذا نص للصفدي نلمس من خلاله ما ألمحت اليه ، يرد فيه على ابن الأثير الذي أورد بيت البحتري في وصف أيوان كسرى :

مَشْمَخِــــرٌ تعلُو له شُرُفَاتٌ رُفِعَتْ في رُؤوسِ رَضْوَى وقُدْسِ

ثم قال مدفوعاً بغرامه بالتقعيد « فان لفظة مشمخر لا يحسن استعمالها في

---

(١) نصرة الثائر ١٦٣

(٢) « « ١٦٤

الخطب والمكاتبات ، ولا بأس بها هاهنا في الشعر ، وقد وردت في خطب الشيخ الخطيب ابن نُباتة [١] ، كقوله في خطبته يذكر فيها أهوال يوم القيامة فقال : « اقمطرّ وبالها ، واشمخر نكالها ، فما طابت ولا ساغت [٢] » .

ورد الصفدي بقوله :

« إن الخطيب رحمه الله من البلغاء الفصحاء الذين يوردون الكلام موارده ، ويعطون كل كلام ما يستحقه ، لأن ذكر النار والقيامة أمر مهول ، ويحتاج الى ألفاظ مفخمة تهول السمع وتسيل الدمع ، وتقشعر لها الجلود ، وتنفطر لها الكبود ، ولا يليق بأوصاف النار غير هذه الألفاظ مثل : اقمطرّ واشمخرّ واسبطرّ وازبأرّ واقشعرّ وابذعرّ واطلخمّ وادلهمّ واقتحم واحتدم . كما أن أوصاف الجنة لها ألفاظ تخصها ، عذبة سهلة لذيذة الى السمع مثل : لان نسيمها ، ودام نعيمها ، ورف ظلها ، وراق زلالها ، وعذب تسنيمها .

« ألا ترى أن المديح له ألفاظ تخصه ، والهجاء له ألفاظ تخصه ، فيُذكر الرأس والفرق في المديح والدماغ والقذال في الهجاء . ووصْف أبي زبيد الطائي بحضرة الصحابة بمجلس عثمان رضي الله عنه ، مما يؤيد هذا الكلام . من جملة ذلك أنه قـال :

« لبلاغمه غطيط ، ولطرفه وميض ، ولأرساغه نقيض ، كأنما يخبط هشيماً أو يطأ صريماً ، وإذا هامة كالمجنّ ، وخد كالمسنّ ، وعينان سجروان كأنهما سراجان يقدان ، وقصرة ربلة ، ولهزمة رهلة ، وكتد مغبط ، وزور مفرط ، وعضد مفتول ، وساعد مجدول ، وكف شثنة البراثن الى مخالب كالمحاجن .

« فضرب بيده فأرهج ، وكشر فأفرج عن أنياب كالمعاول مصقولة غير مفلولة »

---

(١) ليس ابن نباته ، الشاعر المعروف .

(٢) المثل السائر ١ / ٢٨٣

وفم أُشدق كالغار الأُخرق ، ثم تمطى فأشرع بيديه ، ثم حفز وركه برجليه ، حتى صار طوله مثليه . ثم أقعى فاقشعر . ثم مثل فاكفهر ثم تجهم فازبأر ، فلا وذوبيته في السماء ما اتقيناه إلا بأول أخ لنا من فزارة ضخم الجزارة ، فوقصه ثم أقعصه ، ثم نفضه نفضة فقضقض متنه وبقر بطنه وجعل يلغ في دمه .

فذمَّرْتُ أصحابي فبعد لأي ما استقدموا ، فهجهجنا به فكر مقشعراً بزبرة كأنها شيهم حولي ، فاختلج من دوننا رجلاً أعجز ذا حوايا ، فنفضه نفضة تزايلت لها مفاصله . ثم نهم فقرقر ثم زفر فبربر ، ثم زأر فجرجر ثم لحظ فزمجر ، فوالله لخلت البرق يتطاير من تحت جفونه ، عن شماله ويمينه ، فأرعشت الأيدي ، واصطكت الأرجل ، وأطت الاضلاع ، وارتجت الأسماع ، ولحقت المتون ، وشخصت العيون ، وساءت الظنون ، واخزالت المتون . ثم تبهنس وحلق ، ثم حدق وحملق ، فاذا له عيناه سجراوان مثل وهج الشرر ، كأنما نقرا بالمناقير عن عرض حجر ، لونه ورد ، وزئيره رعد ، وجبهته عظيمه ، وهامته شتيمه ، إن استقبلته قلت أدرع ، وإن استدبرته قلت أفدع ، وإذا الليل اعرنكس تبغى وتحسس ، هوله شديد وشره عتيد ، فعيره بعيد ، متى قاسم ظلم ، ومتى بارز حطم ، ومتى نال غشم . ثم أنشد :

عَبُوسٌ شَمُوسٌ مُطْرَخِمٌّ مُكابِرٌ ... جَرِيءٌ على الأَعْدَاءِ لِلقِرْنِ قاهِرُ
بَرَاثِنُهُ شُثْنٌ وَعيناهُ في الدُّجى ... كَجَمْرِ غَضًا في وجْهِهِ الشَّرُّ طَائِرُ
يُدِلُّ بأَنْيابٍ حِدادٍ كأَنَّها ... إذا قَلَّصَ الأَشْدَاقَ عَنها خَناجِرُ

« قال الراوي : فحبق أحد الحاضرين ، فقال له عثمان رضي الله عنه : مه رض الله فاك ، فلقد رعبت المسلمين .

« فانظر الى هذه الألفاظ ومواقعها في النفس ، كأنها أسود تلتهم أو أساود

تلتقم . هل يحسن شيء منها أن يكون في وصف ظبي أو طاووس . كلا ، وقد عجبت منه (من ابن الأثير) كونه خفي مثل هذا عليه [1] » .

هكذا يدرك الصفدي قدرة الألفاظ على نقل الاحساس قبل المعنى ، وشحن الجو كله بالأصداء المعبرة التي تملأ النفس بما تحمله من الانفعالات والمشاعر .

ولم تكن هذه الاشارة لفتة طارئة عند الصفدي ، لقد كان يحس بمثل هذا كلما صادف ألفاظاً قد سمت الى مستوى الموقف الذي تعبر عنه . من ذلك قوله بعد أن أورد بيت الطغرائي :

وَدَعْ غِمَارَ العُلَا للمُقْدِمينَ على ... رُكُوبِها واقْتَنِعْ مِنْهُنَّ بالبَلَلِ

« لو كان لي في بيت الطغرائي حكم لقلت ؛ ودع غمار العلا للمقدمين على أخطارها أو أهوالها لأن المقام مقام تهويل ، وهذا اللفظ له مهابة في السمع بخلاف « ركوبها » . ألا تراه كيف استعار اللجة للمعالي ، لأن اللجة مخوفة قل من يقدم على هولها أو يركب ظهرها [2] » .

ثم أردف الصفدي قوله هذا بقصيدة سما فيها اللفظ الى مستوى المعركة الرهيبة التي خاضها بيبرس مقتحماً لجج الفرات المتدافقة جاء فيها :

لو عايَنَتْ عَيْنَاكَ يَومَ نِزالِنَا ... والخيلُ تَضْبَحُ في العَجاجِ الأَكْدَرِ
وسَنَا الأَسِنَّةِ والضِّياءُ من الظُّبَا ... كَشَفَا لِأَعْيُنِنا قَتَامَ العِثْيَرِ
وقدِ إطْلَخَمَّ الأَمْرُ واحْتَدَمَ الوَغَى ... وَوَهَى الجَبانُ وساءَ ظَنُّ المُجْتَرِي

(١) نصرة الثائر ١٣٩ وما بعدها
(٢) الغيث المسجم ٢/٣٩ - ٤٠

لرَأَيتَ سَدًّا من حـديدٍ مائِراً فوقَ الفُراتِ وفوقَه ناراً تُري
حتى سَبَقْنا أَسْهماً طاشتْ لنا مِنْهُمْ إليْنا بالخيولِ الضُمَّرِ
طَفَرتْ وقد مَنَعَ الفوارسُ مَدَّها تجري ولولا خيلُنا لم تطفَرِ
لم يَفْتَحوا للرمْي مِنْهُمْ أَعيُناً حتى كُحِلْنَ بِكلِّ لَدْنٍ أَسْمَرِ
ماكانَ أَجرَى خيلَنا في إثْرِهِمْ لو أَنَّها برؤوسِهِمْ لم تعثُرِ
فتسابَقوا هَرَباً ولكنْ ردَّهُمْ دُونَ الهَزيمَةِ رُمحُ كلِ غضنْفَرِ
كم قد فَلَقْنا صَخْرةً من صَرْخَةٍ ولَكَمْ مَلأنا مَحْجَراً من مِحْجَرِ

«فانظر الى هذه الألفاظ المفخمة ، التي أتى بها هذا الشاعر البليغ في وصف هذا المقام المهول [1] » .

ونكتفي بهذا القدر في بيان نظرة الصفدي الى الالفاظ ، وإحساسه بالقيم التعبيرية والموسيقية للحروف فيها ، لننتقل الى ما يراه في التركيب ، وهل الكم وحده هوالفارق بينه وبين اللفظة أم أن وراء هذا الحجم شيئاً آخر .

التركيب :

لقد أدرك الصفدي أن حسناً جديداً يضفى على التركيب ، لا يوجد في ألفاظه مفردة مهما كانت هذه الألفاظ في ذاتها حسنة ، ورأى أن هذا الحسن مما لا يمكن تحديده أو التعبير عنه ، وشبهه بالملاحة التي لا يعقل لها معنى ، وهذه الملاحة أو الطلاوة مما يناله تركيب دون آخر ، وهي شيء يختلف عن بيان المعنى . فكم من

(١) الغيث انسجم ٢/٣٩ - ٤٠

تركيب حاز كل شروط الاجادة ثم قـُدم عليه ما هو أدنى منه استيفاء لهذه الشروط . ورأى الصفدي أن هذا السحر في التركيب هو سر إعجاز القرآن الكريم . وهذا بعض ما توصل اليه عبد القاهر الجرجاني من نظرية النظم .

وهاك نصاً للصفدي يبسط فيه ما يراه في التركيب ، في معرض مناقشته ابن الأثير في بعض إنشائه . « قال ابن الأثير سامحه الله تعالى : نسأل الله أن يبلغ بنا من الحمد ما هو أهله ، وأن يعلّمنا من البيان ما تقتصر عنه مزية النطق وفضله » .

فيقول الصفدي . . .

« أما السجعة الثانية فما أدري معنى قوله (تقصر عنه مزية النطق) فأي شيء يعلمه حتى تقصر عنه مزية النطق !

إن أراد بذلك الأشياء التي تكون على تراكيب الألفاظ من الطلاوة والرونق ، فذلك غير البيان لأن البيان إيضاح المعاني وابداؤها واظهارها ، وذلك الذي أردته من الحسن واللطف اللذين يكونان في بعض الكلام . فذلك غير البيان ، وهو كالملاحة التي لا يعقل لها معني ولا يعبر عنه ، كما قيل :

شَيْءٌ به فُتِنَ الوَرَى غيرُ الذي ... يُدْعَى الجَمالُ ولستُ أدْرِي ماهُوَهْ

« ويقال : مع المحبوب شيء آخر غير حسنه هو الذي يشفع له الى القلوب . ألا ترى أن بعض الصور مفردات أعضائها نهاية في الحسن وليس لها ذلك المعنى الذي لغيرها ! وكذا قيل في الترياق إنه بعد التركيب يفيض الله عليه خاصة لم تكن في قوة أجزائه حالة الإفراد . والهيئة الاجتماعية لها معنى غير الحالة التي تكون لأفرادها . ولا شك أن لكلام الفصحاء في حالة التركيب خواص لا يمكن التعبير عن ذلك الحسن الموجود فيها .

« ولهذا أفتى الفقهاء في من بدل ترتيب الفاتحة ، وقلب بعض الآيات الى

موضع بعض ، أنه لا تصح صلاته لأنه يبطل إعجاز القرآن العظيم ، وهو سياقته على هذا النمط الغريب وتأليفه على هذا النظم العجيب [1] » .

ويكرور الصفدي هذا الاحساس بالحسن الذي يسمو به تركيب عن آخر دون سبب واضح في مكان آخر فيقول : « لأننا نجد في الكلام ما عري عن هذه الأشياء [2] وليس له طلاوة غيره ، وتلك الطلاوة غير معقولة المعنى ولا معلومة السبب .

وكَمْ في النَّاسِ من حَسَنٍ ولكِنْ   عليكَ مِنَ الوَرَى وَقَعَ اخْتِياري » [3]

ويذكرنا موقف الصفدي هنا حيال الجمـــال أو الملاحة بما ذكره ابن سلام في طبقاته . من ذلك قوله : فتوصف الجارية فيقال : ناصعة اللون ، جيدة الشطب ، نقية الثغر ، حسنة العين والأنف ، جيـــدة النهود ، ظريفة اللسان ، واردة الشعر ، فتكون في هذه الصفة بمائة دينار وبمائتي دينار ، وتكون أخرى بألف دينار وأكثر ؛ لا يجد واصفها مزيداً على هذه الصفة . يعرف ذلك العلماء عند المعاينة بلا صفة يُنتهى إليها ولا علم يوقف عليه [4] .

---

(١) نصرة الثائر ٥٥

(٢) يذكر الصفدي أن نصاً قد يحتوي شروط الاجادة الآتية كلها وإذا بغيره يعلوه ممن لم تتوفر له مثل هذه الشروط وذلك « إذا كان النظم والنثر خالياً من الألفـــاظ الحشوية ، والكلمات الغريبة المخارج ، أو الدالة على المعاني التي تنفر النفوس منها ، بريئاً من قلق التركيب ، غير محتاج الى تقدير ولا حذف ولا إضمار ، سالماً من الضرورة في الاعراب ، ووزن العروض منسجم النظم متمكن القوافي خفيفاً على القلب وروده ، سهلاً على النفوس استخراج معناه » .

« تشنيف السمع ١٧ »

(٣) المصدر السابق .

(٤) طبقات فحول الشعراء ص ٨

الموهبة :

لا يكتفي الصفدي هنا بالتصريح بأن الشعر لا يكون إلا للموهوبين ؛ بل ويؤكد أن نقد الشعر وجمعه واختياره يحتاج كذلك الى الموهبة ، كما يؤكد بأن هذه المواهب لا يمكن أن تحصل عن طريق التعلم ، وأن محاولة اتقانها بالتعلم لا تعود إلا بالمشقة الخائبة والمكابدة العقيمة .

فقد لاحظ الصفدي أن قرض الشعر غاية أخذ يسعى اليها كل أحد من متعلمي عصره ، حتى غدا تعلم العروض مرحلة يجب أن تتوج بالنظم من قبل هؤلاء ، فساء الصفدي واضرابه ما رأوه من سقم نظمهم وعقم محاولاتهم ؛ وكان منهم القضاة والفقهاء . فقال يخاطبهم مصرحاً بتواضعه المعهود .

« وقال قوم لا حاجة الى العروض لأن كل من نظم بالعروض شق ذلك عليه وأتى به متكلفاً ، ولا يتأتى له وزن البيت الواحد ، بل الكلمة الواحدة يدخلها الوزن وينظر في حركاتها وسكناتها ، وهل هي من سببين وفاصلة صغرى أولاً ، الى غير ذلك من التفصيل ؛ الا بعد مكابدة مشقة عظيمة .

« وإلى أن ينظم الناظم بالعروض بيتاً ، نظم صاحب الطبع السليم قصيدة ، وما أحسن قول أبي فراس بن حمدان :

تَنَاهضَ النَّاسُ للمعالي   لمَّا رأَوْا نحوَها نُهوضي

تَكَلَّفوا المَكْرُماتِ كَدّاً   تَكَلُّفَ النَّظْمِ بالعَرُوضِ»[1]

هكذا خاطب الصفدي هؤلاء ووصف حالهم بطريقة لا تخلو من السخرية ازاء ما كانوا يزاولون من العبث والهذر الفارغ في ميدان الشعر .

---

(١) الغيث ١/٣٠

ثم توجه الصفدي بخطابه نحو قوم آخرين لا يجهدون للنظم ، بل يجهدون في ميدان آخر لا يقل عقماً عن سابقه فقال :

« وكان شيخنا الامام العلامة تقي الدين بن دقيق العيد يقول : قل لعلماء المعاني والبيان والبديع : أتحسنون أن تقولوا مثل (أزورهم وسواد الليل يشفع لي . . البيت) ؟ فاذا قالوا لا ، قل لهم : فأي فائدة فيما تصنعونه . . » يريد بهذا أن العلم غير العمل ، والمباشرة دون الوصف ، والطعن في الهيجاء غير الطعن في الميدان [1] » .

كان هذا رأي الصفدي في الشاعر وما يجب توفره من الموهبة والطبع لديه . وقد أسلفت أن الصفدي اشترط في الناقد توفر الموهبة كذلك ، من لطف الذوق وصحة التمييز مما لا يتأتى حصوله عن طريق التعلم ، وأن سعة الاطلاع في ميدان الأدب تكون مثمرة بعد توفر الموهبة ، وعندها لا يعدو هذا الاطلاع أن يكون تدريباً لهذه الموهبة وصقلاً لها . وفي هذا يقول الصفدي .

« بل الذي يجمع ويختار ؛ يحتاج الى لطف ذوق وصحة تميز ؛ قبل العلم بالأدب ومعرفة البيان والمعاني والبديع ، ورواية الشعر عن دواوين الشعراء ، ومجاميع الأدباء ، وتواليف البلغاء ، ليكون ما يختاره يرشفه جريالاً ويعده سحراً حلالاً . .

« ولطف هذا الذوق الذي أشير اليه ، ليس مما يكتسب من أفواه الرجال ، ولا مما يؤخذ عن الأستاذ ، ولا مما ينبه عليه كبار المعلمين ، لأنه ما عند المعلم ما يقول غير أنه :

« إذا كان النظم والنثر خالياً من الالفاظ الحشوية ، والكلمات الغريبة ، أو قريبة المخارج ، أو الدالة على المعاني التي تنفر النفوس منها ، بريئاً من قلق التركيب ،

---

(١) الغيث ١ / ١٧٣

غير محتاج الى تقدير ولا حذف ولا إضمار ، سالماً من الضرورة في الاعراب ، ووزن العروض منسجم النظم متمكن القوافي ، خفيفاً على القلب وروده ، سهلاً على النفوس استخراج معناه .

« وهيهات لطف الذوق من وراء هذا كله . لأنا نجد في الكلام ما عري عن هذه الأشياء وليس له طلاوة غيره ، وتلك الطلاوة غير معقولة المعنى ولا معلومة السبب [1] » .

إذن فلا بد من توفر الموهبة ، ولا جدوى ألبتة من محاولة خلق هذا الاستعداد من عدم ؛ مهما اتقن المتعلم ما يُلقى اليه لتحقيق ذلك . . . .

وقد كشف الصفدي عن نقطة هامة تتعلق بالموهبة عموماً ، تلك هي وجوب تعهدها بالعناية والمران وعدم تقليصها بالاهمال ، وتجميدها بمزاولة الأعمال اليدوية . فكتب في ترجمة شيخه فتح الدين بن سيد الناس قوله :

« وكان سريع الكتابة ، كتب ختمة في جمعة ، وكان يكتب السيرة التي له في عشرين يوماً وهي مجلدان كبيران . وكان جيـــد الذهن يفهم به النكت العقلية ويسارع اليها ، ولكنه جمد ذهنه لاقتصاره على النقل [1] » .

ثقافة الاديب :

لا أرى بأساً في الحديث عن ثقافة الأديب من أن أعرض خلافاً لرأي الصفدي ؛ آراء كل من ابن الأثير وابن أبي الحديد ، فنتعرف الى اتجاهات الأدباء في هذا الموضوع آنذاك .

---

(١) تشنيف السمع ١٧

(٢) الوافي بالوفيات ١ / ٢٨٩

قال ابن الأثير « اعلم أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر الى آلات كثيرة ، وقد قيل : ينبغي للكاتب أن يتعلق بكل علم . .

« وعلى هذا فاذا ركّب الله تعالى في الانسان طبعاً قابلاً لهذا الفن ؛ فيفتقر حينئذ الى ثمانية أنواع من الآلات .

النوع الأول : معرفة علم العربية من النحو والتصريف .

النوع الثاني : معرفة ما يحتاج إليه من اللغة وهو المتداول المألوف استعماله في فصيح الكلام غير الوحشي الغريب ، ولا المستكره المعيب .

النوع الثالث : معرفة أمثال العرب وأيامهم ، ومعرفة الوقائع التي جاءت في حوداث خاصة بأقوام ، فان ذلك جرى مجرى الأمثال أيضاً .

النوع الرابع : الاطلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعة المنظومة منه والمنثورة ، والتحفظ للكثير منه .

النوع الخامس : معرفة الأحكام السلطانية : الإمامة والإمارة والقضاء والحسبه وغير ذلك.

النوع السادس : حفظ القرآن الكريم والتدرب باستعماله وإدراجه في مطاوي كلامه .

النوع السابع : حفظ ما يحتاج إليه من الأخبار الواردة عن النبي ﷺ ، والسلوك بها مسلك القران الكريم في الاستعمال .

النوع الثامن : وهو مختص بالناظم دون الناثر ـ وذلك علم العروض والقوافي الذي يقام به ميزان الشعر [1] » .

اذن فالشاعر والكاتب محتاجان في نظر ابن الأثير الى ثقافة واحدة عدا ما يتعلق بالعروض والقوافي .

وإذ التفتنا ناحية ابن أبي الحديد نسأله عن صحة ما قاله ابن الأثير في ثقافة الأديب أجاب بقوله :

---

(١) المثل السائر ١ / ٤٣

« هذا الكلام من أبّهات الكتّاب وتزويقاتهم ، ولا يعوّل عليه محصّل ، وهذه الفنون التي يذكرها الكتاب ويزعمون أن الكتابة مفتقرة إليها ؛ إن أرادوا بها ضرورتها لها فهذا باطل ، لأن سحبان وقسا وغيرهما من خطباء العرب ما كانت تعرفها ، وكذلك من كان في أول الاسلام من الخطباء كمعاوية وزياد وغيرهما .

وإن أرادوا أنها متممة ومكملة فهذا حق . ولكن عدمها لا يقتضي سلب اسم الكتابة ، مع أن كل ما يحتاج اليه الكاتب يحتاج اليه الشاعر وزيادة [1] » .

وواضح ما في قول ابن أبي الحديد هذا من المغالطة ومجانبة الصواب ، لأن الخطيب الذي يتحدث في أمور يعرفها بلغة تغلب عليها العاطفة لا يقرن بالكاتب ، فلو ضرب مثله بالشاعر لا بالخطيب لكان قد أصاب سواء المفصل ، لكن الشعر وقد تحول عند الاكثرين من غير الموهوبين في عصره الى نظم وعلم في شكله ومضمونه ، دفعه منطقياً الى القول بأن الشاعر يحتاج الى ثقافة الكاتب وزيادة !

بقي علينا أن نتجه صوب الصفدي لنسمعه يتحدث في هذا الموضوع مفرقاً بين الكاتب والشاعر بقوله :

أما الكاتب فيحتاج الى حفظ الكتاب العزيز وادمان تلاوته ، ليكون دائراً على لسانه جارياً على فكرته ممثلاً بين عيني ذاكرته لينفق من سعته ، والى معرفة اللغة والنحو وإدمان الإعراب ليلاً ونهاراً حتى يصير له ذلك ملكة جيدة ، والتصريف والمعاني والبيان والبديع والعروض والقافية ، والأحكام السلطانية وشيء من التفسير وشيء من الأحاديث . مثل كتاب الشهاب أو كتاب النجم الاقليشي والآثار المنقولة عن الصحابة رضوان الله عليهم ، وما دار بين الخلفاء الراشدين وعمالهم ، وما دار

---

(١) الفلك الدائر ٤٠/٤ - ٤١

بين علي ومعاوية رضي الله عنهما من المحاورات ، وتواقيع الخلفاء والوزراء والكتاب ، وأمثال العرب .

« وحفظ جانب جيد من شعر العرب والمخضرمين والمحدثين وفحول المتأخرين ، وحفظ جيد الحماسة ومختار المفضليات ، وبعض قصائد منتهى الطلب جمع ابن ميمون، وما أمكن من التاريخ وأسماء الرجال والحساب ، ومراجعات أمهات كتب الأدب مثل الأغاني والعقد والبيان والتبيين والذخيرة وزهر الآداب وأمالي القالي والكامل للمبرد وتذكرة ابن حمدون ، وحفظ جانب جيد من المقامات والخطب النباتية ، وبعض ديوان المتنبي وأبي تمام والبحتري وسقط الزند وغير ذلك : وقد اخترت أنا من شعر هؤلاء مجلدة لطيفة .

« والوقوف على ترسل الكتاب ومراعاة ما قصدوه في كل فن ، من التهاني والتعازي والفتوحات ووصايا تقاليدهم وتواقيعهم وأوامرهم ونواهيهم فيها ، وافتتاحات أدعيتهم في كل ما يتشعب من طرق الكتابة ، وكيفية البداءات والمراجعات في الهدايا والشفاعات والأوصاف وكتب الاخوان وما يجري هذا المجرى . وهذا باب لا يغلق له مصراع ولا ينعقد على حصره اجماع .

« وعلى الجملة ، فالكاتب يحتاج الى كل شيء ، ولولا أنه لا يلزمه تحقيق كل فن لقلت : إنه الذي يعرف الوجود على ما هو عليـــه . وهيهات . نعم الناس متفاوتون في ذلك وهم على طبقات ، فمنهم من تسنم الدرجات ، ومنهم من لا نهض من الدركات وما بين ذلك . ولا بد من المشاركة مهما أمكن ، ولو أنه معرفة المصطلح لكل صاحب فن .

« وإذا أكمل مواده أو قارب الاكمال ، فمعرفة مصطلح الديوان في المكاتبات من معرفة الألقاب والنعوت وما يجري هذا المجرى . فان هذا معرفته مع المباشرة

في أقل من جمعة يتصوره ويدربه . وهو مما لم تتقرر قاعدته ، لأنه يختلف باختلاف كل زمان وأهله . وهذا لا عبرة به فانه أسهل ما يعرفه [1] » .

هذا ما يرى الصفدي وجوب تحصيله من قبل الكاتب لتكتمل له أدوات الكتابة ، ولو شئنا ارجاع هذه المواد الى علومها لكانت كما يلي :

علوم اللغة والنحو ، علوم البلاغة والعروض ، الأحكام السلطانية ، العلوم الشرعية ، المراسلات بين الخلفاء وعمالهم ، تواقيع الخلفاء والوزراء ، نصوص الأدب العربي الشهيرة من شعر أو نثر ، أمهات كتب الأدب ، كتب تاريخية وتراجم ، علم الحساب ، ترسل الكتاب ، وأخيراً الاطلاع على تقاليد الديوان .

وجدير بالذكر أن الصفدي اختلف في تقرير ثقافة الأديب عن كل من ابن الأثير وابن أبي الحديد .

أما بن أبي الحديد فكلامه لا يستحق المناقشة لأن الخطأ فيه جلي وقد قلنا فيه في حينه ما يكفي » أما ابن الأثير فقد فضله الصفدي فيما يلي :

١ ـ أدرك أن الكاتب يحتاج الى هذه الثقافة دون الشاعر .

٢ ـ لا حدود عنده لثقافة الكاتب بل إنه الذي يعرف الوجود على ما هو عليه .

كما نلمح أخيراً روح الصفدي الأدبية الطليقة التي تأبى التقعيد ، إذ لم يقيد الكاتب بتقاليد الديوان القائمة لأن ذلك « يختلف باختلاف كل زمان وأهله » .

هذا ما يراه الصفدي للكاتب ، أما ما يتعلق بالشاعر فقد اكتفى بفصله عن شأن الكاتب لأن لكل ميدانه المختلف ، ولأن الحديث عن الشاعر سيمر في أكثر من موضع في كتابه ، مما كشفت عنه هذه الدراسة في مواضع شتى عند الحديث عن الموهبة أو العروض وغيرها .

---

(١) نصرة الثائر ص ٦٣ وما بعدها .

في النحو :

يؤكد الصفدي على ضرورة إتقان النحو وتعلمه ، لصيانة اللسان عن اللحن والخطأ ، حتى وصل في اندفاعه مع هذا الى الاشارة ؛ الى أن هناك من يعتقد بعدم استجابة الدعاء إذا لم يكن بلغة سليمة معربة . لا يشوبها لحن ولا خطأ .

وكم أثارته آراء لابن الأثير ، لمس فيها تساهلاً مريباً في أمر النحو والتقيد بقواعد الإعراب ، فقال في رده : « قال (ابن الأثير) وقد ذكر النحو : (اذا نظرنا الى ضروبه وأقسامه ، وجدنا أكثرها غير محتاج اليه في إفهام المعاني ، ألا ترى أنك لو أمرت رجلاً بالقيام فقلت : قوم باثبات الواو ولم تجزم ؛ لما اختل من فهم ذلك شيء ، وكذلك الشرط ضرورته وأقسامه المدونة ، لو قلت : إن تقوم أقوم ولم تجزم لكان المعنى مفهوماً . والفضلات كلها تجري هـذا المجرى ، كالحال والتمييز والاستثناء ..) .

قال الصفدي والدهشة من هذا لا تفارقه :

« ما يورد مثل هذا إلا عوامّ الناس ، ومن لم يتلبس بالمعرفة ، ولم يرح رائحة العلم ، ألم يعلم أنه إذا صدر عن مترسل كتاب لم يجزم أفعال أمره ولا شروطه وجوابها ، ولم يرفع فاعله وينصب فضلاته ، ولا راعى شيئاً من قواعد إعرابه التي هي ظاهرة ، ولا حافظ على شيء من الإعراب البتة ، كان ذلك ضحكة للمغفلين فضلاً عن العقلاء . وحينئذ فقد استوى العلماء والجهال !

« ألم يعلم أن بعضهم استدل على أن النحو فرض كفاية إن لم يقل أنه فرض عين ، وذهب بعضهم الى أن الله تعالى لا يقبل الدعاء اذا لم يكن معرباً . وقال الشيخ تقي الدين ابن الصلاح (أخشى على على تعاطى الحديث ولم يدر النحو ؛ أن يدخل في قوله ﷺ « من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ![1] ») .

---

(١) نصرة الثائر ص ٦٧ وما بعدها

ولكن ابن الأثير وهو يدرك أن في اللغة ما لا يمكن فهمه إلا معرباً فاستثنى ذلك من قاعدته بقوله « لكن قد خرج عن هذه الأمثلة ما لا يفهم إلا بقيود تقيده ، وإنما يقع ذلك في الذي تدل صيغته الواحدة على معان مختلفة . ولنضرب لذلك مثالاً يوضحه ، كقولك (ضرب زيد عمرو) ويكون زيد هو المضروب ، فإنك إذا لم تنصب زيداً وترفع عمراً وإلا لا يفهم ما أردت .. فوجب حينئذ بذلك معرفة النحو ؛ إذ كان ضابطاً لمعاني الكلام ، حافظاً لها من الاختلاف (١)». وبالرغم مما خرج به ابن الأثير في نهاية قوله ، بيد أن ما طلع به يبقى شيئاً كبيراً لا يحتمل ولا يسكت عنه ، إذ يشتم منه تسويغ لاستعمال العامية المتفشية بين الحكام على الأقل ؛ إن لم يكن بذور دعوة اليها .

ولكن الصفدي يلاحقه لينقض فكرته الجديدة هذه بالمنطق المتأني فيقول :

« إنه لا يتوصل الى معرفة الغامض إلا بعد معرفة الواضح ، ومن لم يعرف البيّن لم يعرف العويص ، لينتقل في التفهم من الأدنى الى الأعلى .

« قال الخليل بن احمد رحمه الله : لا يصل أحد من النحو الى ما يحتاج اليه إلا بتعلم ما لا يحتاج اليه .. وكل علم بهذه المثابة فيه الجلي والغامض ، كما في الفقه فإن مسائله الغامضة في الحيض والتيمم والفرايض وما في الجبر والمقابله .. وغير ذلك .. لا يتوصل الانسان الى معرفة هذه المسائل العويصة إلا بعد مقدمات يفهمها من المسائل الواضحة .

« وما رأيت من يورد مثل هذا غير العوام ومن يجهل هذا الفن (٢)» .

ويبدو أن فكرة عدم الحاجة الى إعراب الكلام كانت مختمرة عند ابن الأثير ،

---

(١) المثل السائر : حوفي وطبانة ١ / ٤٤

(٢) نصرة الثائر ٦٧ وما بعدها

فلم يكن يترك مناسبة لاثبات صحتها ، الى أن دخل بها أحد حصون العربية وهو الشعر ، فقال بعد أن ساق شيئاً من نظم أبي نواس وأبي تمام وأبي الطيب ولحنهم : « ولهذا لم يكن اللحن قادحاً في حسن الكلام » .

فصاح الصفدي قائلاً : « ما بقي بعد هذا إلا أن يقول : إن مراعاة الإعراب علة موجبة لقبح الكلام ، أتراه ما سمع بقولهم : النحو في الكلام كالملح في الطعام وقد ذهب بعضهم الى أن الإعراب إنما سمي إعراباً لأن « العُرُب في قوله تعالى » « عُرُباً أتراباً » هن المتحببات الى أزواجهن ، فكان من أعرب كلامــه تحبب الى مخاطبه . وأقول : معنى تحببه كونه ذكر أمارات تدل على معانيه ، فإنه إذا أراد التعجب قال : ما أحسن زيداً ، ولو ترك الإعراب وقال : ما أحسنْ زيدْ بسكون النون والدال لالتبس الفهم على المخاطب وبقي في حيرة ، هل هو مستفهم أو متعجب أو مخبر ! فلما نصب النون والدال علم أنه يتعجب ، وإذا قال ما أحسنُ زيدٍ برفع النون وكسر الدال علم أنه يستفهم . وإذا قال ما أحسنَ زيدٌ بنصب النون ورفع الدال علم أنه مخبر بنفي الاحسان عنه . وإذا أراح المتكلم من يخاطبه من الفكر والحيرة بالإعراب فقد تحبب اليه . .

« وأنا فما أنكر أن لطف التركيب وسهولة الكلام أمر آخر وراء النحو . هذا معلوم ، ولكن المشاحّة في تعسفه وتعنته [1] » .

هذا وإن الصفدي في دفاعه هذا ، ليدرك تماماً أن النحو ـ في أهميته البالغة في الإبانة وحسن الإفصاح ـ لا ينفصل عن الأدب في تعبيره عن الحالات الشعورية التي لا تحصى ، وأن الجهل بالنحو يورث الكاتب أو الشاعر ضعفاً في الأداء لا شك فيه ، وأن التعمق فيه والغوص على دوره في التعبير يطلع صاحبه على أسرار في

---

(١) نصرة الثائر ٦٨ وما بعدها

العربية وقدرتها التعبيرية لا حد لها . ونتلمس ذلك من رده بعد أن أورد لابن الأثير قوله « في النوع الخامس في توكيـــد الضميرين : ان قيل في هذا الموضع إن الضمائر مذكورة في كتب النحو فأي حاجة الى ذكرها هاهنا ، ولم نعلم أن النحاة لا يذكرون ما ذكرته ! قلت : إن هذا يختص بفصاحة وبلاغة ، وأولئك لا يتعرضون اليه ، وإنما يذكرون عدد الضمائر ، وأن المنفصل منها كذا ، والمتصل كذا ولا يتجاوزون ذلك . وأما أنا فاني أوردت في هذا النوع أمراً خارجاً عن الأمر النحوي » .

وينظر الصفدي الى أبعد من بعض حفاظ النحو ليقول : « إن نحو المتقدمين غالبه معان وبيان ، مثل الرماني وأبي علي الفارسي وابن جني على تأخر زمانهم ، وأكثر ما هو الآن مدون في علم المعاني مذكور في كتب القوم . ولكن لما أتى الإمام عبد القاهر الجرجاني جرد هذه النكت - التي ليست باعراب ولا بد - وجمعها ودونها وبوبها ورتبها ، صار علماً قائماً برأسه ، وتنبه الناس بعده كالسكاكي وغيره ، وتفتحت لهم الأبواب .

« ولهذا إن من لم يكن متمكناً من النحو لا يقدر على الكلام في هذا . ألا ترى الزمخشري لما كان عارفاً بالنحو تيسّر له في تفسيره ما لا تيسّر لغـــيره ، وباقتداره على الإعراب والنظر في أسرار العربية وتعليل أحكامها أورد تلك الإشكالات وأجاب عنها بتلك الأجوبة المرقصة ، وبالنحو استطال ومهر وتبحر - ودربة فنّي النظم والنثر هي التي نبهته لذلك .

« حتى إن الامام فخر الدين في تفسيره تراه إذا تكلم في سائر العلوم غـير مقلد لأحد ، فاذا جاء المعاني والبيان قلد الزمخشري في ذلك وقال : قال محمود الخوارزمي ، وقال صاحب الكشاف ،

« ولهذا قال العلماء : من نظر في الكشاف ولم يكن عارفاً بالعربية وأصول الدين ، صار معتزلياً [1] » .

ونخلص الى القول الى أن الصفدي في تمسكه باعراب الكلام ودفاعه عن مراعاة قواعد النحو ؛ كان أديباً بعيد الغور ، فلم يفعل ذلك دفاعاً عن قديم موروث أو تقليد للمرددين من حفاظ النحو ؛ بل فعل ذلك بروح الأديب العارف بأسرار العربية ، ودورِ النحو في منح القدرة على أداء المعاني المختلفة ، والتعبير عن حالات الأديب وخلجاته النفسية بألوانها المتعددة .

التقعيد للأدب :

تنطلق آراء الصفدي هنا من غرام ابن الأثير بالتقعيد الدقيق للأدب والكتابة فيه . فاذا ما أعجبه أمر في بيت من الشعر جعل ذلك قاعدة ، وحرم استعمالها في ميدان النثر مثلاً ، وإذا وصل الى طريقة ما في الكتابة النثرية جعلها قاعدة مطردة لا يجوز الخروج عنها .

والصفدي بروحه الأدبية الطليقة يدرك أن كل حالة أو مناسبة ستجد لها الطريقة التي تناسبها والعبارة التي تؤديها . ويستند في رده الى النصوص والشعرية منها في غالب الأحيان .

وهذه مجموعة من الأمثلة والنماذج للكشف عن هذه الناحية عند الرجلين ندرك منها روح كل منهما في هذا الميدان العلوي الرفيع .

« قال (ابن الأثير) في المعاظلة : القسم الخامس من المعاظلة أن ترد صفات متعددة على نحو واحد كقول أبي تمام : وأنشد له أبياتاً منها :

(١) نصرة الثائر ٢٨٠ وما بعدها

تامِكِه نَهْدِه مُداخَلِهِ مَلمومِهِ مُحْزَئلِّه أُجِدِهْ

ثم قال : وهذا البيت من المعاظلة التي قلع الأضراس دونها .

أقول : ليس ثقل البيت من تعدد الصفات وإنما هو من قوله : تامكه ومحزئله وليس في تعدد الصفات نفسها ثقل ولا معاظلة إذا وردت بألفاظ عذبة . كما تقول إذا وصفت قواماً : قويه أهيفه ناعمه لدنه ريانه . فان حذفت الهاء زاد حسناً .

ومثل ذلك قول القاضي شمس الدين أحمد بن خلكان :

قَسَماً بوَجهِك وهو بَدْرٌ طالعٌ وبليلِ طُرّتِكَ التي كالغَيْهَبِ
وبقامَةٍ لكِ كالقضيبِ رَكِبتُ في أخطارِها في الحبِّ أصعبَ مَركَبِ
وبطيبِ مبسَمِكِ الشَّهيِّ البارِدِ الْ عَذْبِ النّميرِ اللّؤلُؤيِّ الأَشْنَبِ »(1)

و « قال (ابن الأثير) في النوع الثامن في استعمال العام في النفي والخاص في الإثبات (وأما الصفات المتعددة ، فإنه ينبغي أن يبدأ في الذكر بالأدنى مرتبة ثم بعدها بما هو أعلى منها إلى أن ينتهي الى آخرها ، هذا في مقام المدح ، فإن كان في مقام الذم عكست القضية .. وقد أغفل كثير من الشعراء ذلك من جملتهم أبو الطيب حيث يقول :

فانه إذا فعل ذلك كان كالمرتفع من محل الى محل أعلى منه ، وإذا خالفه كان كالمنخفض من محل الى محل أدنى منه .

يا بدرُ يا بحـرُ يا غَمامَةُ يا لَيْثَ الشَّرَى يا حِمامُ يا رجلُ

---

(1) نصرة الثائر ١٦٩

« فأما قوله يا بدر فإنه اسم الممدوح والابتداء به أولى ، ثم يجب أن يقول بعده يا رجل يا ليث يا غمامة يا بحر يا حمام . لأن الليث أعظم من الرجل ، والغمامة أعظم من الليث ، والبحر أعظم من الغمامة ، والحمام أعظم من البحر .

« قلت : وللناس فيه تأويل آخر وهو أنه لا يلزمه الانتقال من الأدنى الى الأعلى فيا قصده ، لأنه أراد وصفه بالمدح الذي ادعاه فيه قبلُ وقال : يا بدر اسمه ، ثم قال يابحر ، فإن لم أصدق فيا أقوله فياغمامة ، فإن لم أصدق فياليث ، فإن لم أصدق فياحمام لأنك تعدم نفوس أعدائك الحياة ، فإن لم أصدق فيارجل جمع هذه الأوصاف التي ذكرتها [1] » .

فاذا كان ابن الأثير قد فرض هذه الحدود الصلبة للتعبير عن المشاعر فإن الصفدي قد جانبه التوفيق فلم يحسن الرد ، وإن كان رده في منطلقه يجول في ميدان الشعور والتعبير عنه بعيداً عن القواعد المسبقة .

فالمتنبي في مدحه يبدأ بذكر الممدوح فتحرك بذكر اسمه شعوره نحوه ، وتذكر أياديه وفضله فقال يابحر ، وغمره الشعور فقال بل ياغمامة . وتحرك اعجابه بممدوحه من حيث الشجاعة فوصفه بالليث ، ثم امتلأت نفسه بشجاعته فكان حماماً وهو في الحقيقة رجل ولكن أي رجل ..

ويمعن ابن الأثير في إقامة القواعد القاسية ، وبناء القوالب الأدبية الجامدة يصب فيها آثار الأدباء ، فما وافق القالب فهو حسن ، وإلا فهو مرفوض وشأن صاحبه عجيب .

فمن ذلك قوله « في النوع الثامن من التشبيه : (وقد وقيل ؛ إن من شرط بلاغة التشبيه ، أن تشبه الشيء بما هو أكبر منه وأعظم . ومن هنا غلط بعض

---

(١) نصرة الثائر ٢٨٦ وما بعدها

كتاب أهل مصر في ذكر حصن من حصون الجبال مشبهاً له : (هامة عليها من الغمامة عمامة ، وأنملة خضبها الأصيل وكان الهلال لها قلامة) . ثم أخذ يعيب هذا ويقول : أي مقدار للأنملة أن تشبه الحصن وأطال باعتراض وجواب » .

ويرد الصفدي هذا القول كعادته بنماذج من شعر الشعراء فيقول :

« فعلى هذا تبطل غلبة الفرع على الأصل في التشبيه ونخطىء مثل ذي الرمة في مثل قوله :

ورَمْلٍ كأَوْراكِ ٱلعَذارَى قَطَعْتُهُ إذا أُلْبِسَتْهُ المُظْلِماتُ الحَنادِسُ

« فإنه شبه كثبان الرمل بما هو أقل منها وأحقر ، لأن أوراك العذارى دون الكثبان . ولا نستحسن مثل قول أبي بكر محمد بن هاشم :

والمُشْتَري وَسْطَ ٱلسَّماءِ تَخالُهُ وَسَناهُ مثلُ الزئبق المُتَرَجْرِجِ
مِسْمارَ تِبْرٍ أَصْفرٍ رَكَّبْتَهُ في خاتَمٍ وٱلفَصُّ من فَيْروزَجِ

« فإن كرة السماء والمشتري أكبر من الفص والمسمار .

« وقول ابن خفاجه :

في خَصْرِ غَوْرٍ بالأَراكِ مُوَشَّحٍ أو رَأْسِ طَوْدٍ بالغَمامِ مُعَمَّمِ

« ومثل هذا كثير ، وكل ما كان في العالم العلوي لا يشبه بشيء من العالم الأرضي لأنه أحقر وأقل ، كما تشبه الثريا بالنرجس الذابل ، والهلال بالقلامة والنعل ، والبرق بالسيف ، والشمس بالمرآة ، والنجوم بالسراج ، وقوس قزح بأذيال العروس ، وجميع ما هو من هذا الباب لا يجوز تشبيهه وإن كان فلا يكون بليغاً ! وهيهات هذا سد لباب الحسن ..[1] » .

نعم إنه سد لباب الحسن ، وقطع لطريق الابتكار ، وتجميد للقرائح ، وتزييف للشعور ، وإزهاق للانفعال ، وتشجيع للتقليد . حتى يغدو الشعراء نسخاً مكرورة لا طعم فيها ولا لون ولا تأثير .. وهكذا كان .

---

(١) نصرة الثائر ٢٦٦ وما بعدها

الصنعة :

وعندما نصل إلى الصنعة في هذا العصر نرى أنها الهـواء الذي كان يتنفسه الأدباء آنذاك ، إذ دخلت أساليبهم مع الحروف والألفاظ بل وقبل هذه الحروف والألفاظ ؛ حتى غدا السجع في النثر نسيج هذا النثر ، وتغير اسم الجملة والعبارة والتركيب وأمسى اسم ذلك سجعة ، تتلهف لسماعها آذانهم وتطرب لها نفوسهم ، وتسابقت صنوف البديع إلى إنشائهم سعياً ، وتطلبوا متعة الحواس بكل سبيل ، حتى غدا القارىء ينتظر فيما يقرأ أو يسمع موطن الطرفة ، أو الكلمة محـــور التورية ، فتنفرج الشفاه ببسمة الرضى ، وتدخل المسرة إلى القلوب .

أما حال الشاعر فلم تكن تختلف عن حـال زميله الـكاتب ، فهو إن أتى بالشعر وليس فيه إلا التماسٌ لواحدٍ فقط من صنوف البديـع ، فلا مجال للفخر فيه ؛ ولا بأس في هذه الحالة ـ وكاهل شعره ينوء بهذه الأثقال ـ أن لا تزيد أبياته عـن اثنين فإذا تجاوزها فما أقوى أجنحته وما أروع قدرته .

وما دام الأمر كذلك فلمَ لا يكون كل المتعلمين شعراء ، إن البيتين والثلاثة أمرها يسير وكيف لا وهذا ميزان العروض قائم للجميـع ، وتلك تفعيلاته مبذولة بلا حساب ، وهاتيك ألفاظ اللغة مبثوثة في كل مكان ، ومعاني الشعراء في الدواوين ترتع بلا حراس ، وعيون النقد نائمة لا خوف من يقظتها لأن هذا التيـار الزاخر كفيل بجرفها في طياته .

إذن فلم لا يحمل كل متعلم لقب الشاعر فـيروي الناس ما يقول ، والأمر

ميسور كما رأيت إذ لن يكلفه سوى الجهد اللغوي في عملية قسر الألفاظ لتدخل قوالب العروض ، ثم العودة إليها بالنحت والتغيير ليتم لهذا الرصف ما يستحب فيه من أنواع البديع .

إذا كانت الحال الغالبة كما وصفت ؛ فإن مضمار القريض لم يكن يخلو من الموهوبين القادرين ، يجدون في أحداث العصر من حروب التتار والصليبيين متنفساً لنفوسهم الجياشة وبيانهم الواثق المتين . بيد أن هذا كله لم يكن ينسيهم ما يجب أن يكون ، من التماس أنواع الصنعة والبديع ، تحقيقاً للمتعة الحسية من ناحية ؛ وتأكيداً على قدرتهم البيانية من ناحية أخرى .

إذا كانت صورة الأدب في العصر كما أسلفنا ؛ فماذا كان موقف الصفدي من هذا التهافت على الصنعة ، والتسابق لتحقيق أكبر قدر من أشكالها فيما يقال من شعر أو نثر .

وقبل الاجابة عن هذا التساؤل أقول : إن الصفدي لم يكن بعيداً عن أدباء عصره . أي أن سعيه لتحقيق هذه الصنعة في صنوف البديع أو غيره ؛ لم يكن يقل عن سعيهم ، وكان يشعر في ذلك بمتعة أي متعة ، كما كان فخره واضحاً عندما يحقق في شعره أو في نثره أكثر من واحد من أشكال الصنعة . كقوله بعد أن عرض ما يزيد على خمسة عشر نموذجاً قصيراً من شعره . كان منها قوله :

يا سَاحِباً ذَيْلَ ٱلصِّبا في الهَوَى ... أَبْلَيْتَـــهُ في ٱلغَيِّ وهوَ القَشيبْ
فاغْسِلْ بدَمْعِ ٱلعَيْنِ ثَوْبَ ٱلتُّقَى ... وَنَقِّـهِ من قَبـلِ عَصْرِ المَشيبْ

فقال « إنني ما أثبتُّ هذه الأبيات لما فيها من اللزوم ولا بد ، فإن ذلك إنما جاء فيها ضمناً وتبعاً ، وإنما أثبتها لما فيها من التورية . وذلك ظاهر لمن تأمل مواضعها[١].

(١) نصرة الثائر ١٥٥

كما قال بعد إحدى رسائله : « وغالب ما أنشئه أنا إنما آتي به ملزوماً وخطبة هذا الكتاب ملزومة [1] » .

فهو يفخر إذن بقدرته على الجمع بين التوريه واللزوم في شعره ، وبين اللزوم والسجع في نثره .

وقد بدا ميل الصفدي إلى الجناس واضحاً قوياً فأحبه في نصوص الأدباء ، وأكثر من ذكره وتحقيقه في أدبه ، من ذلك قوله :

أَتَى مَحَلِّي أُنَاسٌ بِهِمْ يُحْكَى المَدِيحُ
زَارُوا وَزَانُوا وَزَادُوا هَذَا الجِنَاسُ المَلِيحُ

كما قال أيضاً :

للهِ قَوْمٌ حَمُوني من حادثَاتِ الليالي
صَانُوا وَصَابُوا وَصَالوا كَذَا جِنَاسُ المَعالي » [2]

وبالغ الصفدي في كلفه بالجناس والتعلق به ، فتوسع على يديه وكثرت فروعه وأنواعه حتى غدا فيه رأس مدرسة في عصره ، وألف في ذلك قائلاً : « وقد وضعت أنا في ذلك كتاباً وسميته (جنان الجناس) قسمت فيه الجناس إلى ما أمكن تقسيمه ، فجاء ما يقارب الستين قسماً ، فمن أراد تحرير التجنيس في أقسامه فليقف عليه هناك [3] » .

وليس معنى ذلك أن الصفدي كان كغيره يندفع مع هذا التيار بسطحية

---

(١) نصرة الثائر ١٥٧
(٢) الغيث المسجم ١ / ٤٥
(٣) نصرة الثائر ١٤٥

وسذاجة . فقد كان يدرك أن وجوه الصنعة هذه لا تعدو أن تكون حلية للمتعة الآنية ، وليست هي كل شيء في الأدب . ففي معرض حديثه عن الشاعر الطغرائي يقول : « وله مقاطيع شعر في الصنعة ، وله ديوان شعر على عادة الشعراء[1] » .

فتلك المقاطيع إذن مادة يصنعها وينمقها للتسلية والمتعة ، أما قصائد الديوان فصورة لحياة الشاعر بطموحها وأحداثها . بمشاعرها وأفكارها . فكأن تلك المقاطيع في الصنعة صورة للجانب السطحي الهازل من حياتهم ، والقصائد الأخرى تمثل الجانب الجاد الضارب في أعماق نفوسهم وأفكارهم .

ويعود الصفدي لتأكيد مثل هذا المعنى حين يسمو بالأدب عن مثل هذه الألاعيب فيقول « ومثل هذه الأشياء من اللغز والأحجية والأغاليط ، والإتيان بالكلمة المعجمة وبعدها المهملة ، وبالحرف المعجم وبعده المهمل ، أو صدر بيت كذا وعجزه كذا . . كل ذلك لائق بالمقامات أما في الترسل والخطب فإنه يكره ويستثقل لأن الترسل ليس المراد منه التفقه في الأدب ، وإنما هو إما لهناء أو شكر أو مدح أو وصف أو استعطاف أو عتب أو شوق أو غير ذلك ، ومثل هذه الأشياء لا يليق بها التكلف .

« على أنه وإن كانت هذه الأنواع في المقامات ؛ فينبغي أن يكون كاللمع اليسيرة ؛ فإنها إذا كثرت سمجت . ألا ترى أن العماد الكاتب ـ رحمه الله تعالى ـ لما جعل كلامه مشحوناً بالجناس لا تكاد كلمة تخلو من ذلك ثقل على الأسماع والقلوب[2] »

إذن فالأدب ميدانه الشعور ، والتكلف ممقوت حتى في المقامات .

نخرج من هذا الى أن الصفدي كان يفرق بين نوعين من الشعر :

---

(١) الغيث المسجم ١ / ٨

(٢) نصرة الثائر ٣٦٩ وما بعدها

أما الشعر الجاد الذي تضمه القصائد الطوال ، حيث تسيطر الفكرة ، ويغمر الشعور ، ولا تجرؤ صنوف الصنعة على الاقتراب منه إلا بمقدار ؛ فليس مجاله ما نحن فيه . لكن اهتمامنا الآن ينصب على المقاطيع التي احتضنت الصنعة وتحلت بها ، لنبين موقف الصفدي الناقد حيال هذه الظاهرة المتفشية فنقول :

إن مراعاة هذه اللذة الحسية في إعجاب الصفدي بالصنعة ، وسعيه لتحقيقها في بعض أدبه ، كانت تحددها وتحدوها شروط لا يتساهل الصفدي فيها ، ينتظمها الذوق والحس السليم ويشترك فيها جميعاً .

أولها ـ عدم الإخلال بالمعنى ، فهو لا يتردد في رفض أي وجه من وجوه الصنعة يؤدي الى المساس بالمعنى ، فالأثواب اللفظية المزركشة لا تغني عن معنى تقوم عليه وتنهض على أساسه . ولنستمع للصفدي يقول : « قال ابن الساعاتي :

ضَاهَى مُقَبَّلُهُ فريدَ عُقُودِهِ في مَنْعِهِ وضِيائه ونِظَامِهِ
أَبداً يُشَتِّتُ لَوْعَتي تَشْتِيتُهُ ويَزِيدُني ظَمَأً مَدارُ نِظَامِهِ

« أما قوله (أبداً يشتت لوعتي تشتيته) فإنه خطأ . لأن اللوعة إذا تشتتت تفرقت أجزاؤها وضعفت ، وليس هذا من شكوى المحبة في شيء . وكان الأليق أن يقول : أبداً يجمع لوعتي أو يضم صبابتي . ولكن الجناس أذهله [١] » .

ويقول الصفدي :

« قال (ابن الأثير) ووجدت لبعض الأدباء لغزاً في حمام . ثم إنه ذكره وقال بعد الفراغ منه : (وهذا من فصيح الألغاز ، ولا يقال في صاحبه إنه في العمي ضائع العكاز) .

« أقول : ما السجعة الثانية مناسبة للأولى في المديح والتقريظ ، وما كانت

---

(١) الغيث المسجم ١ / ٢٧١

السجعة تريد ألا أن يقول بعدها : ولا أنه في الحيوان معدود من البهائم لأنه انفرد بالنطق وامتاز . وما رأيت من قرظ أحداً بمثل هذا التقريظ ويكون المقام مقام إستحسان وثناء ومدح فيقال ما هو في العمي ضائع العكاز . وأي مدح في هـذا وقد جعله أعمى بعكاز ، وهو أشد حالاً من الأعمى الذي يمشي بلا عكاز ، لأن الذي يعتمد مع عماه على عكازه يكون قد جمع بين عمى البصيرة وعمى البصر .

« والظاهر أنه أراد أن يذكر المعمى فما اتفق له ، والتزم بالزاي فما وجد غير العكاز [1] » .

وقال الصفدي في نقد عبارة لابن الأثير في وصف كتاب بأنه « فوق الكلام المُجيد ودون القرآن المَجيد » بقوله بعد مناقشة طويلة : « ما ضاق المجال عليه ولا حصره ضيق المقام الى هذا حتى يحتاج الى أن يأتي بما يحترز فيه ، وما أوقعه في ذلك إلا لفظة (المجيد والمجيد) وطلب الجناس [2] » .

أما الشرط الثاني : فهو مقابل لما سلف ومتمم له ، وهو أن الصفدي يقبل بالصنعة بل ويقترحها وذلك إذا خدمت المعنى وانسجمت معه . يقول في ذلك « قال شهاب الدين التلعفري :

وإذا الثَّنِيَّةُ أَشْرَفَتْ وَشَمِمْتَ من ... نَفَسِ الحِمَى أَرَجاً كَنَشْرِ عَبيرِ
سَلْ هَضْبَها المَنْصُوبَ أَيْنَ حَديثُها الـ ... ـمَرفُوعُ عن ذيلِ الصَّبا المَجْرُورِ

« وهذا غاية الحسن من الصناعة ، فإنه أتى بالمنصوب في المنصوب ، وبالمرفوع في المرفوع ، وبالمجرور في المجرور . وله بيتان آخران في هذا المعنى ولكن هذا أحسن وأكمل [3] » .

---

(١) نصرة الثائر ص ٣٤٢
(٢) « « ١٢٣
(٣) « « ٣٢٧

كما يعلق على بيت المتنبي :

أَزُورُهُمْ وَسَوادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لي ... وَأَنْثَني وَبَياضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بي

بقوله : « هو معدود في المحاسن التي انفرد بهـا أبو الطيب ، لما فيه من مقابلة خمسة بخمسة ولم يتفق هذا العدد لغيره [(١)] ».

كما يورد للفاضل قوله في تقريظ قصيدة :

« وعجبت لاطّراد تلك القوافي ، ورأيت الشعراء أتت بما ألفت في ضيـّق الأودية وخاطره وقامه أتيا بما ألفيافي الفيافي . .

« قلت : وعلى ذكر الفيافي في قول الفاضل وما ركّبه في هذه السجعة من الجناس المليح ؛ فكنت كتبت الى شيخنا الحافظ فتح الدين محمد بن سيد الناس أبياتاً ، وأجابني عنها بنظم ونثر . من جملة النثر « بل ذلك السحر الحلال الشافي ، بل تلك القوى في القوافي ، بل تلك المقاصد التي اقصدت المُنا في المنافي « فكتبت الجواب اليه . ومنه :

« وعكف منه على كعبة البلاغة فيإحسن مـا نشر في استلامي وطوى في طوافي ، وأراد طائر القلب أن ينهض بالجواب فذهبت القوى من القوادم وظهر الخوى في الخوافي [(٢)] ».

وقال شرف الدين الحلاوي :

وَبَدَتْ نَظَائِرُ ثَغْرِهِ في قُرْطِهِ ... فَتَشابَها مُتَخالِفَيْنِ فَأَشْكَلا
فَرَأَيْتُ تَحْتَ ٱلْبَدْرِ سالِفَةَ الطَّلا ... وَرَأَيْتُ فَوقَ ٱلدُّرِّ مُسْكِرَةَ ٱلطِّلا

---

(١) نصرة الثائر ص ١٣٥

(٢) « « ١٣٢ وما بعدها

« قلت : لو اتفق له أن يقول (سُلافة الطِّلا) لكان أحسن . ولكن هذا من الجناس المعنوي ، لأنه أراد ذلك فلم يساعده الوزن ، فعدل الى ما يراد في ذلك المعنى .

وهذا النوع استدركه المتأخرون وهو عندي باطل ، لأن هذا الباب إذا فتحناه كان غالب الشعر جناساً معنوياً . وقد أشبعت القول على هذا في مكانه من كتابي المسمى « جنان الجناس [1] » .

ومما يوضح انشغاله بأمر المعنى رغم التفاته نحو إتمام الصنعة ؛ فيوائم بين الأمرين قوله : في مناقشة قول ابن الأثير في خطبة كتابه « وعلى آله وصحبه الذين منهم من سبق وبدر ، ومنهم من صابر وصبر ، ومنهم من آوى ونصر » .

فقال الصفدي : « لو قال : ومنهم من هاجر ونصر لكان أحسن من وجهين : أحدهما أنه حصل له الموازنة والترصيع بين هاجر وصابر . وثانيها أنه يتناول المهاجرين والأنصار من الصحابة رضوان الله عليهم ، فإنهم مقدمون على الأنصار . وعلى قوله ، لا ذكر للمهاجرين فإن من الانصار من سبق غيره الى الإيمان [2] » .

فقوله هنا يعطى أصدق صورة عن الصفدي الذي يتذوق الصنعة ويطرب لها مع المحافظة على سلامة المعنى واغنائه ، وإلا فإنه يرفض وجه الصنعة هذا ، ويسدد إليه أشد سهام النفور والاستنكار كما رأينا .

ويأتي **الشرط الثالث** لتحظى الصنعة برضى الصفدي هو عدم التكلف في إيرادها ، حتى إذا كان الموضوع في حد ذاته متكلفاً ؛ فإن موهبة الشاعر القدير تضفي على النص من السهولة والانسجام ما يجعله يحظي بالرضى وحسن القبول وفي ذلك يقول الصفدي :

---

(١) الغيث المسجم ١/١٧٤
(٢) نصرة الثائر ص ٥٥

«وقد يكون الشاعر مجيداً فيأتي بنوع من التكلف وليس عليه أثر الكلفة، كقول ابن حمديس :

مُزَرْفَنُ الصُّدْغِ يَسْطو لَحْظُهُ عَبَثَا ... بالخَلْقِ جَذْلانَ إنْ أشْكُ الهوى ضَحِكا
لا تَعْرِضَنَّ لِوَرْدٍ فوقَ وَجْنَتِهِ ... فإنَّما نَصَبَتْهُ عَيْنُهُ شَرَكا

فالأول يجمع حروف المعجم كلها على عدم تبين الكلفة عليه [1]».

ويؤكد الصفدي على هذه الناحية، ويزيد الأمر وضوحاً بقوله :

«والجناس إذا كثر في الكلام مُل، اللهم إلا أن يكون سهل التركيب ليس على المتكلم فيه كلفة . كما حكي عن بعض جواري المعتمد بن عباد أنها قالت له وهما في سجن أغمات : يا مولاي لقد هُنّا هُنا . فقال المعتمد :

قالَتْ لقدْ هُنّا هُنـا ... مولايَ أَيْنَ جاهُنا
قُلْتُ لها إلهُنـا ... صَيَّرَنَا إلى هُنا» [2]

والشرط الرابع : لتفوز الصنعة برضى الصفدي عنها هي ؛ ألا تكثر حتى تحجب المعنى وتثقل كاهل النص . إذ ما أشد ما تنفر نفس الصفدي من النص إذا أرهقته صنوف البديع، وبدا عليه لهاث الكد والمشقة . وفي ذلك يقول :

«الجناس وإن كان من أنواع البديع ؛ لكن بعض صوره مستثقل، كقول ابن الفارض من قصيدة :

أَما لَكَ عن صَدٍّ أَما لَكَ عن صَدِ ... لِظَلْمِكَ ظُلْماً منكَ مَيْلٌ لِعَطْفَةِ
فَرُحْنَ بحُزْنٍ جازعاتٍ بُعَيْدَما ... فَرِحْنَ بحَزْنِ الجَزْعِ بي لِشَبيبتي

(١) نصرة الثائر ص ٣٧٠
(٢) الغيث المسجم ٢/٣٧

« فانظر الى استثقال البيت الأول لما فيه من جناس التحريف في صد وصد . الأول من الصدود والثاني صدٍ أي عطشان . وفي ظَلم وظُلم . الأول الظَلم بالفتح وهو الريق والثاني بالضم وهو الجور ، مع التقديم والتاخير الذي يحتاج الى اقليدس حتى يستخرج ترتيبه على خط مستقيم .

« والتقدير فيه : أمالك ميل لعطفة عن صد أمالك ظلماً منك عن صد لظلمك . فأمالك الأول مركبة من همزة الاستفهام وما النافية ولام الجر وكاف الخطاب ، وأمالك الثانية مركبة من فعل ماض من الإمالة وكاف الخطاب .

« وأما البيت الثاني ففيه فرحن مرتين . الأولى : الفاء للعطف ورحن فعل ماض من الرواح لجماعة الإناث ، والثانية فعل ماض من الفرح لجماعة الإناث أيضاً والراء في الأولى مضمومة وفي الثانية مكسورة . وفيه الحزن مرتين ، الأولى بضم الحاء ضد الفرح ، والثانية بفتح الحاء من الأرض ضد السهل .

« ولهذه الألفاظ التي عقدها عقد الميزان لأجل الجناس ، صار كلامه وحشياً من العوام ، بل من بعض الخواص الذين لم يتمهروا في الأدب . وهذه الأشياء لا يخفى على ذي الذوق السليم ما فيها من الاستثقال .

« ولم أقل هذا الكلام جهلاً بمقدار الشيخ شرف الدين بن الفارض رحمه الله ، وأنه لم يكن من الفصحاء ، ألا ترى قصائده التي أخلاها من الجناس مثل الميميتين والجيمية واللامية والمهموزة وغيرها فما أرقها وأحلاها (١) » .

هذا هو موقف الصفدي الناقد حيال الصنعة التي تفشت في عصره ، فهو وإن أقبل عليها مراعياً إمتاع الحواس ، فإنه لم يكن يغفل عن الغاية الأولى من كل نص

---

(١) الغيث ٢ / ٣٧

أدبي وهو المعنى والشعور ، فكان حسن الأداء للمعنى ، وقوة التعبير عن الشعور هو المقياس الذي يحكم به للصنعة بالحسن ؛ أو عليها بالكلفة والإخفاق .

التخيل وابداع المعاني :

إن الحديث في التخيل والإبداع لما يلفت النظر ؛ في عصر وجد في التقليد والأخذ عن السابقين في حل المنظوم وغيره أمراً مألوفاً ، بل هو لازم مفروض يدعو إليه المعلمون والنقاد ويلحون ، بما لا حاجة معه البتة للتفكير في تخيل أو إبداع . بيد أن الصفدي تكلم في هذا ، وبحث في نشأة الصور ودور كلٍ من النفس والحواس في ذلك .

ويبدأ الصفدي حديثه مشيراً الى أثر غنى التراث الأدبي ، وامتداد الزمن ، في تداول المعاني والصور وقلة الإبداع فيها فيقول :

« وأعلم أن للشعراء ألفاظاً صارت بينهم حقائق عرفية وإن كانت في الأصل مجازاً ، لكثرة دورانها في كلامهم وتعاطيهم استعمالها ، لأنهم ألفوا ذلك من تداولها وتكرارها على مسامعهم .

« من ذلك الغصن إذا أطلقوه فهم منه القوام ، والكثيب إذا أطلقوه فهم منه الردف ، والورد إذا أطلقوه فهم منه الوجنة ، والأقاح إذا أطلقوه فهم منه الثغر ، والراح إذا أطلقوه فهم منه الريق ، والنرجس إذا أطلقوه فهم منه العيون ؛ وكذلك السيف والسهم والسحر ، وإذا أطلقوا الآس أو البنفسج أو الريحان فهم منه العذار .

« فكل هذه الأشياء انتقلت عن وضعها الأصلي وصارت حقائق عرفية ، نقلها

الاصطلاح الى هذه الأشياء [1] » .

وبذلك يدخل الصفدي في موضوع من أكثر شئون الأدب حساسية ودقة ، فلنسر معه حتى النهاية لنرى المدى الذي يصل إليه في معالجة هذا الأمر ، الذي تفاقمت خطورته في عصر الصفدي على وجه الخصوص .

فهو في نصه السابق لم يتوقف حيث كان ؛ بل تابع قوله ليعرض علينا نماذج شعرية يؤكد به ما ذكره ، ملمحاً بهذه النماذج الى أن ظاهرة التداول والتقليد هذه لم تبدأ من عصره ؛ وإنما كانت في أزهى عصور الأدب ، وعلى لسان أبرع شعرائه فيقول :

« قال أبو نواس :

يا قمراً أبصرتُ في مأتمٍ ... يندبُ شجْواً بينَ أتْرابِ
يبْكي فيُذري الدُرّ من نرْجسٍ ... ويَلْطُمُ الوَرْدَ بعُنّابِ

« وقال ابن المعتز فيما أظن :

ومُهفْهَفٍ ألْحاظُه وعِذارُه ... يَتعاضَدانِ على قِتالِ النّاسِ
سَفَكَ الدِّماءَ بصارِمٍ من نرْجسٍ ... كانَتْ حمائِلُ غِمْدِهِ من آسِ

« وقال ابن إسرائيل :

وأسْمَرَ عَسْجَديِّ اللَّوْنِ تَحْكي ... مَعاطفُ قَدِّهِ سُمْرَ العَوالي
يُديرُ على الشَّقيقِ عِذارَ آسٍ ... ويَبْسُمُ بالعَقيقِ عنِ اللآلي

(١) الغيث ١ / ٢٦٦

« قلت : لو قال لثام آس لكان أصنع وأحسن .

« وقال الجلال الصفار :

ما بَرِحَتْ يومَ وَداعي لهـــا   تَضُمُّني ضَمَّـــةَ مُسْتَأنِسِ
حَتَّى تَثَنَّى الْغُصنُ فَوقَ النَّقَـا   وانْتَـثَرَ الطَّـلُّ على النَّرْجِسِ » (١)

وهكذا يكشف لنا الصفدي كيف تتداول الصور بعباراتها المجازية عبر العصور، حتى تغدو قوالب جافة ، لا تعكس انفعالاً ولا تطلق خيالاً ولا توحي بشعور . بيد أن الصفدي حتى الآن لم يضع يده على السبب الأهم في انعدام الإبداع ؛ وهم الشعراء أنفسهم ، بل اكتفى بإرجاع ذلك الى غنى التركة الأدبية وتطاول الزمن عليها .

ونتوغل مع الصفدي في هذا البحث خطوة أخرى ؛ ليحدثنا حديثاً مبدئياً عن المعاني والصور وكيف يقتنصها أصحابها ، وذلك من خلال مناقشته لابن الأثير الذي قال في هذا :

« ومما يعين على استخراج المعاني شاهد الحال » .

ويرد الصفدي بما يوسع هذه الفكرة فلا يقتصر على حاسة البصر لاستخراج المعاني فيقول : « ما أنكر أن مشاهدة الحال في الخارج تعين على تصور المعاني ، إلا أن استنباط المعاني لا يفتقر فيه الى المشاهدة . وقد جاء في الوجود جماعه من العميان الذين لم يشاهدوا الصور في الخارج ، وأتوا بالتشبيهات البديعة مثل بشار بن برد حيث قال :

كَأَنَّ مُثارَ النَّقْعِ فوقَ رؤوسِنا   وأَسْيافَنا لَيْلٌ تَهاوَى كواكِبُهْ

(١) الغيث ١/٢٦٦ - ٢٦٧

« ومثل أبي العلاء المعري حيث يقول :

ولاحَ هِلَالٌ مثلُ نونٍ أَجادَها ... بذَوْبِ النُّضارِ الكاتبُ ابنُ هِلَالِ

« وحيث يقول :

لَيْلَتي هذهِ عَرُوسٌ من الزّنْـجِ عليها قَلائدٌ من جُمانِ
وَسُهَيْلٌ كَوَجْنَةِ الحِبِّ في اللَّوْ ... نِ وَقَلْبِ المُحِبِّ في الخَفَقانِ
ثُمّ شابَ الدُّجى وخافَ من الهَجْـ ... ـرِ فَغَطَّى المَشيبَ بالزّعْفَرانِ

« وله أشياء كثيرة من التشبيه الغريب

« ومثل أبي البقاء العكبري حيث يقول :

وَغَديرٍ رَقَّتْ حواشيهِ حتّى ... باتَ في قَعْرِهِ الذي كانَ ساخا
وكَأَنَّ الطيورَ إذْ وَرَدَتْـهُ ... مِن صفاءِ مائِهِ تَزِقُّ فِراخا

« وما أحلى قول أبي طاهر حيدر في مثل هذا :

وضاحيةٍ وَرَدْتُ بها غَديراً ... يُقَدَّر من صفاءِ الماءِ أَرْضا
كَأَنَّ الوَحْشَ حيث تَعُبُّ فيهِ ... يُقَبِّلُ بَعضُها للشَّوْقِ بَعْضا

« ومثل جماعة تقدموا من الأضرّاء ، كأبي العيناء ، وابن سيده صاحب المحكم ، والشاطبي رحمه الله ، وغير هؤلاء ممن أتى بالغرائب ولم يستعينوا بحاسة البصر .

« فإن قلت : إن هؤلاء إن كانوا ما رأوا ولا شاهدوا فقد سمعوا ما قاله غيرهم ، وشبهوا كما شبه غيرهم ؛ قلت : ما نازعتك في ذلك وإنما أردت أن التشبيه لا يفتقر

الى الصورة الخارجية ، فإن الناظم قد يتصور المعنى في ذهنه ؛ من غير أن يشاهد في الخارج [1] » .

ويسوق إلينا الصفدي مجموعة من النماذج الشعرية ؛ يدلل فيها على أن منافذ النفس لاستمداد عناصر الصور لا تقتصر على المشاهدات بالبصر فيما ذكره في ذلك :

« قال بشار بن برد :

يا قَومُ أُذْني لبَعْضِ الحَيِّ عاشِقَةٌ … والأُذْنُ تَعْشَقُ قَبلَ العَيْنِ أحيانا

قالوا: لِمَنْ لا ترى تَهْوَى؟! فَقُلْتُ لهم: … الأُذْنُ كالعَيْنِ تُوفي القَلْبَ ما كانا

« ويقول أيضاً :

قالتْ عُقَيْلُ بنُ كَعْبٍ إذ تَعَلَّقَها … قلبي فأَضْحَى به من حُبِّها أَثَرُ

أَنَّى ولَمْ تَرَها تَهْوَى؟! فقُلْتُ لهم : … إنَّ الفُؤَادَ يَرَى مالا يَرَى البَصَرُ

« وحيث يقول أيضاً :

يُزَهِّدُني في حُبِّ عَبْدَةَ مَعْشَرٌ … قُلوبُهُمُ فيها مُخالِفَةٌ قلبي

فَقُلْتُ: دَعُوا قلبي وما اختار وارتَضَى … فبالقَلْبِ لا بالعَيْنِ يُبْصِرُ ذُو اللبِّ

« وقال أبو العلاء المعري :

سَوادُ العَيْنِ زَارَ سَوَادَ قَلْبي … لِيَتَّفِقا على فهْمِ الأُمورِ » [2]

---

(١) نصرة الثائر ص ١٨٧ وما بعدها

(٢) الغيث المسجم ٢ / ١٩١ – ١٩٣

يتبين لنا من نص الصفدي السابق ، والنماذج التالية له ؛ إدراك الصفدي أن الحواس كلها تشترك في امداد النفس بالخطوط الأولى للصور فيها ، فهي تشكل منافذ النور التي تطل منها النفس على المشاهدات والأصوات والمحسوسات ... فتتلاقى كلها في بوتقة النفس التي تصهرها بحرارة انفعالها لتعكس هذا الانفعال بعد ذلك صوراً رائعة تقرب ما يبدو متباعداً ، وتعبر عن المشاعر النفسية بصور حسية تنقل تلك المشاعر وتعمق الإحساس بها .

ويؤكد الصفدي ذلك ثانية بقوله بعد أن أورد أبيات المعري في ذم الشبيبة ومنها :

واذْكُري لي فَضْلَ الشَّبابِ وَما يَجْـ　　ـمَعُ مِن مَنْظَرٍ يَرُوقُ وطِيبِ
غَدْرُهُ بالخليـــلِ أَمْ حُبُّهُ للـ　　ـغيِّ أَم أَنَّهُ كَدَهْرِ الأَديبِ

« وهذا هو تشبيه المعقول بالمحسوس ، وهو أعلى مراتب التشبيه طبقة لأنه ينشأ عن لطف ذوق ، وسلامة فطرة ، وصحة تخيل . فهو صعب على من يرومه ، متقاعس عمن جذب زمامه ، لأن العـــلوم العقلية تستفاد من الحواس في المقادير والألوان والطعوم والرائحة وطيب النغم ونعومة الملمس وخشونته ، ولهذا قالوا : من فقد حاسة فقد علماً .

« وإذا كان كذلك فالمحسوس أصل والمعقول فرع ، وتشبيه المعقول بالمحسوس من باب رد الفرع أصلاً والأصل فرعاً ، وأحسن ما جاء فيه قول القائل :

وكأنَّ النُّجومَ بيْنَ دُجاهـا　　سُـــنَنٌ لاحَ بَيْنَهُنَّ ابْتِداعُ

« وقول أبي طالب الرقي :

ولقد ذَكَرْتُكِ والظَّلامُ كأَنَّهُ　　يومُ النَّوَى وفؤادُ منْ لم يَعْشَقِ »[1]

---

(١) الغيث ١ / ٢١٠-٢١١

ولا يتوقف الصفدي عند هذا الحد في محاولة الكشف عن مصادر الصور من النفس ، بل يتوغل أكثر في تأمله في هذا الموضوع ، منطلقاً في ذلك من رده على ابن الأثير وقد أورد قول بعضهم :

وقد أَشُقُّ الحِجابَ الصَّعبَ بادِيَةً   دُوني وتَأْبَى وُلوجاً فيه إن طَرَقا
كالطَّيفِ يأْبى دُخولَ الجَفْنِ مُنْفَتِحاً   وليس يدْخُلُه إلا إذا انطَبَقا

ثم قال : ورأيت ابن حمدون البغدادي صاحب التذكرة قد أورد هذين البيتين في كتابه وقال : قد أغرب هذا الشاعر ، ولكنه خلط وجرى على عادة الشعراء . لأن الطيف لا يدخل الجفن وإنما تتخيله النفس .

ويرد الصفدي قائلاً « وهذا كلام من لم يطعم من شجرة الفصاحة والبلاغة » .

ويتعمق بعد هذا مفصلاً في نص طويل يحسن إيراده ، لنتعرف إلى النتائج التي توصل إليها من جهة ، ولما يدل عليه من انشغال الصفدي بأمر الصور وإبداعها وعدم استقراره حتى يصل في هذا إلى نهاية يرتاح إليها من جهة اخرى ؛ فيقول مستأنفاً رده السابق :

« قلت : القوة المخيلة لا يختص فعلها باليقظة دون النوم ، بل تفعل في النوم أقوى لأنها لا تحتاج إلى تحريك أعضاء البدن ، وإنما تستعمل عين الروح النفساني ، فلهذا ؛ القوة المخيلة قادرة على أفعالها في جميع الأحوال ، إلا أنها لا تتصور الأشياء باختيارها لأنها ليست قوة إرادية ، وإنما في اليقظة كانت القوة الإرادية تصرفها على حسب اختيارها ، فإذا أتى النوم أتى أمر آخر فاضطرها إلى أفعالها . وذلك الأمر لا يخلو من أحد أمور أربعة :

ـ **الأول** : ارتسام صور المحسوسات التي أدركتها الحواس في ذلك اليوم في الخيال ، فإذا نام الإنسان تصرفت القوة المخيلة في رسوم الصور لقرب عهدها بها . ويسمى هذا اتصال الحس بالخيال ، وعكسه اتصال الخيال بالحس كالأحلام .

– الثاني : أن تنظر القوة الفكرية في أمر من الأمور : مثل سفر ، أو ملاقاة صديق ، أو رجاء ، أو خوف ، واستُخدم الخيال في إحضار صورها ، وبقيت تلك الصور في النوم فتصرفت تلك القوة فيها وفي معانيها . ويسمى حديثَ النفس ، وعده بعضهم ضرباً من الوسواس .

– والثالث : أن يتغير المزاج من الروح الذي هو محل القوة ، فتختلف أفعالها بحسب تغيره ، فإن غلب على مزاجها الحرارة رأت الحمام والشمس والنيران وما أشبه ذلك وهي طبيعة الصفراء . وإن غلب على مزاجها البرودة رأت الأمطار والسيول والبحار والثلوج وما أشبه ذلك وهي طبيعة البلغم . وإن غلب على مزاجها الحرارة المعتدلة رأت المطاعم الحلوة والألوان المصبّغة والملاهي والحجامة والفصد وما أشبه ذلك وهي طبيعة الدم . وإن غلب على مزاجها البرودة اليابسة رأت المخاوف والظلمات والسواد وما أشبه ذلك وهي طبيعة السوداء .

« وعلى الجملة ، فإذا خرج مزاج الروح الحامل للقوة المخيلة عن الاعتدال ؛ رأت المنامات المضطربة بغير نظام ، لأن المزاج لا يثبت على حالة واحدة . وهذه هي أضغاث الأحلام .

« فما تعلق من الرؤيا بهذه الأضغاث لم يكن له تعبير ، وقل أن تصدق رؤيا الشعراء لأنهم يستعملون قوتهم المخيلة في اليقظة كثيراً ، لما يحاولونه في معاني التشبيه والاستعارة والكناية وغير ذلك .

– والرابع : ما يفيضه واهب الصور على القوة المخيلة حال النوم ؛ بمثال تدركه النفس وعلم تعبير الرؤيا هو معرفة تطبيق ذلك المثال على ما قصد به ، وربما ألقاه صريحاً بغير مثال ، فيستغني عن التأويل ، ويسمى رؤية المثل بالمثل .

« وما أحسن قول القائل :

له آمِرٌ بالرُّشْدِ في يَقَظَـاتِهِ   وفي النَّومِ يَهديهِ لِخَيْرِ الطَّرائِقِ

فإنْ قامَ لم يَدْأَبْ بِغَيْرِ فَضيلَةٍ   وإنْ نامَ لمْ يَحْلُمْ بغَيْرِ الحَقائِقِ

« واعلم أن القوة المخيلة لا تستقل بنفسها في رؤية المنام ، بل تفتقر الى قوة الرؤية المفكرة والحافظة وسائر القوى العقلية . فمن رأى كأن أسداً تخطى إليه وتمطى ليفترسه ، فالقوة المفكرة تدرك ماهية سبع ضار ، والذاكرة تدرك افتراسه وبطشه ، والحافظة تدرك حركاته وحياته ، والمخيلة هي التي ارتسم فيها ذلك جميعه وتخيلته [1] » .

وبذلك ينتهي الصفدي من البحث في مصادر الصور وإبداعها بعد أن استنفد كل ما يستطيعه للغوص على هذا الموضوع والخروج بالتفسير المقبول له .
وأبرز ما وصل إليه في هذا أمران :

— **أولهما** : إدراكه لدور الحواس في تزويد النفس بالعناصر الأولية للصور من الألوان والأصوات والخطوط .

— **وثانيهما** : قوله بأن النفس كلها وبكل قواها ، تشارك في التعبير عن الانفعال بصور حسية ملموسة ، تصل بين أطراف الشعور التي تبدو متنافرة لا مجال للتلاقي بينها.

الشعر :

تدلنا بعض آراء الصفدي في الشعر ؛ على إدراكه لحقيقة التعبير الشعري ، إذ يدرك أن من أولى خصائص الشعر الاكتفاء بالاشارة الغنية ، واللمحة الدالة المثيرة ، دون التطويل والتفصيل الذي هو بالنثر أليق . كما يجب أن تتوفر له القيم الموسيقية اللازمة ، في اختيار الوزن الذي يضع المعاني في الجو الشعوري الملائم لها .

---

(١) الغيث ١/١٤٩ - ١٥٠

ويشير كذلك إلى أهمية ترابط أجزاء النظم ، ودور القافية المتمكنة في تدعيم هذا الترابط وقوة التأثير في النفوس .

بيد أن الصفدي حين يلتفت حوله ليرى المنظومات العلمية الوفيرة ، في النحو والتاريخ والفقه وغير ذلك ، يجار في أمره .

صحيح أنه أدرك المزايا الأصيلة في الشعر ، ولكنه لم يكن يميز من الناحية النظرية بين الوزن العروضي ؛ وبين الموسيقى الشعرية الموحية . أو بين القافية التي هي من حسن الإيحاء بالمعنى بهذه الأصداء المترددة وكمال النغم في الإيقاع ؛ وبين القوافي المستوفية للشروط من حيث حروفها ورويها . فكان أن أدخل هــذه المنظومات بين الشعر ـ في حديثه فقط عن وفرة الشعر العربي ، وقدرة الشاعر العربي على الاطالة [1] ـ .

لكن الصفدي عندما يبحث في مزايا الشعر وسر تأثيره ؛ نراه يرنو ببصره نحـو الشعر وحده ليستمد منه صفاته الأصيلة التي تخاطب المشاعر وتداعب أوتار القلوب .

ومن تمام البحث في نظراته هذه ؛ أن نجعل ذلك منسقاً وشاملاً لعناصر الشعر ومرتكزاته الأولى : الفكرية والنفسية والفنية .

أما الجوانب الفكرية والنفسية فمجالها آت عند الحديث في السرقات الأدبية مما سيأتي . لذا فسيقتصر الكلام هنا في النواحي الفنية في الشعر بما يشمل أساليب التعبير المختلفة ، والمجاز في لمحات الخيال ، ثم ماينضــوي تحت موسيقى الشعر وأوزانه من آرائه في العروض والقافية .

يقول الصفدي معلقاً على بيت الطغرائي :

وذي شِطاطٍ كَصَدْرِ الرُّمحِ مُعْتَقِلٍ   بِمِثْلِهِ غَيْرِ هَيّــابٍ ولا وَكِلِ

---

(١) نصرة الثائر ص ٢٨٦ وما بعدها

« وقوله : كصدر الرمح معتقل بمثله ، من الإيجاز والاختصار ، لأنه استغنى « بمثله » عن أن يقول برمح طويل قويم معتدل ، مستشهداً ببيت البحتري :

وَالشِّعْرُ لَمْحٌ كَفَتْ إشارَتُهُ ... وليس بالهَذْرِ طُوِّلَتْ خُطَبُهْ

ويمثل لهذه الصفة الأصيلة في الشعر مؤكداً عليها فيقول : « ومثل قول الطغرائي (بمثله) في كلام الشعراء كثير . كقول أبي تمام الطائي :

وَرَكْبٍ كأطْرافِ الأسِنَّةِ عَرَّسُوا ... على مِثْلِها واللَّيْلُ تَسْطُو غَياهِبُهْ

« فاستغني بقوله (على مثلها) عن أن يقول : على نوق كأطراف الأسنة (١) » .

كما يتحدث الصفدي عن صفة أخرى يمكن أن ندعوها بالتلميح يمثل لها بقول القائل :

كُنّا جَميعَيْنِ في بُؤْسٍ نُكابِدُهُ ... والقَلْبُ والطَّرْفُ مِنّا في أذًى وَقَذَى

والآنَ أَقْبَلَتِ الدُّنيا عليكَ بِما ... تَهْوَى فلا تَنْسَني إِنَّ الكِرامَ إذا . .

إشارة الى البيت :

إِنَّ الكِرامَ إذَا ما أيْسَروا ذَكَرُوا ... مَنْ كانَ يَأْلَفُهُمْ في المَنْزِلِ الخَشِنِ

ويعقب على ذلك فيقول « وهذا عندي أشرف من التضمين الكامل ، وأطرب للفهم وأعذب للسمع ، وفيه من البلاغة حسن التضمين ، مع ما في ذلك من الاختصار الذي هو من أشرف أنواع البلاغة ، لأنه يرفع عن المخاطب مؤنة الإصغاء وقرع السمع بما هو محفوظ مقرر في الذهن (٢) » .

---

(١) الغيث ١ / ١٥٨
(٢) « ١ / ١٣٥

ويؤكد الصفدي على صفة الإيجاز الغني في الشعر فيحدثنا عما يسميه التنديب وهو نوع من التلميح فيقول :

« وقد قيل إن من شرط التنديب أن لا يكون خفياً ولا صريحاً ولكن بين بين ، ألا ترى إلى قول السراج الوراق فيمن ينعت بالصفي :

حَالَتْ حَوَادِثُ بَيْنِي ... بَيْنَ الصَّفِيِّ وَبَيْنِي
فلا أَمُوتُ إلى أنْ ... أَرَى الصَّفِيَّ بِعَيْنِي

« ما أحلاه ، ولو قال : فلا أموت إلى أن أراه ضعيفاً أو بعين واحدة يعني أعور ما كان له هذه الطلاوة ، ولا فيه هذا الحسن الواقع من القلب . أو لو أخذ يفسره فيما بعد ويشرح ما رمزه ، ذهبت منه هذه الحلاوة (١) » .

ويتناول هذا الإيجاز المعبر من زاوية أخرى ، فيرى في الغموض الشفاف ما يثير النفس ويلذها فيقول :

« وإخراج الكلام مبهماً ثم مفسراً أوقع في النفس وأبلغ ، ألا ترى ما أحلى قول مجير الدين محمد بن تميم في مليح يشرب من بركة :

أَفدي الذي أَهْوَى بِفيه شارِباً ... مِن بِرْكةٍ رَقَّتْ وَرَاقَتْ مَشْرَعا
أَبْدَتْ لِعَيْني وَجْهَهُ وَخَيالَهُ ... فَأَرَتْنِيَ القَمَرَيْنِ في وَقْتٍ مَعا

« فلو قال : أبدت لعيني قمر وجهه وقمر خياله ؛ لما كان له هذه الديباجة فاعرف ذلك (٢) » .

---

(١) نصرة الثائر ص ٢٤١
(٢) الغيث ١/٢٢٥

ويهتم الصفدي لصفة أخرى في الشعر يتطلبها ويشير إليها ، وهو ترابط أجزاء النظم ، سواء في البيت الواحد أو في القصيدة كلها .

ولا يكون هذا الترابط ممكناً ومقبولاً ؛ إلا إذا كانت الأفكار والمعاني تنتمي إلى حالة شعورية واحدة ، قد لونتها بلونها ، فبدا الانسجام بينها والتوافق ؛ داعية لإمتاع القارىء والتأثير فيه ، إذا تجعله يحيا مع الشاعر في حال انفعالية واحدة ، تنتسب إليها كل تفاصيل القصيدة وأجزائها ، بفضل هذا اللون الشعوري الواحد .

وينطلق الصفدي في الكشف عن نظراته هذه ؛ من مناقشته لابن الأثير في قوله : « إن الكاتب من أجاد المطلع والمقطع ، ويكون مبنياً على مقصد الكتاب . ثم قال : وهذا يشترك فيه الكاتب والشاعر » .

ويأتي الصفدي ليبتعد بالشاعر عن قواعد الكاتب فيقول :

« هذا فيه تسامح ، فإن الشاعر في كل وقت ؛ ما يفتتح قصيدته بما يدل على مقصوده ، فإن من مدح يطلب الإرفاد والإعانة بمال أو مركوب أو شفاعة أو طلب ولاية ، ثم صدّر تلك القصيدة بغزل يصف فيه محبوبه ، أو وصف هوى أو غربة أو شوق أو مسير كيف يتأتى له ذلك !

فقد خفي على الصفدي هنا وحدة الشعور في القصيدة كلها ولو بدأت بالغزل ، فإن هذا الغزل نفسه يتلون بلون العواطف الدافقة للقصيدة كما كان يفعل الشاعر الجاهلي حين سار على نهج القصيدة الموروث . فكنا نرى قصائد النابغة في الاعتذار وقد لون القلق القصيدة من مطلعها الغزلي إلى مشاهد الطرد ، وحتى يدخل في لب موضوعه المنشود . كما كان يلمس المرح والتوثب عند الأعشى منذ غزلها في المطلع حتى نهايتها .

فالشاعر البارع من استطاع أن يتحرر من هذا المنهج التقليدي في الوقت الذي

يتقيد فيه ، وذلك باتخاذه إياه قالباً فحسب . أما في عصر الصفدي ، فيبدو له ذلك شيئاً متناقضاً غير ممكن ، فهو لا يتصور قصيدة في المدح أو الاسترفاد يسبقها غزل .

وليس معنى هذا أننا نؤيد التقيد بنهج القصيدة ذاك ، ولكن ما دام الشعراء آنذاك قد رضوا بهذا القيد فليعايشوه ، بحيث لا يحرمون مشاعرهم من أن تجد لها منفذاً رغم هذا ومتنفساً ، وإلا فليغادروا هذه القاعدة . وقد فعلوا ذلك في أحيان اخرى كما يبدو مما قاله الصفدي بعد ذلك :

« نعم إذا كان مدحاً مجـــرداً بلا غزل لاق به ذلك ، وأكثر ما يكون المدح مجرداً من الغزل ؛ إذا كان في واقعة تجددت للممدوح ، فيهنيه الشاعر : إما بولاية منصب أو بظفره بعدو ، أو بمولود أو بسلامة من حادثة أصابته ، أو هناء بعافية أو بتشريف أو غير ذلك من متجددات الوقائع [1] » .

وبذلك تكون القصيدة في نظر الصفدي قـــد شملتها فكرة واحدة ، وشد أطرافها شعور متماثل دون أن يتقدمها غزل أو نسيب .

ولن نناقش الصفدي هنا في المنزلة التي وضع بها شاعر عصره ؛ حين ألغى وجوده الشخصي فقصره على المدح وجعله تبعاً لممدوحه ، لا هم له سوى تهنئته أو تعزيته أو تبشيره إلى غير ذلك ؛ لما ستحظى به هذه المنزلة من التفات خاص فيما يلي من الدراسة .

وقد كان اهتمام الصفدي بترابط أجزاء النظم يبدو في نواح متعددة ، فإذا تحدث في التضمين توجه باهتمامه إلى هذا الترابط ، وكذلك عند حديثه عن التوشيح أو حسن التخلص ، وحتى في النثر وجد في توفير هذا الترابـــط أول ما يجب الالتفات إليه .

---

(١) نصرة الثائر ص ٨٨

من ذلك قوله بعد أن أورد قول الطغرائي :

فيمَ الإقامَةُ بالزَّوْراءِ لا سَكَني بها ولا ناقَتي فيها ولا جَمَلي

« وما أعرف احداً ضمّن هذا المثل - أعني (لا ناقةٌ لي في هذا ولا جمل) - أمكن ولا أحسن من قول الشهاب أبي الثناء محمود . أنشدني لنفسه إجازة من قصيدة :

أَسْتَغْفِرُ اللهَ أَيْنَ الغَيْثُ مُنْفَصِلاً مِن بِرِّهِ وَهْوَ طُولَ الدَّهرِ مُتَّصِلُ
مَنْ حاتِمٌ ، عَدِّ عَنْهُ واطَّرِحْ فَبِهِ في الجُودِ لا بِسِواهُ يُضْرَبُ المَثَلُ
لَو مُثِّلَ الجُودُ سَرْحاً قالَ حاتِمُهُمْ لا ناقَةٌ لِيَ في هـذا وَلا جَمَـلُ

« انظر إلى قلقه في بيت الطغرائي ، لأنه عطف الناقة والجمل على السكن ، ولو عطف ما يناسب ذلك من أهل وولد لكان أحسن وأوقع في النفس ، وانظر الى وروده في أبيات الشهاب محمود فإنه جاء في مكانه منسجم التركيب ثابتاً في معناه ، حتى كأنه ما برز إلى الوجود إلا في هذا المكان ، ولا ظهر إلا في هذا القالب ، ولست أنكر أن الناس قد ضمنوه كثيراً في أغراض مختلفة طلباً للتبرؤ مما ينتفي الإنسان عنه ، ولكن كلما كان الكلام أكثر ارتباطاً وتعلقاً في أجزائه كان أحسن [١] » .

ويبدأ حديثه في التوشيح رداً على ابن الأثير في قوله :

« ورأيت أبا هلال العسكري قد سمى هذا النوع التوشيح ، وليس كذلك ، بل تسميته بالإرصاد أولى » . ويتصدى الصفدي للرد بقوله « هذا الإرصاد الذي ذهب إلى أنه أليق من التوشيح بالمعنى الذي قرره ، مثاله قول البحتري :

أَحلَّتْ دَمي يومَ الفِراقِ وَحرَّمَتْ بِلَا سَبَبٍ يومَ اللِّقاءِ كَلامي

---

(١) نصرة الثائر ص ٣٦٣

وليسَ الذي حَلَّلْتـهِ بمُحَلَّلٍ   وليسَ الذي حَرَّمْتهِ بحَرامِ

« وهو أن الشاعر يأتي بنصف بيت يفهم منه النصف الثاني ، أو صدر يفهم منه العجز ، أو من البعض يفهم الكل . وهو دليل التمكن وجودة الطبع .

« ووجه المناسبة بين هذا المعنى وبين التوشيح ، أن ينزل أول الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح ، وينزل دلالة ما في أوله على آخره منزلة الوشاح الجائل بينها . وهذا معنى لائق بهذا المسمى ، ونفس اللفظ أعذب في السمع من الإرصاد (١) » .

وهكذا نرى أن التوشيح كما بينه الصفدي ؛ إن هو إلا ربط أول الكلام بتاليه ، كما أنه انطلق في تفضيله التسمية بالتوشيح ؛ من معنى الترابط الذي يقوم بين طرفي الكلام ، كما يجمع الوشاح بين العاتق والكشح ويجول بينهما .

وإذا عرج على حسن التخلص ؛ كأن حسن الانتقال والربط بين المطلع وما يليه من معنى أول ما يلتفت إليه . ومن نماذجه في ذلك قول أبي عبد الله السنبسي يمدح صَدَقة بن منصور :

ونرجسٍ خَضِلٍ تحكي أزاهِرُهُ   أحداقَ تِبْرٍ على أجفانِ كافورِ
كأنَّما نَشْرُهُ في كُلِّ باكِرَةٍ   مِسْكٌ تَضوَّعَ أو ذِكْرُ ابنِ مَنصُورِ

وقول أبي الحسين الجزار يمدح جمال الدين موسى بن يغمور :

جَسَرْتُ على لَثْمِ الشَّقيقِ بخَدِّها   ورَشْفِ رُضابٍ لم أزَلْ مِنْه في سُكْرِ
ولَسْتُ أخافُ السِّحْرَ في لحَظَاتِها   لِأَنِّي بموسَى قد أمِنْتُ من السِّحْرِ (٢)

(١) نصرة الثائر ٣٦٨
(٢) « « ٣٦١

كما حظي ميدان النثر باهتمامه بمثل هذا الترابط تحت اسم التخلص أيضاً [1] . ولكننا الآن مع الشعر ولا مكان للنثر في هذا المجال .

ويبدو أن الصفدي في هذه الناحية من اهتمامه بترابط الأجزاء لم يخل من تأثره بالقرآن الكريم . فمن ذلك قوله : « إن القرآن جميعه متعلق بعضه ببعض ، كالخروج من الوعظ والتذكير إلى الإنذار أو إلى البشارة ، أو الى أمر أو نهي أو وعد أو وعيد . إلا ما خفي تعلقه في الظاهر [2] » .

وندخل مع الصفدي روضة الإبداع في الشعر ، فنراه يشير الى التشبيه ، ويختار من نماذجه أرفعها مما يجمع بين الأمور الحسية والمعنوية . ويذكرنا بقول أبي العلاء المعري في ذم الشبيبة :

واذكُري لي فَضْلَ الشَّبابِ وما يَجْـ ... ـمَعُ من منظرٍ يَروقُ وطيبِ
غَدْرُهُ بالخَليلِ أمْ حُبُّهُ للـ ... ـغَيِّ أمْ أنَّهُ كدَهْرِ الأديبِ

ليقول بعدها « وهذا هو تشبيه المعقول بالمحسوس ، وهو أعلى مراتب التشبيه طبقة ، لأنه ينشأ عن لطف ذوق ، وسلامة فطرة ، وصحة تخيل . وأحسن ما جاء فيه قول القائل :

كأنَّ انتِضاءَ البَدْرِ تَحتَ غَمامِهِ ... نَجاةٌ مِنَ البأساءِ بعدَ وُقوعِ

« وقول ابن المبارية :

كم لَيلَةٍ بِتُّ مَطْوِيّاً على حُرَقٍ ... أشْكُو إلى النَّجْمِ حتّى كادَ يَشْكُوني
والصُّبْحُ قد مَطَلَ الشَّرْقُ العُبُورَ بِهِ ... كأنَّهُ حاجَةٌ في نَفْسِ مسكينِ

(١) نصرة الثائر ص ٣٦٣
(٢) « « ٣٦٢

« وقول أبي القاسم سعد بن ابراهيم :

تتنفَّسُ الصَّهباءُ في لَهَواتِه ... كتنفُّسِ الرَّيحانِ في الآصالِ
وكأنَّما الخيلانُ في وَجَناتِه ... ساعاتُ هجْرٍ في زمانِ وِصالِ »(1)

ثم يشير الى أن الذوق وحده هو الفيصل في حسن التشبيه وإصابته عندما ينقل إلينا ما حُكي من « أن بشاراً لما سمع قول كثيّر عزة :

ألا إنَّما لَيْلَى عصا خَيْزُرانَةٍ ... إذا غَمَزُوها بالأَكُفِّ تَلِينُ

قال : قاتل الله أبا صخر ، يزعم أنها عصا ويعتذر بأنها خيزرانة ، والله لو قال عصا مخ أو عصا زبد ؛ لكان قد هجنه ذكر العصا . هلا قال كما قلت :

وبيضاءُ المَحَاجِرِ من مَعَدٍّ ... كأنَّ حديثَها ثَمَرُ الجِنانِ
إذا قامتْ لِحاجَتِها تَثَنَّتْ ... كأَنَّ عِظامَها من خَيْزُرانِ » (2)

ثم يحدثنا الصفدي عن الاستعارة فيشير إلى أنه يفضل الوضوح في الاستعارة ، وينفر من الإغراب الذي يجرنا الى التأويل البعيد . مستشهداً بقول الشاعر :

إذا أَخَذَ القِرْطاسَ أَوْدَعَ طِرْسَهُ ... خَميلَةَ زَهرٍ أو قِلادَةَ جَوهَرِ
حَمَى كُلَّ فِكْرٍ عن عِراكِ رَوِيَّةٍ ... وحطَّ عن الأقلامِ ثِقْلَ التفكرِ » (3)

وغالب ما تمثل به الصفدي هنا للاستعارة كان من النثر ، مما لا يدل ونحن مع الشعر . بيد أنه مثل لما يعجبه من استعارات الشعراء بقول ابن حمّدي :

---

(1) الغيث المسجم ١/٢١٠ - ٢٢١
(2) « « ١/٢٤٣ - ٢٤٤
(3) نصرة الثائر ص ١٢٥

قَوْمٌ إذا حَيّا الضُّيوفُ جِفانَهُمْ رَدَّتْ عَلَيْهِمْ أَلْسُنُ النِّيرانِ

ثم قال « وهذه استعارة أخرى هي أكمل لأن في النار من اللسان شيئين وهما : الشكل الشبيه باللسان ، والزفير الشبيه بالتصويت [1] » .

وإذا انتقل بنا الى الكناية ، نراه يطيل في الثناء عليها ، ويعتبرها في الشعر مما يمتع النفس ويطلق الخيال ، مبتدئاً قوله بمناقشة بيت الطغرائي :

نَؤُومٌ ناشِئَةً بالجِزْعِ قد سُقِيَتْ نِصالُهَا بِمِياهِ الغُنْجِ والكَحَلِ

فيشير الى أن فيه « من أنواع البديع الكناية ، وهي أبلغ من التصريح وأوقع في النفوس ألا ترى أن قولك (بعيدة مهوى القرط) أبلغ من قولك : طويلة العنق .

« وقول امرىء القيس :

وَيُضْحِي فَتيتُ المِسْكِ من فَوْقِ فَرْشِها
نَؤُومُ الضُّحَى لم تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ

« أبلغ من قوله : منعمة ذات خدم وجوار يخدمونها فهي تنام الضحى ، ولم تشد وسطها بنطاق الخدمة « وامرؤ القيس أبرع الناس في الكناية ، لأن الناس كانوا يقولون أسيلة الخد حتى جاء هو فقال أسيلة مجرى الدمع . وكانوا يقولون : طويلة القامة وتامة العنق حتى قال : بعيدة مهوى القُرط .

وكانوا يقولون في الفرس السابق : يلحق بالغزال والظليم وما أشبه ذلك حتى قال : (قيد الأوابد) [2] » .

---

(١) الغيث المسجم ١ / ٢٥٣
(٢) » » ١ / ٢٤٥

وبذا نرى طرب الصفدي للتصوير في الشعر ، واستخدام وجوه المجاز فيه ، شريطة مراعاة الوضوح تحقيقاً للغاية من ذلك ، في تعميق إحساسنا بالمتحدث عنه ؛ بوضوح لا يدفعنا الى التوقف أو التأويل ، إضافة إلى إمتاع الحاسة الفنية لدينا عند تذوق أمثال هذه الصور البارعة .

ويتوقف بنا الصفدي هنا ، ليحدثنا عما بقي لديه من قول في الجوانب الفنية للشعر ، وهي موسيقى الشعر وما ينضوي تحتها من الأوزان والقوافي ، فيبدأ كلامه بالرد على ابن الأثير فيما ذكره فيقول :

« وأما دعواه أن الشاعر لا يحسن في الأكثر ، فالعذر في ذلك ظاهر ، لأنه في ضائقتين شديدتين الى الغاية وهما : الوزن ولزوم الروي الواحد . ولو أتى الكاتب برسالة مطولة على حرف واحد في سجعة ، وعدد مخصوص من كلمات السجع ؛ لكان حاله حال الشاعر بل كان كلامه أسمج على الأسماع والقلوب . لأن الشعر يروجه الوزن ولا كذلك النثر :

وكَيْفَ ولم يَزَلْ للشِّعْرِ ماءٌ   يَرِفُّ عَلَيْهِ رَيْحَانُ القُلوبِ »(١) .

ونطيل الوقوف هنا ، لنستمع بإسهاب الى رأي الصفدي في عناصر هذا الوزن ، الذى لا يقوم الشعر بدونه ، لننتقل الى بيان آراء الصفدي في كل من العروض والقافية .

العروض :

عندما حل عصر الصفدي كان علم العروض قـــد مضى على اكتشافه قرون متطاولة ، كانت كفيلة بأن تحمل الى الصفدي جملة من أقوال الأدباء والعلماء في هذه الآلة الشعرية .

---

(١) نصرة الثائر ص ٣٠٩٠

وبالرغم من تعدد هذه الآراء في العروض ، فقد كان للصفدي حياله موقف واضح يضع فيه العروض في مكانه الصحيح ، حين يصرح بأن العروض لا ينفع إلا دارس الأدب وناقده ؛ وذلك ليعرف ما قد يكون في القريض من عيوب من جهة ، ولتمييز الشعر العربي عن غيره من أشعار الأمم من جهة ثانية .

أما الشاعر فليس بحاجة الى هذا العلم . وما نراه من إقدام بعض النظام على استخدام موازين العروض لرصف الشعر ، فأمر متكلف وجهد ضائع يجدر بأصحابه إنفاقه في ميدان يعود عليهم بما يجدي وينفع .

وقد لا يكون الصفدي بدعاً بما قال ، ولكنّ تمسكه بهذه الآراء ورفعه لها ؛ في عصر تعلق فيه بالشعر كل العلماء والحكام - وهو الرجل الموظف - ليس بالأمر اليسير .

يقول الصفدي :

« قال الجاحظ : (العروض ميزان الشعر ومعياره ، وبه يعرف الصحيح من السقيم والمعتل من السليم ، وعليه مدار القريض من الشعر ، وبه يسلم من الأود والكسر) قلت هذا أليق بالوصف من الحد . وقال الجوهري : العروض ميزان الشعر وهي ترجمة عن ذوق الطباع السليمة .

« وأقول أنا : العروض آلة قانونية ، تعصم مراعاتها الإنسان عن أن يضل في وزن شعر العرب . وهذا الاحتراز الأخير أتيت به لأن اللغة اليونانية فيها شعر . وذكر لي العالم العلامة شمس الدين محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري ؛ أن الشعر اليوناني له وزن مخصوص ، ولليونان عروض لبحور الشعر ، والتفاعيل عندهم تسمى الأيدي والأرجل » .

هذه هي الفائدة الأولى من علم العروض في رأي الصفدي . أما الفائدة الثانية في نظره فهي : « والحاجة ماسة وداعية الى معرفة الوزن وما يجوز من الزحاف

في كل بحر ومالا يجوز . فقد وقع في ذلك جماعة من كبار العرب كالمرقش ومهلهل وعلقمة بن عبدة وعبيد بن الأبرص وغيرهم ، وجماعة من كبار المحدثين كأبي العتاهية والبحتري وأبي الطيب ، وحسبك بوقوع مثل هؤلاء الفحول في الخروج عن الوزن .

« وإذا اتفق مثل هذا لمثل هؤلاء فما الظن بغيرهم » !

ثم ينتقل ليتوجه بالحديث الى المكدودين بالنظم بلون من الوصف الساخر فيقول: « وقال قوم لا حاجة الى العروض ، لأن كل من نظم بالعروض شق ذلك عليه ، وأتى به متكلفاً ، ولا يتأتى له وزن البيت الواحد بل الكلمة الواحدة ـ يدخلها الوزن وينظر في حركاتها وسكناتها ، وهل هي من سببين وفاصلة صغرى أوْ لا ، الى غير ذلك من التفصيل ـ إلا بعد مكابدة مشقة عظيمة . وإلى أن ينظم الناظم بالعروض بيتاً ، نظم صاحب الطبع السليم قصيدة .

« وما أحسن قول أبي فراس بن حمدان :

تَناهَضَ النّاسُ للمَعالي لما رَأَوْا نَحوَها نُهوضي
تَكَلَّفُوا المَكْرُماتِ كدّاً تَكلُّفَ النَّظْمِ بالعَرُوضِ

وليس معنى ذلك أن الصفدي لا يفرق بين النوعين من الشعر إلا بالكم ؛ لأنه أشار قبل سطور قليلة الى أن كل من نظم بالعروض شق عليه ذلك وأتى به متكلفاً .

ويستمر الصفدي في حملته وكأنه يشير الى إلغاء هذا العلم فيقول : « لقائل أن يورد على العروض فيقول : إن كان هذا العلم من النظريات فليستغن عن تعلمه ، ولأن إصابة الإنسان في الإتيان بما ينظمه من بحور الشعر على اختلاف أوزانها ـ من غير مراعاة هذا العلم ـ تنفي الحاجة إليه » .

ثم يورد للجاحظ قولاً ينسجم مع موقفه الجديد هذا فيقول :

« وقال الجاحظ : العروض علم مستبرد ، ومذهب مرفوض ، وكلام مجهول ، يستكد العقول ، بمستفعلن ومفعول ، من غير فائدة ولا محصول [1] » .

هذا إذن موقف الصفدي ممن استسهل إعتلاء صهوة الشعر طمعاً وجهلاً ، لا يداني فيما أبداه فيه من الصراحة والوضوح ، ولكنه طبع الناقد ؛ بالرغم من الظروف الخاصة التي كانت تقيده وتحيط به .

القافية :

وعندما يصل الصفدي في حديثه الى القافية ، يلفت نظرنا اهتمامه البالغ بأمرها ، فيأخذ في الحديث عنها حديثاً غنياً يتناولها فيه من جوانب مختلفة ، يشعرنا بمدى إدراكه لأهميتها في البناء الشعري ؛ من ناحية أداء المعنى وإطلاق الشعور وصدى الايقاع . وقد جعلها في البيت بمنزلة الروح ، حتى إنه اعتبرها مقياساً يدل على موهبة الشاعر وتمكنه ، أو جموده وتخلفه . كما يَعجب ممن يزعم إمكان تغيير القافية ، لما لها من ارتباط شديد بالبيت ، بل بالقصيدة كلها في أصل المعنى أو الشعور ؛ منذ أن كان خاطراً يجول في ذهن الشاعر وتجيش به نفسه .

من ذلك قول الصفدي في معرض حديثه عن لامية الطغرائي :

« وزعم بعضهم أن بعض الشعراء غيّر قوافي هذه القصيدة من اللام الى حرف العين ، وهذا عندي يتعذر ، لأن ألفاظ هذه القصيدة في غاية الفصاحة ، وتراكيب كلماتها كلها منسجمة عذبة غير قلقة ولا نافرة ، ومعانيها بليغة غير ركيكة ، وقوافيها في غاية التمكن ، فهي كما قال ابن عُنَيْن :

---

(١) الغيث المسجم ١/٣٠ - ٣٢

معْنًى بَدِيعٌ وأَلْفَاظٌ مُنَقَّحَةٌ   غَرِيبَةٌ وقَوافٍ كلُّهَا نُخَبُ »[1]

فالصفدي لا يمنح هذه الأهمية لكل قافية مهما كان نوعها ، فلا بد من توفر صفات أساسية تمنح القافية هذه الأصالة وذلك التمكن . وقد أجمل الصفدي هذه الصفات ، وكلها تدل ـ بعد التأمل فيها ـ على حسن إدراكه لمكانة القافية ، وارتباطها بما حولها من نسيج الشعر ، مما ذكره : من الألفاظ وفصاحتها ، وتراكيب الكلمات وعذوبتها وانسجامها ، وبلاغة المعاني وإشراقها ، ثم تمكن القوافي ... فلا عجب أن تأبى قواف في مثل هذا القريض على محاولة التغيير العابثة .

ويكشف الصفدي عن أهمية القافية في بناء البيت فيقول : « والقافية المتمكنة هي التي يبنى البيت من أوله الى آخره عليها ، فإذا ختم البيت بها نزلت في مكانها ثابتة فيه ، متمكنة في محلها ، قد رسخت في قرارها ، ودفعت الى مركزها ، فهي لا تتزحزح ولا تتغير منه .

« بخلاف القافية القلقة التي اجتلبت وجيء بها لتمام الوزن ، وهي أجنبية منه غريبة من تركيبه ، عارية من الالتحاف به والالتحاق بحسبه[2] » .

ولا يستطيع الصفدي أن يتصور تغيير قافية قد توفر لها من شروط النجاح ما سلف ذكره . لأن أهميتها ودورها في القصيدة يسمو عن أن يكون توفيراً لحروف الروي ، تتشابه وتتكرر في أبيات القصيدة كلها ؛ كما رأى ذلك بعض معاصريه ممن سوغ تغيير مثل هذه القوافي المتمكنة في لامية الطغرائي . فعاد الصفدي يخاطب هؤلاء بقوله :

« ومتى غيرت القافية المتمكنة بغيرها ، جاءت نافرة عن الطباع في غاية الركة ، وليت شعري بماذا يغيِّر قوله :

---

(١) الغيث المسجم ١٣/١
(٢) المصدر السابق

لَوْ أَنَّ في شَرَفِ المَأْوَى بُلوغَ مُنى   لم تَبْرَحِ الشَّمْسُ يوماً دارَةَ الحَمَلِ

وقوله أيضاً :

وَإنْ عَلَانِيَ مَنْ دُونِي فَلا عَجَبٌ   لي أُسوَةٌ بانحطاطِ الشمسِ عن زُحَلِ

« الى غير ذلك من بقية القوافي المتمكنة ، التي هي من البيت بمثابة القاعدة التي إذا زحزحت أو نقلت تهدم البيت وخرب ، وذهب حسنه وزال رونق تركيبه . وإذا غير مثل هاتين القافيتين فقد زال طرازها ، وذهب شمسها وقمرها ، ومحيت آية حسنها[1] » .

ويتعمق الصفدي هذا الأمر ، فيرى أن الشاعر نفسه يستطيع بدل تغيير القوافي أن يجعل كل بيت ـ لو استطاع ـ على قافيتين ، وذلك بمراعاة هذه الناحية أثناء قوله الشعر ؛ بأن يأتي بدل القافية باثنتين كل منهما قادرة على أداء ما أراد من معنى ، أو التعبير عما يضطرب بين جوانحه من شعور .

ومع ذلك فإن تفاوتاً لا بد وأن يقوم بين القافيتين . لأنه من المتعذر العثور على قافيتين تؤديان الشيء نفسه ، وبذا تحكم القافية الجديدة على نفسها بالضعف والإخفاق . وفي ذلك يقول :

« نعم قد يتفق للشاعر نفسه ـ إذا أراد ـ بناء قصيدته على قافيتين أو أكثر ، لأنه يراعي ذلك في أصل التركيب ، ويوفق بين ذلك من أول العمل ، كما فعل سيف الدين بن المشدّ في قصيدته التي مدح بها السلطان نجم الدين أيوب . وهي مشهورة . أولها :

إسْقِنِي الرّاحَ قد تَجَلَّى النَّهارُ الظَّلامُ   وتَغَنّى على الأَراكِ الهَزارُ الحَمامُ

---

(١) الغيث المسجم ١/١٣ - ١٥

وبَدَا الرَّوْضُ في ثِيابٍ من الزَّهـ ـرِ سَداها بَنَفْسَجٌ وعَرارٌ وثُمامُ
فاسْقِنيها مثلَ الخُدودِ احْمِراراً وكَثَغْرِ الحَبيبِ فيه افتِرارُ وابتِسامُ
قَهْوَةً مُـــزَّةً رَحيقَ شَمُـولٍ قَرْقَفٌ لَذَّةٌ سُلافٌ عُقارُ مُدامُ
من يَدَيْ أوطفِ الجُفُونِ غَريرٍ زانَهُ الخَصْرُ واللَّمَى والعِذارُ والقَوامُ
بَدرِ تِمٍّ يَلوحُ في زِيِّ ظَبْيٍ قَصَّرَتْ عن صِفاتِهِ الأَفكارُ الأَفهامُ

« ثم إنه سار على هذا الأنموذج الى تمام واحد وعشرين بيتاً ، ولا يخفى ما في هذه الأبيات من الانحلال والانحطاط ، وما فيها من الإيراد لمن يروم النقد عليه [1] » .

وعلى ذلك فإن صاحب الأبيات نفسه لو راعى ذلك في أصل النظم ، فإن نتيجة إقدامه على تزييف شعوره ـ بتعديله لينقاد للقافية الجديدة ـ ستكون كما حكم عليها الصفدي فيما سلف من سطور .

ونستمر في جولتنا بين نصوص الصفدي نستبين المزيد من مكانة القافية لديه ، فنسمعه يقول : « قال مجد الدين محمد بن الظهير الإربلي :

قَلْبي وطَرْفي ذا يَسيلُ دَماً وذا دونَ الوَرَى أنْتَ العَليمُ بقَرْحِهِ
وهما بِحُبِّكَ شاهِدانِ وإنَّما تعديلُ كلٍّ منهما في جَرْحِهِ
والقَلْبُ مَنْزِلُكَ القديمُ فإنْ تَجِدْ فيهِ سِواكَ منَ الأنامِ فَنَحِّهِ

« وإنما أثبت هذه الأبيات لحسن نظمها ، وانسجام لفظها ، وانظر الى قافية البيت الأخير وتمكنها في محلها ، كأنها الشمس في الحمل ، أو الدرة التي تم بها حسن العقد

(١) المصدر السابق

وكمل . والقافية روح والبيت جسد ، فمتى قاقت فيه ضعف تركيبه وفسد ، وتمكّن القوافي دليل على قوة الناظم في فنه ، وقلقها أدل على وقوف قريحته وجمود ذهنه »(١) .

ويطلع علينا الصفدي في القافية برأي جديد يخالف العروضيين ؛ انسياباً مع حسه وذوقه فيقول بعد هذا النص : « قال أبو العز مظفر الأعمى :

دخلت على الملك الكامل فقال لي : أجز هذا النصف :

قد بَلَغَ الشَّوْقُ مُنْتَهاهُ فقلت : وما دَرَى ٱلْعَاشِقُونَ ماهُوْ

فقال : وَلِي حَبِيبٌ يَرَى هَوانِي فقلت : وما تَغَيَّرْتُ عن هَواهُ

فقال : رِياضَةُ النَّفْسِ في احْتِمالِي فقلت : وَرَوْضَةُ الحُسْنِ في حَلاهُ

فقال : لَيْلَتُهُ كُلُّها رُقادٌ فقلت : ولَيْلَتِي كُلُّها انْتِباهُ

« وقد أوردت هذا الشعر لأن فيه قافيتين لا تجوزان على رأي أرباب العروض وهما أحسن ما في هذه القوافي . الأولى (ما هو) والثانية (انتباه) انظرهما تجدهما أحسن القوافي . ولو تُرِكنا والعقل لكان ينبغي أن لا تعد القوافي ، إلا اذا كانت غير متصلات بضمير مخاطب أو غائب أو متكلم ، لأن في ذلك شيئاً من الإيطاء(٢) » .

إذن فالصفدي يقترح قيداً فنياً جديداً ؛ حتى لا يدخل رياض الشعر إلا من تمتع بالموهبة ، وسما على أجنحة الخيال ، وتمكن من ملكة البيان والقدرة عليه ؛ ما يؤهله لمرتبة الشاعر . وهذا الرأي إن هو إلا استمرار لرأيه في إلغاء علم العروض ؛

(١) الغيث المسجم ١ / ٢٤٥
(٢) « « ٢ / ٢٢٧ - ٢٢٩

منعاً للمدّعين من التعـلق به متكئين على أوزانه ، فيختلط غث الشعر بسمينه ، ويصم العصر كله بالتخلف والانحطاط .

ويؤكد الصفدي على تفضيله لمثل هذه القافية الخالية من الضمائر ؛ بعد أن يعرض نصاً لابن سناء الملك ورد فيه قوله :

ما أَهانَ الوَرَى ولا مَلَكَ الدُّنْـ   ـيا ولا حازَها سِوَى المُتَنَسِّكْ

ويطرب الصفدي إلى هذه القافية قائلاً :

« ما أحلى ما أتى بالمتنسك هنا قافية ، فسقى الله ضريحه وروّح روحه ، وما كان ألطف ذوقه ، وأشبّ عمره الذي جعل الهلال طوقه .

« وهذه القافية لا يجيزها العروضيون ، ويحتجون بأن الكاف أصلية وليست ضميراً كأخواتها ، وأنا وغيري من أئمة الأدب الذين لطف ذوقهم ؛ يرون أن هذه القافية بين نجوم القوافي كالشمس ، وهي التي فيها خفة الروح وما عداها فيه ثقل الرمس ، لأنها قليـلة الوقوع في الكلام ، قل أن يظفر النـُّظّام من هـذا النوع بقافية . يعرف هذا القول أربابه ، ومن بيني وبينه نسبة أو تشابه »[1] .

ولا يكتفي الصفدي بهذا بل يردد هذا الرأي في أكثر من مناسبة مما يدل على اقتناعه به ، ودعوته اليه بكل ما استطاع ويبدو أنه لم يفلـــح ، فقد زادت أفواج الناظمين .. يستسهلون وينظمون .. حتى غدا النظم على كل شفة ولسان .

وبالرغم مما أتى به الصفدي بشأن القافيـة من النظرات السديدة ـ إذ استهجن محاولة تغييرها دون أن يتأثر المعنى ويتهدد بناء البيت ، كما استبعد أن يستطيع الشاعر الإتيان بقافيتين وتكونان على سوية واحدة في الجودة وتمام الأداء ـ لكنه لم يستطع أن يقاوم إعجابه بما أتى به ابن الذروي » في قصيدته التي أولها :

---

(١) المصدر السابق

نَوًى أُطْلِعَتْ منها ٱلْقِفَارُ البسابِسُ بِخَيْلٍ مَطِيٍّ طَلْعُهُنَّ أَوانِسُ

وهي تزيد على العشرين بيتاً ، جعل لكل بيت أربعاً وعشرين قافية ، وهذه القصيدة تنشد أربعاً وعشرين قصيدة ، وهذا في غاية القدرة » .

ولا يريد الصفدي هنا أن يناقض نفسه فعمد الى تبرير إعجابه بما ينسجم ورأيه السابق فقال : « وإنما سهّل هذا معه وانقاد له بما أراد ، لأنه هو الذي بنى كل بيت في الأصل على ما يريد ختمه به من القوافي المتعددة . ولو أخذ قصيدة لغيره وأراد تغيير قوافيها لتقاعس المعنى عليه ولم ينقد له » .

وابن الذروي لا يفعل هذا من تلقاء نفسه لو لم يشاهد عملاً من هـذا النوع عند شاعر كبير في العصر العباسي ، لكن ابن الذروي بالغ كثيراً باتباع هـذا السبيل إذ يقول :

« والذي حملني على نظم ذات القوافي عليُّ بن الرومي إذ قال في كلمة له :

لِما تُؤْذِنُ الدُّنْيا بِهِ من صُرُوفِها يَكُونُ بُكاءُ الطِّفْلِ ساعةَ يولَدُ
وإلّا فما يُبْكِيهِ مِنها وإنَّها لأفْسَحُ مما كانَ فيه وأَرْغَدُ
إذَا أَبْصَرَ الدُّنْيَا اسْتَهَلَّ كَأَنَّهُ بِما سَوفَ يَلْقَى من أذاها يُهَدَّدُ

« وقال في كلمة أخرى نظير هذه الأبيات ، إلا أنه أبدل في البيت الأول (يولد) بقوله : (يوضع) ، وأبدل (أرغد) بقوله : (أوسع) ، وأبدل (يهدّد) بقوله : (يُقرّعُ) » .

ويعلق الصفدي على هذا بما يبرر إعجابه بصنيع ابن الذروي فيقول :

« وأنت ترى كيف لفظة (أرغد) فيها قلق يسير ، وكيف (أوسع) أحسن منها ، وكيف لفظة (يهدّد) أليق من (يقرّع) هذا أمر يشهد به الذوق » .

ويبدو أن إعجاب الصفدي بمثل ما فعله ابن الذروي ماهو إلا إعجاب بقدرته وسعة اطلاعه . فقد ذكر أشباهاً لابن الذروي فقال : « وصنع أبو القاسم علي ابن منجب المعروف بابن الصيرفي بيتين وهما :

لمّا غَدَوْتَ مَليكَ الأَرضِ أَفْضَلَ مَنْ جَلَّتْ مَفَاخِرُهُ عن كُلِّ إِطْراءِ
تغايَرَتْ أَدَوَاتُ النُّطْقِ فيكَ على ما يَصْنَعُ النَّاسُ من نَظْمٍ وإِنْشاءِ

» ثم إنه غيَّر روي البيتين على جميع حروف المعجم .

» ومن وقف على كلام أبي العلاء المعري في رسالة الغفران في ذينك البيتين اللذين للنمر بن تولب وهما :

أَلَمَّ بِصُحْبَتي وَهُمْ هُجُوعُ خَيالُ طارِقٌ مِنْ أُمِّ حِصْنِ
لها ما تَشْتَهِي عَسَلٌ مُصَفَّى مَتَى شاءَتْ وَحَوّاري بِسَمْنِ

» وكيف غيَّر القوافي منها ونزّلها على سائر حروف المعجم خلا حرف الطاء ؛ علم تمكّن أبي العلاء من الأدب واطلاعه على اللغة [1] » .

ولا يدل عمل ابن الذروي على سعة الاطلاع والتمكن من اللغة فحسب ؛ وإنما يحمل بين طياته شاعرية لا شك فيها ، وموهبة غلابة قادرة ؛ حتى جاء بهذه القوافي كلها ليؤدي المعنى الواحد . لذا فإن رد الصفدي لما صنعه مجير الدين بن تميم في قافيته المزدوجة ؛ لا يناقضه هذا الإعجاب بقصيدة ابن الذروي .

---

(١) الغيث المسجم ١/١٤ – ١٥

ولو لم يكن ابن الذروي قد أجاد الأداء إلى جانب هذا التمكن اللغوي ؛ لما قال فيه الصفدي ما قال ، وقرنه بأمثال أبي العلاء المعري . هذا مع إقرارنا بأن مزاولة مثل هذه المهارة لا بد وأن تكون على حساب دقائق المعنى ونبضات الشعور في القريض ، بما لا مجال معه لريبة أو تردد . وقد رأينا مراعاة الصفـــدي للمتعة الحسية في الأدب ، إذا لم يكن على حساب المعنى إن لم يضف اليه جديداً .

الفصل الرابع

مقاييس النقد عنده

لم يكن التجويد الفني هو الأساس الوحيد الذي اعتمده الصفدي في تقديم النص والحكم له أو عليه ، بل لقد تعددت مقاييسه ، حسبما رآه وأملته عليه قيمه وذوقه ، فلم يسيطر على الصفدي ميله إلى الأدب فحسب ، حتى يجعله كالقاضي الجرجاني ، إذ ينفي كل عامل يمكن أن يدخل مزاحماً للميزان الفني في الحكم على النصوص أو تذوقها .

لكن الصفدى لم يصل إلى هذا التجرد الفني عند الجرجاني ، بل سيظل يحيا بين أهل عصره ، تزاحمه الى النصوص قيم هذا العصر ومثله وتقاليده .

وهذه الأسس المعتمدة لديه حسب أهميتها في نقده هي :

الأساس التأثري :

إن أول ما يهتم به الصفدى في النص ؛ هو أثره في نفس المتلقي ، وإقامة الصياغة إنما هي لتحقيق هذا التأثير عنده .

فهو يؤاخذ ابن الأثير بما ذكره في ذم الدنيا وما أورده من العبارات المتداولة فيها ، حتى اتهمه الصفدي بالركة والعامية ثم قال : « والناس يذكرون

مثل هذا ، ولكن يدرجونه في عبارة تكون مفحّلة ، لها وقع في النفس[1]» .

كما يستنطق النفسَ في نقده عبارة ابن الأثير ، في وصف كلام بالفصاحة : « إنه يستميل سمع الطروب ، ويستخف وقار القلوب — ليقول — : ولا يقال طروب إلا لمن يميل لأدنى لذة ، ويتحرك لأقل نغمة ، ولهذا قيل : المستعد للشيء يكفيه أدنى سبب ، وإنما المدح أن يقال : يستميل من لا يرتاح للطرب . . »[2] .

وكم يلح على اختيار الألفاظ التي تضع المرء في الجو النفسي الذي يتطلبه المقام ، ليترك في النفس الأثر العميق المنشود « فذكر النار والقيامة أمر مهول ، ويحتاج الى ألفاظ مفخمة ، تهول السمع ، وتسيل الدمع ، وتقشعر لها الجلود ، وتنفطر لها الكبود ، . . كما أن أوصاف الجنة لها ألفاظ تخصها ، عذبة سهلة لذيذة الى السمع . . . ألا ترى أن المديح له ألفاظ تخصه ، والهجاء له ألفاظ تخصه فيذكر الرأس والفرق في المديح ، والدماغ والقذال في الهجاء[3]» وذلك لتحمل شعور القائل وتعبر عما في نفسه من جهة ، ولتنقل الى المخاطب ما فيها من قيم شعورية عالية فتُحدث في نفسه أبلغ الأثر من جهة أخرى .

كما يؤكد الصفدي على إحداث هذا الأثر في نفس السامع ، من خلال الألفاظ المؤدية ، في إيراده وصف أبي زبيد الطائي للأسد في مجلس عثمان ، ويختم وصفه بهذه الأبيات :

عَبوسٌ شَموسٌ مُطْرَخِمٌّ مُكابِرٌ ... جَريءٌ على الأَعداءِ لِلقِرنِ قاهِرُ
بَراثِنُهُ شُثْنٌ وعَيْناهُ في الدُّجى ... كَجَمْرِ غَضًا في وَجْهِهِ الشَّرُّ طائِرُ
يُدِلُّ بِأَنْيابٍ حِدادٍ كأنها ... إذا قَلَّصَ الأَشْداقَ عنها خَناجِرُ

(١) نصرة الثائر ١١٧
(٢) « « ١٢٤
(٣) « « ١٣٩

« قال الراوي : فحبق أحد الحاضرين ، فقال له عثمان رضي الله عنه : مه رضّ الله فاك ، فلقد رعبت المسلمين » .

ويعقب الصفدي بقوله : « فانظر الى هـذه الألفاظ ومواقعها في النفس ، كأنها أسودٌ تلتهم ، أو أساود تلتقم ، هل يحسن شيء منها أن يكون في وصف ظبي أو طاووس . . ! »[1]

كما يعترض الصفدي بعنف على أسلوب الرسالة التي أملاها أبن الأثير لترسل الى المحبوب الهاجر فيقول في ذلك : « إنني ما سمعت ولا رأيت ، ولا أسمع ولا أرى بمن راسل محبوبه بمثل هذه الأشياء ، وتهدده بأن العشق يزول بالصدود والزيادة في الحد نقص في المحدود ! هذه العبارة والتهديد تصلح أن تكون في حق عدو خرج عن الصداقـــة الى العداوة ، أو مسؤول أكثر الظلم والفساد في البلاد والعباد .

« أمـا وقف على شعر المتيمين من العرب الذين خاطبوا أحبابهم ، وتوسلوا في طلب الوصال ، وتلطفوا في طلب الرضى والمساعدة على الهوى . . . فإنه إن كانت الرقة واللطافة والاستكانة خُلقت لشيء فما أدري أحداً أوْلى من العشاق في هذه المقامات »[2] .

هكذا يطلب الصفدي أن يكون الكلام مناسباً ، بحيث يُحدث في نفس المتلقي الأثر المنشود ، فيكون النص الأدبي قد أدّى الغاية منه في نقل شعور القائل الى الآخرين .

(١) نصرة الثائر ١٣٩
(٢) « « ٢٤٥

الاساس الديني :

وكذا فإن الصفدي يعتمد موافقة الدين في نقده للنصوص . وقد رأينا كيف بدأ مسائل كتابه مع ابن الأثير بمؤاخذته ، لأنه لم يبدأ كلامه بحمد الله ، بل بدأه بقوله « نسأل الله أن يبلغ بنا من الحمد ما هو أهله » وذكّره بالحديث الشريف « كل كلام لا يُبدأ فيه بحمد الله فهو أجذم » ثم قال فيه « فلو قال الحمد لله لكان أفضل »(١).

وكذلك أورد لابن الأثير قوله يمدح خطاباً : « ولما وقفت عليه قلت : سبحان من أعطى سيدنا فلم يبخل ، وخصه بنبوة البيان الا أنه لم يرسل ، ولولا أن الوحي قد سُد بابه لقيل هذا كتاب منزل » .

فرد الصفدي قائلاً : « في هذا من إساءة الأدب ما فيه ، وللإنسان عن مثل هذا المدح مندوحة تخرجه من هذه المضائق . وقوله : وخصه بنبوة البيان الا أنه يرسل ، مأخوذ من قول أبي العلاء المعري :

لولا انْقِطاعُ الوَحْيِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ... قُلْنا مُحَمَّدُ مِنْ أَبِيهِ بَدِيلُ
هو مِثْلُه في الْفَضْلِ إلاَّ أنَّهُ ... لَمْ يأتِهِ بِرِسالةٍ جِبْرِيلُ

وقد كفّر قائل مثل هذا »(٢).

ويقول الصفدي تعليقاً على قول ابن الأثير في حديثه عن سورة الفاتحة : « فانظر الى هذا الموضع ، وتناسُب هذه المعاني الشريفة التي الأقدام تكاد تطأها ؛ والأفهام مع قربها صافحة عنها . . . أقول : أكذا يقال بعد ذكر أسرار القرآن

---

(١) نصرة الثائر ٥٥
(٢) « « ٢٨٠

الكريم . وايضاح غامضه ! وما أفاد قوله (المعاني الشريفة) وتأدبه ، بقوله : (تكاد الأقدام تطأها) ؟

وكان الأحسن أن لو قال : فانظر الى هذه المعاني الشريفة ، كيف غدت شموسها ضاحية ، والبصائر عن ادراك ضيائها لاهية . أو أن يقول : تكاد تيجانها تقع على المفارق ، والأذهان عاطلة الجيد من درها المتناسق »[1] .

ويطالعنا الأساس الثالث مما يعتمده الصفدي في نقده وهو :

الاساس الاجتماعي :

حيث يراعي الصفدي مقام المخاطَبين ؛ ممن يحظى بمنزلة تؤهله لاحترام الناس ، ويطالب الأديب بأن يكون على الكياسة واللباقة عند حديثه عن أمثال هؤلاء ، كما أنه يحبذ أن تكون آراؤه منسجمة مع آراء غيره من الأدباء ما أمكن ، فإن حصل ذلك فسرعان ما يستشهد بقولهم تدعيماً لما جاء به « قال ابن الأثير : وقد استعملت أنا هذا في تقليد لبعض الملوك من ديوان الخلافة فقلت : (وإذا استعنت على عملك بأحد فاضرب عليه بالأرصاد ، ولا ترض بما عرفتــه من مبدأ حاله فإن الأحوال تتنقل تنقل الأجساد ، وإياك أن تخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد) .

فجاء رد الصفدي : (قوله كما خدع عمر ؛ في هذا القول إساءة أدب على عمر رضي الله عنه من نسبته الى أنه خدع ، والأدب في مثل هذا أحسن ، ودفــع الانخداع عنه أليق . ألا ترى الى قوله تعالى حاكياً عن يوسف عليه السلام (من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي) فنسب ما وقع بينهم الى الشيطان تأدباً مع إخوته عليهم السلام . وما أحسن قول الشاعر :

---

(١) نصرة الثائر ١٢٧

حُجَجي عليكَ إذا خَلَوْتُ كثيرةٌ   وإذا حضَرْتَ فإنَّني مَخْصُومُ

لا أستطيعُ أقولُ أنت ظلمتَني   اللهُ يَعْلَمُ أنَّني مَظْلومُ

« فانظر الى أدب هذا الشاعر وتلطفه مع محبوبه وإجلاله له . وكان الأحسن أن لو قال : وإذا استعنت على عملك بأحد فلا تثق منه بلمع السراب ، واكشف بيد أرصادك عن وجه سيرته حجاب النقاب ، وتيقظ لأموره فلا ترض بالظاهر العامر وتنسى الباطن الخراب ، وتخيل من مكره ما تحيل به الربيع بن زياد على عمر بن الخطاب .

فإن نسبة الحيلة الى الربيع أحسن في الأدب من نسبة الخدع الى عمر رضي الله عنه [1] » .

ومن ذلك نقده لعبارة ابن الأثير في وصف كلام بالفصاحة « وهو فوق الكلام المجيد ، ودون القرآن المجيد » بقوله : ما رأينا من مدح كلاماً ولا قرظه بمثل هذا ، وفي أفانين المدح وضروب الثناء عن ذلك مندوحة . ألا ترى أن رسول الله ﷺ سيد ولد آدم ، ومع هذا فما سمعت أحداً مدح آخر فقال له : أنت دون النبي عليه السلام . لأن لفظة دون وأقل وتحت ما تستعمل في جانب الممدوح [2] » .

أما ميله لتأييد الأدباء والاستناد إلى ما يقولون ؛ فقد كان نامياً في كتابه (نصرة الثائر) أما في كتابه (الغيث المسجم) فيبدو أن ملكته قد اكتملت ، وآراءه قد أصبحت محل اعتزازه ، وذوقه مقدم عنده ؛ ولو كان في ذلك مخالفة ما تعارف عليه الأدباء وجمهور العلماء [3] .

---

(١) نصرة الثائر ٧٠

(٢) « « ١٢٣

(٣) انظر ص ٢٢٣ من هذه الدراسة

ومن أمثال ذاك في « نصرته » قوله في معرض حديثه عن أبي نواس وأبياته في الخمر وتصاوير الكأس « أقول كفي بهذا الرجل - رحمه الله - أن يقول مثل هذا القول ، وما أعرف كتاباً من أمهات كتب الأدب مثل الروضة للمبرد ، والذخيرة لابن بسام ، وزهر الآداب للحصري ؛ إلا وقد تضمن ذكر هذه الأبيات والثناء عليها .

« وحسبك بكلام يثني عليه أبو عثمان عمرو الجاحظ وهو أحذق أئمة الأدب ، وأعرفهم بما يقول ، وأبصرهم بمدارك العقول ، وقوله في مثل هذا حجة ، وما قرره في الأبيات هو المحجة . وما أحسن قول القاضي الفاضل (وأما الجاحظ رحمه الله ، فما منا معاشر الكتاب إلا من دخل من كتبه الحاره ، وشن الغاره ، وخرج وعلى الكتف منها كاره) .

« وقد أولع الفاضل - رحمه الله - بذكره في ترسله ، وذكر تصانيفه ، ولو لم يكن له من كتب الأدب إلا كتاب البيان والتبيين لكفاه ذلك فخراً [1] » .

بهذه السلسلة من الدعائم يعضد الصفدي رأيه ويشد أزره .

كما علق على بيت المتنبي :

أَزورُهُمْ وسَوادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لي — وأَنْثَني وبَياضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بي

« وما رأيت من عاب هذا البيت ولا هذه القافية ، وإنما هو معدود في المحاسن التي انفرد بها أبو الطيب [2] » .

ويدفع عن المعري اتهام ابن الأثير بالتعصب المتنبي بقوله : « إن المعري معذور في تفضيل المتنبي على غـيره ، وليس هو ببدع في ترجيحه على غيره من الشعراء ، فأكثر الناس على هذا المذهب [3] » .

---

(١) نصرة الثائر ١٩٤

(٢) « « ١٣٦

(٣) « « ١٧١

ولقد كان من الممكن إغفال هذا الجانب عند الصفدي بعد أن أقلع عنه في أواخر كتبه وحياته وغدا ذوقه وآراؤه هما مباءته في نقده ، لولا أن صورة هذا الجانب اللين قائمة في كتابه نصرة الثائر ، وهو هنا محط اهتمامنا وهدف أضوائنا .

وفي تلمسنا لمقاييسه وما اعتمده من أسس في نقده ، نرى أن الأساس الثقافي، كان له دور بارز في موقفه من النصوص وأحكامه فيها .

الاساس الثقافي

فإذا لاحظ الصفدي في النص خطأ يمس حقائق المعرفة أنكر ذلك ، ولم يعد يلتفت الى القيم الفنية فيه .

قال ابن الأثير « ومن ذلك ما كتبته في جواب كتاب يتضمن إباق غلام فقلت : (وأما الإشارة الكريمة في أمر الغلام الآبق عن الخدمة ، فقد يفر المهر من عليقه ، ويطير الفراش الى حريقه) .

فرد الصفدي : (أما الفراش فما يَحسن أن يقال فيه : قد يطير الى حريقه ، فإن (قد) هنا للتقليل مثل : قد يكبو الجواد ، وكما قال : قد يفر المهر من عليقه . أما الفراش فما رأى النار إلا وألقى نفسه فيها ، هذا هو الغالب ولا كذلك المهر .

« قال أبو العلاء المعري في وصف أسد :

بَـدَا فَدَعا الفَراشَ بِناظِرَيْهِ كَمَا تدعوه موقدَتا ظلامِ[1]

كما ينكر الخطأ النحوي في « قول شمس الدين محمد بن التلمساني :

يا ساكناً قَلْبي المُعَنَّى وليسَ فيه سِواهُ ثانِ

---

(١) نصرة الثائر ١٤١

لأيِّ معنىً كَسَرْتَ قَلْبي   وما ٱلْتَقَى فيه ساكنانِ

فيقول « هذا المعنى رأيت جماعة من أهل العصر قد لهجوا به واستحسنوه ؛ وهو فاسد . وذلك أن القلب وعاء للساكنين والظرف غير المظروف ، والقاعدة أن الساكنين إذا التقيا كُسر الثاني منها ، وإذا كسر قلبه فليس بعجيب لأنه غير الساكنين ، وليس واحداً منها ، فما لإ نكاره عليه معنى . فتأمل ذلك يظهر فساده(٢) » .

الاساس الفني :

ونتوجه أخيراً الى أوسع أسس النقد عنده ، وهو الأساس الفني الذي يتلمس فيه سر الجمال والإثارة والتأثير في النـــص ، بالنظر في عناصره الأولى ومكوناته الأساسية ، بعيداً عن الاعتبارات الأخرى .

ويبدو أن سمو النفَس الشعري في النص هو الذي يبعد الناقد الصفدي عن أن يلتفت الى مقياس ثقافي أو اجتماعي أو ما شابه ذلك ، فيجذبه الى ما فيه من فكر مثير ، أو انفعال غامر ، أو اسلوب قوي رائع ، أو صنعة موفقة . فها هو ذا ينقل إلينا نصاً من إنتاج عصره في وصف معركة .

يقول بدر الدين أبو المحاسن يوسف المهمندار سنة ٦٨٩ :

لو عايَنَتْ عَيْناكَ يَوْمَ نِزالِنا   والخَيْلُ تَضْبَحُ في ٱلْعَجاجِ الأَكْدَرِ
وَسَنا الأَسِنَّةِ والضِّياءُ مِنَ الظُّبا   كَشَفَا لأَعْيُنِنا قَتــامَ العِثْيَرِ
وقَدِ اطْلَخَمَّ الأَمْرُ واحْتَدَمَ الوَغَى   وَوَهَى الجَبانُ وساءَ ظَنُّ المُجْتَري

---

(١) نصرة الثائر ٢٢٣

لرأيتَ سَدّاً من حديدٍ مائراً فوقَ الفُراتِ وفوقَهُ ناراً تُري
حتى سَبقْنا أَسْهُماً طاشت لنا منهم إلينا بالخيولِ الضُّمَّرِ
طَفَرَتْ وقد منعَ الفوارسُ مدَّها تجري ولولا خيلُنا لم تطفرِ
لم يفتحوا للرَّمي منهم أعيُناً حتى كُحِلْنَ بكلِّ لَدْنٍ اسْمَرِ
ما كان أجرى خيلَنا في إثْرِهِمْ لَوْ أنَّها برؤوسِهِمْ لم تعثُرِ
فتَسابَقوا هَرَباً ولكنْ رَدَّهُمْ دونَ الهَزيمَةِ رُمْحُ كلِّ غَضَنْفَرِ
كَمْ قَدْ فلَقْنا صَخْرَةً مِن صَرْخَةٍ ولَكَمْ مَلأْنا مَحْجَراً من مِحْجَرِ

قال الصفدي : « فانظر الى هذه الألفاظ المفخمة التي أتى بها هذا الشاعر البليغ في وصف هذا المقام المهول ، وأظن هذه الأبيات نظمها مهمندار العرب في واقعة الملك الظاهر رحمه الله ، لما ألقى روحه في الفرات ، ورمى الجيش نفوسهم خلفه [1] » .

فقد أخذ الصفدي هنا بقدرة هذه الألفاظ على وضعنا في جو المعركة ، بمعانيها وإيحاءاتها وأصداء حروفها .

« وما ألطف قول ابن المعتز :

وابَلائي في مَحْضَرٍ وَمَغيبِ مِنْ حَبيبٍ مني بَعيدُ قَريبِ
لم تَرِدْ ماءَ وجْهِهِ ٱلعَيْنُ إلاَّ شَرِقَتْ قَبْلَ رِيِّها بِرَقيبِ

(١) الغيث المسجم ٢ / ٣٩ - ٤٠

« قلت ما أحــلى استعارته الشوق والورد والري لماء الوجه ، فهكذا يكون الشعر [1] » .

ولا بأس عند الصفدي ـ وهو ابن عصره ـ من توفير وجوه البديـع إذا كان يفضي الى معنى ، أو يزيد المعنى عمقاً وبياناً .

« حكى الشيخ العلامة غرس الدين أبو بكر الإربلي صاحب كتاب (الألفية في الألغاز المخفية) إن الصاحب شرف الدين مستوفي إربل أنشده لغيره :

عَلى رَأْسِ عَبْدٍ تاجُ عِزٍّ يَزِينُهُ　　وفي رِجْلِ حُرٍّ قَيْدُ ذُلٍّ يَشِينُهُ

فقال غرس الدين المذكور بديهاً :

تَسُرُّ لئيماً مَكْرُماتٌ تُعِزُّهُ　　وتُبْكي كَرِيماً حادِثاتٌ تُهِينُه

« وقلت هذا أحسن في البديهة ولكنه ناقص عن الأول من وجهين :

الأول : أن الأول قابل ستة بستة لا شك فيها ، وهو قابل أربعة بأربعة .

الثاني : أن المقابلة في قوله تحتاج الى تأويل ، لأن السرور يقابله الحزن ، فكان ينبغي أن يقول : وتحزن . . . ولكن لما كان الغالب أن البكاء إنما يكون من الحزن أطلق البكاء هنا على الحزن . ولأن المكرمات لا تقابل الحادثات إلا بتأويل أن المكرمات تكون في الخير والحادثات تكون في الشر .

« وأكثر ما عدّ الناس في المقابلة بيت أبي الطيب [2] لأنه قابل فيه بين ستة كما ترى ، فهذا أبلغ ما يمكن أن ينظم في هذا المعنى والله أعلم [3] » .

---

(١) الغيث ١ / ٢٣٨

(٢) البيت : أزورهم وسواد الليل يشفع لي　　وأنثني وبياض الصبح يغري بي

(٣) الغيث ١ / ١٧٤

وكم يطرب للخيال الصائب ؛ إذ يلفت الى أبرز جوانب الصورة ليدع لخيال المتذوق مجال الانطلاق واستكمال خطوط الصورة ، فتكون المتعة أكمل ، والنشوة أطول ، وذلك في قول ابن الساعاتي :

وَلَكَم رَمَيْتُ حَشا ٱلفَلاةِ بِأَسْهُمٍ بَعَثَتْ حَنايا أَيْنُقٍ وَرَكائِبِ
مِن كُلِّ مُنْتَصِبٍ وآخرَ ساجِدٍ وَسْنَى كما اخْتَلَفَتْ أَنامِلُ حاسِبِ

« قلت : هذا التشبيه في غاية الحسن لأن أنامل الحاسب ، واحدة ترتفع وأخرى تنخفض . وهكذا الركب في وقت السرى إذا غلب عليهم النعاس . ترى هذا قد هوى بعدما ارتفع ، وهذا قد انتصب بعدما هوى (١) » .

وهكذا نلم بمقاييس الصفدي في النقد ، وأوسعها مدى وأشملها لغالب ما عالج من نصوص هو مقياس الفن ، إذ يلتفت فيه الى توفر عناصر الشعر ومدى الإبداع فيها .

كما كان من هذه المقاييس : المقياس التأثري ، والاجتماعي ، ثم الثقافي ، مع ملاحظة أن النص البارع في ميدان الفن الشعري ، لا يسمح للناقد بالابتعاد عنه الى جوانب اخرى ، وبقدر احتجاب عناصر هذا الفن يكون التفات الناقد صوب مقاييس النقد الدخيلة الأخرى ، التي لا تمت بصلة الى الشعر ونظمه .

★ ★ ★

(١) الغيث ١ / ١٨٨

الباب الثالث

الحياة الأدبية والنقدية في القرن الثامن

الفصل الأول

صورة العصر الأدبية

لن يبقى الحديث في هذا الفصل محصوراً في حدود الصفدي الناقد ، بل سينطلق منه ليضم ما يعين على رسم صورة واضحة لحال الأدب ونقده آنذاك ، مما تناثر من أقوال ونصوص ، وستبقى كتب الصفدي وما ورد فيها المحور الذي تدور من حوله الأبحاث ، والمنهل الذي تصدر عنه النصوص والآراء ، والكوة التي نطل منها على أحوال العصر الأدبية آخر الأمر .

مع الإشارة الى أن أهمية النتائج تحتم أن تكون النصوص بحدودها الواضحة ، هي الأساس الذي يجب أن تقوم عليه كل حقيقة وردت في هذه الدراسة ؛ مهما دقت وبدا شأنها هينا .

مفهوم الادب

لقد كان يفهم من الأدب في عصر الصفدي النثر الفني والشعر ، دون أن يختص ذلك بالنتاج الرفيع منهما .

ففي ميدان النثر الفني شمل هذا المفهوم كل ما سطّره الكتّاب في الترسل والخطب والمقامات والإخوانيات وتواقيع الحكام .

وكذلك ضم هذا المفهوم من رياض الشعر كل ما عبر به الشعراء في أحداث العصر وحوادث المجتمع من القصائد، إلى جانب المقطعات والأبيات الثُنى التي كان ينظمها العلماء والمتأدبون تظرفاً وتسلية وإظهاراً للمعرفة والقدرة.

بيد أن النقد ميز بين نوعين من هذا الإنتاج الأدبي. نوع كتبه أصحابه؛ وأبواب البديع تتسابق نحوهم، ووجوه الصنعة ماثلة لعيانهم، وصنوف التكلف تستنفد جهدهم. تدفعهم إلى هذا وتحدوهم فيه غاية تعليمية، إذ يجد المتأدب بغيته في نص أدبي جذاب.

أما النوع الثاني؛ فقد دعا فيه النقاد إلى نبذ التكلف، والابتعاد عن كل ما يسيء الى الشعور الذي يجب أن يحقق امتداده الكامل؛ إذ لا يليق التكلف في مثله.

ولنترك الحديث للصفدي ونصوصه نتلمّس من خلالها ما قصده القوم من كلمة الأدب في عصرهم الذي كان القرن الثامن واسطة العقد فيه.

قال الصفدي بعد أن أورد لابن الأثير قوله: « وقد سلك قوم في منثور الكلام ومنظومه طرقاً خارجة عن موضوع علم البيان، وهي بنجوة عنه، لأنها في واد وعلم البيان في واد. فمن فعل ذلك الحريري صاحب المقامات، فإنه ذكر تلك الرسالة التي هي كلمة معجمة وكلمة مهملة، والرسالة التي هي حرف من حروف ألفاظها معجم والآخر غير معجم، ونظم غيره شعراً آخر كل بيت منه أول البيت الذي يليه، وكلّ هذا وإن تضمن مشقة من الصناعة فانه خارج عن باب الفصاحة والبلاغة ».

ويرد الصفدي موضحاً ما التبس على ابن الأثير مبيناً غاية الحريري من صنيعه ذاك فيقول: « إن الحريري رحمه الله تعالى لم يأت بما أتى به من هذه الأنواع، وادعى أن هذا هو الفصاحة والبلاغة، وإنما أتى بذلك ليستوعب أنواع الأدب،

ويبين للأديب ما يلزمه معرفته ، وكل ذلك دليل القدرة والتمكن ، ولو أن الحريري فعل ذلك في المقامات كلها لكان غير حسن[1] » .

وهكذا كشف لنا هذا النص على إيجازه عن الحقائق الأساسية في مفهوم الأدب . فالمقامات من النصوص التي دفعت إليها الغاية التعليمية من جهة وإظهار المقدرة والاطلاع والتمكن من جهة أخرى ، كما يؤكد لنا هذا النص أن هذه المهارة في استخدام ألفاظ اللغة تعد من أنواع الأدب ، إضافة إلى اعترافهم بأن هذا التكلف حتى ولو كانت غايته تعليمية فيجب أن لا يغلب على المقامات ، وإلا سمج وثقل على النفوس .

ويتابع الصفدي كلامه ليفصل بوضوح بين نوعي النصوص الأدبية بحسب الغاية الدافعة إلى ذلك فيقول :

« ومثل هذه الأشياء من اللغز والأحجية والأغاليط ، والإتيان بالكلمة المعجمة وبعدها المهملة ، وبالحرف المعجم وبعده المهمل ، أو صدر بيت كذا وعجزه كذا . . . كل ذلك لائق بالمقامات .

أما في الترسل والخطب ، فإنه يكره ويستثقل ، لأن الترسل ليس المراد منه التفقه في الأدب ؛ وإنما هو لهناء أو عزاء أو شكر أو مدح أو وصف أو استعطاف أو عتب أو شوق أو غير ذلك . ومثل هذه الأشياء لا يليق بها التكلف . على أنه وإن كانت هذه الأنواع في المقامات فينبغي أن تكون كاللمع اليسيرة ، فإنها إذا كثرت سمجت . ألا ترى أن العماد الكاتب ـ رحمه الله تعالى ـ لما جعل كلامه مشحوناً بالجناس . . . ثقل على الأسماع والقلوب . وأما ابن الأثير فكأنه يظن أن الأدب عبارة عن الترسل فقط ، ولم يعلم أنه جزء منه ، وإن كان جزءاً كبيراً ونوعاً جليلاً[2] » .

---

(١) نصرة الثائر ٣٦٩ (٢) المصدر السابق

فالترسل والخطب في نجوة من التكلف ، فذلك شيء لا يليق بها كما يقول ، لأنهـــا تعبر عن الحالات الشعورية ، وانفعالات النفس في روابطهـا الاجتماعية وعلاقاتها الإنسانية .

أما التكلف والصنعة فيجب أن يكون الأمر فيهما معتدلاً ؛ حتى في النصوص التي تدفع اليها الغاية التعليمية والتفقه في الأدب ، لتضمن استمرار تقبل النفس لها فلا تنفر عنها . وكل هذه النصوص من شـــعر ونثر على اختلاف أنواعها وتباين منطلقاتها النفسية إنما يشملها عنوان « الأدب » ويحيط بها مفهومه في عصر الصفدي ذاك .

المُثُل الأدبية العليا

من الثابت أن معرفة الآثار الأدبية التي تشكل المثل الفني الأعلى للأدباء في عصر ما ، ذات أهمية كبرى في معرفة السبل التي يسلكونها في التعبير عن أفكارهم وذات نفوسهم ، وفي تلمس طريق الأساليب التي يتبعونها ، ومصادر ذلك كله ، لتحديد ما أخذوا وما قدموا ، كما تفيد في تفسير ظواهر العصر الأدبية بعد ذلك .

القرآن الكريم :

يحدثنا الصفدي بأن القرآن الكريم بمعانيه الغنية ، وأساليبه الرفيعة كان مصدراً هاماً للاقتباس ومثلاً أعلى للاحتذاء ، يوصي بذلك السلف خلفه والمعلم تلميذه . وفي ذلك يقول الصفدي : « أما الكاتب فيحتاج الى حفظ الكتاب العزيز وإدمان تلاوته ليكون دائراً على لسانه ، جارياً على فكرته ، ممثلاً بين عيني ذاكرته لينفق من سعته [1] » . فإذا كان الصفدي قد جعل حفظ القرآن الكريم ضرورة فإن ابن الأثير ضم إليه الشاعر كما رأينا في حينه .

وقد آتت هذه الدعوة أكلها بين الأدباء ، ولكنها كانت ثماراً فجة ؛ إذ لم تتفاعل معاني القرآن الكريم مع نفوسهم لتغنيها بالأفكار والمعاني وتتعمق بهم في فهم النفس الانسانية ، أو يحلقون معها في أجواء التأمل الفسيحة . . لم يكن شيء من هذا ، بل قصارى ما وقع ؛ هو أن تناثرت على السطح مما يقولون من شعر أو

(١) نصرة الثائر ٦٤

نثر ألفاظ من القرآن الكريم ، أو آيات لم تستطع أن تنسجم مع ما يجاورها من من أقوالهم ، فاقامت بينهم غريبة لا تمت إليهم بصلة .

وقد اكتفوا هم بهذه النتيجة قانعين ، واعتبروا ذلك كافياً للارتفاع بالنص الأدبي ، وشافعاً له إلى القلوب ، ومجنّناً من الإيراد عليه .

وغدونا نسمع كثيراً من أمثال قول الصفدي في نقده نصاً لابن الأثير : « لولا أنه ختم ببعض آية من القرآن لكان سمجاً »[1] .

وقوله كذلك تعليقاً على قول أبي الحسين الجزار :

قُلْتُ لما سَكَبَ السَّا قي على الأَرْضِ الشَّرابا
غَيْرَةً مِنّي عَلَيْهِ لَيْتَني كُنْتُ تُرابا

« فان هذا أتى بلفظ القرآن العظيم ، فكان له في السمع وقع وفي القلب حلاوة[2] » ، كما بدا تأثرهم سطحياً بأسلوب القرآن الكريم ، فرأى ابن الأثير « أن سورة النجم مسجوعة على حرف الياء » . فرد عليه الصفدي بأن « السورة مسجوعة على حرف الألف المقصورة » فكسوْا أساليبهم بالسجع وهم يعلمون أن أسرار إعجاز القرآن كثيرة ، أشار الصفدي الى بعضها في كتابه ، لكن السجع أيسرها تحقيقاً .

وكان من تأثرهم بأسلوب القرآن كذلك اهتمامهم البالغ بحسن التخلص ، فأحسنوا الانتقال بين المعاني وأتقنوا ذلك وتنافسوا فيه . وقد كشف الصفدي عن هذا بنص نسبه إلى أبي العلاء المعروف بالغانمي جاء فيه :

« إن كتاب الله خال من التخلّص ، إنما هو الخروج من كلام إلى كلام

---

(١) نصرة الثائر ص ٣٠١
(٢) « « ٢١٥

آخر بلطيفة تلائم بين الكلامين الذي خرج منـه والذي دخل إليه » . وما هو التخلص إن لم يكن الخروج من كلام الى كلام آخر بلطيفة تلائم بين الكلامين...

أما رأي الصفـدي فهو أن « القرآن جميعه متعلق بعضه ببعض ، كالخروج من الوعظ والتذكير الى الإنذار أو إلى البشـارة أو إلى أمر أو نهي أو وعيد إلا ما خفي تعلقـــه في الظـاهر . . . . وإلا متى تدبَّر الانسان ذلك وتأمـله حق التأمل ؛ لم يجده مقطوعاً إلا فيما هو معلوم الاقتضاب (١) .

ولم يتوقف تأثر القوم بأساليب القرآن عند هذا . فابن الأثير يقول بعد أن أنكر عدم تناسب المعاني في قول الشاعر « كنت أرى هذا الضرب واجبـــاً في الاستعمال ، وأنه لا يحسن الحيد عنه ؛ حتى مر في القرآن الكريم ما يخالفه كقوله تعالى : « أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيـأوا ظلاله عن اليمـين والشمائل »(٢) . والصفدي يدّعي أنه « ما أخذ الناس خطاب العظيم بلفظ الجمع إلا من القرآن العظيم » (٢) .

وبذا يكون تأثر الكتّاب بالقرآن الكريم وأساليبه موصولاً مستمراً كلما لاحظ أحـــدهم أن في القرآن الكريم ما يخالف طريقة اتبعها أو أسلوباً درج عليه ، بيد أنه بقي تأثراً سطحياً لم يتجاوز القواعد الشكلية في كتابة ذلك العصر .

مقامات الحريري :

تشكل المقامات زمن الصفدي إحدى الركائز الأساسية في ثقـــافة الأديب ومحفوظه ، « يتداولها الناس ويتعاطون كؤوسها ، ويتمثلون بأبياتها وأسجاعها ، ويكررون عليها من أولها إلى آخرها :

---

(١) نصرة الثائر ٣٦٢ وما بعدها
(٢) « « ٣٦٤

وَيَزيدُها مَرُّ اللَّيالي جِدَّةً وتَقادُمُ الأَيّامِ حُسْنَ شَبابِ

« وناهيك بكتاب اشتهر وضرب به المثل ، وأصبح إحدى الأثافي في علم الأدب ، وأصبحت ألفاظه ومعانيه حجة ، ونُقلت بها النسخ عدد حروفها .

وَسارَ مَسيرَ الشَّمْسِ في كُلِّ مَوْضِعٍ وَهَبَّ هُبوبَ الرِّيحِ في البَرِّ والبَحْرِ »

حتى غدا محفوظاً من قبل الجميع . وليس هذا فحسب ؛ بل يخبرنا الصفدي بأن صيت هذه المقامات وصل إلى الفرنج ، فكانوا « يقرأونها على ملوكهم بلسانهم ، ويصورونها ويتنادمون بحكاياتها » .

كما بلغ من شهرتها أن رائد كتّاب عصره أعلن عجزه عن محاكاتها . فقد أورد الصفدي عن شيخه شهاب الدين محمود « أن القاضي الفاضل ـ رحمه الله تعالى ـ أراد معارضتها وصنع ثلاث عشرة مقامة عارض كل فصل بمثله ، حتى جاء إلى قول الحريري في المقامة الرابعة عشرة . . (فمذ اغبرّ العيش الأخضر ، وازورّ المحبوب الأصفر ، اسودّ يومي الأبيض ، وابيضّ فودي الأسود ، حتى رثى لي العدو الأزرق ، فحبذا الموت الأحمر) فقال الفاضل : من أين يأتي الإنسان بفصل يعارض هذا .! ثم إنه قطّع ما كان عمله من المقامات » .

ويعقب الصفدي على هذا بقوله : « ناهيك بن يقول مثل القاضي الفاضل في حقه مثل هذا ، ويعترف له بالعجز »[1] .

ونسمع مثل هذا القول في المقامات من القلقشندي في حديثه عن الهمذاني بقوله « ثم تلاه الإمام أبو محمد القاسم الحريري ، فعمل مقاماته الخمسين المشهورة ،

---

(١) نصرة الثائر ص ٥٩ وما بعدها

فجاءت نهاية في الحسن ، وأتت على الجزء الوافر من الحظ ، وأقبل عليها الخاص والعام حتى أنْسَت مقامات البديع وصيرتها كالمرفوضة »[1].

وليس هذا فحسب ؛ فلقد زاد إعجابهم بها حتى جعلوا منها العصا السحرية التي تصنع الكتّاب والشعراء « ولهذا قال أشياخ الأدب : ما حفظ المقامات أحد ونسيها إلا نظم ونثر »[2] :

وشهرة المقامات هذه لم تتوقف عند المشرق وما يحيط به ، فلقد « سُئل ابن عمُيرة كاتب الأندلس : لأي شيء ما تصنع مثل المقامات ؟ فقال : أما الألفاظ فما أغلب عنها ، وأما تلك الأكاذيب التي تكذّبها فما أحسن أن أضع مثلها[3] :

هكذا يفسر ابن عميرة موقفه من المقامات ، إذ يَصِم صدقهـا الفني بالأكاذيب . بينما أدرك الصفدي أن المقامات « هي كتاب علم في بابه » و« لا نظير له في بابه ، وهو في الآداب :

شَمْسُ ضُحاها هِلالُ لَيْلَتِها دُرُّ تَقاصِيرِها زَبَرْجَدُها[4]

فكان الصفدي ـ بعباراته أعلاه وبما سيلي من تعليله سرّ رواج المقامات ـ قد وضع يده على فن القصة العربية في أولى نماذجها إذ يقول : « وما ذاك إلا أن هذا الكتاب أحد مظاهره تلك الحكايات المضحكة ، والوقائع التي إذا شرع الإنسان في الوقوف عليها تطلعت نفسه إلى ما تنتهي إليه ، وتشوقت نفسه إلى الوقوف على آخر تلك القصة .

« هذا إلى ما فيها من الحكم والأمثال التي تشاكل كتاب كليلة ودمنة ، وإلى ما فيها من أنواع الأدب وفنونه المختلفة »[5].

---

(١) صبح الأعشى ١٤/١١٠ - ١١١
(٢) الغيث المسجم ١/١٥٨
(٣) نصرة الثائر ص ٥٧
(٤) المصدر السابق
(٥) » » ٥٩

وبذا سمت مقامات الحريري حتى غدت إحدى المثل الأدبية العليا في ذلك العصر ، وبدا طبيعياً أن يتأثر بها الكتاب والشعراء ، فيغترفون من معانيها ، ويتمثلون بأسجاعها ، ويقبسون من روحها في أسلوبها ؛ علهم يحظون بشيء مما نالته ووصلت اليه .

رسائل القاضي الفاضل :

ويطالعنا الأثر الثالث من المثل الأدبية العليا في عصر الصفدي ، ذلك هو أسلوب الفاضل وطريقته في كتابته .

ويبدأ الصفدي بتقديم الفاضل إلينا بقوله معرّضاً بابن الاثير : وأين مقاصد الفاضل وبعد مرماه ، واختلاسه المعاني باطف مغزاه وخفي مسراه ! هيهات ، فإن بينهما من الفرق ، ما بين ذل القدم وعز الفرق . ولطف ذلك لا يخفى على ذوق الكاتب الماهر ، وحسن معانيه في الباطن أضعاف كلامه في الظاهر (١).

إذن فمزايا الفاضل في نظر الصفدي هي توخّيه سعة المعاني متجاوزاً حدود الألفاظ ، وأخْذه معاني غيره واستعمالها في إنشائه بلباقة وقدرة لا يشعَر معهما باختلاسها ، ثم يميزه أخيراً بالإيجاز والتركيز إذ يؤدي المعاني الغنية بألفاظ قليلة .

كما يتحدث في نص آخر موضحاً ما يأسره في كتابة الفاضل ، بعبارات قد لونتها مشاعره ، وشابها إعجابه بأسلوب التشخيص التصويري عند الفاضل فيقول :

« وأما القاضي ـ رحمه الله ـ فإنه سلك طريقاً غريبة ، وأظهر فنوناً عجيبة ، زعم بعضهم انه كان جل اعتماده على حفظ كلام ابن أبي الشخباء ، وأنه كان يستحضر أكثر كلامه . وبعضهم زعم أنه اعتمد على كلام ابن أبي الخصال ،

(١) نصرة الثائر ٥٣

وبعضهم زعم أنه اعتمد على كلام البديع . وهيهات ، ليس في كلام واحد منهم تلك النشوه ، ولا لمتكلم غيره تلك الحطوة في نيـل الحظوه ، ولا لمترسل حسنه الذي يشق قلوب الرجال إن لم يقطّع أيدي النسوة » .

ويستمر في وصفه كتابةَ الفاضـل بأسلوب غلب عليه الإعجاب ؛ فتاهت الحقائق في ثنايا ذلك بقوله : « بينا هو يخاطبك بالكلام إذا به قد عاطاك كؤوس المدام ، وبينا هو يناوح مهبك إذا به قد سحر لبك ، وبينا هو يتكلم مثل الناس على العادة إذا به قد سرد الكواكب الوقّادة ، وبينا هو قد ألفتك ظهره إذا به قد أدار لك المحيا ، وبينا هو يسايرك في الثرى إذا به قد تبختر عند الثريا :

فإنْ كانَ مِنْ دُرٍّ فما الدُرُّ هكذا وإنْ كانَ سِحْراً إنَّ ذا لَعجيبْ»(١)

بهذا الأسلوب العاطفي يكشف الصفدي عن جوانب الإبداع في كتابة الفاضل في نظره ، لكن قوله هنا ـ وإن خلا من الدقة ـ فإنه بعيد الدلالة على مدى ما كان لرسائل الفاضل في نظره من تأثير بعيد في الكتّاب والمتأدبين وكتابات العصر على وجه العموم .

ويبدو أن الفاضل قد احتل من نفوس الأدباء مكانا رفيعاً ، وأن ابن الاثير في مطاولته إياه إنما يروم صعباً ويبغي مستحيلاً . وقد أورد الصفدي بعضاً مما مُدح به الفاضل كان منها : « قول ابن سناء الملك :

شَهِدَ الْكامِلونَ بالفَضْلِ للفا ضِلِ أو كادَ يَشْهَدُ المَوْلودُ
وَعَدَ الدّهْرُ أَنْ يجودَ على الخَلْ قِ ولكِنْ بِمثْلِهِ لا يَجودُ

وابن قلاقس إذ يقول أيضاً فيه من جملة أبيات :

---

(١) نصرة الثائر ٩٣

وأَسْكَرَنا بَياناً دامَ حتى عَجِبْنا كيفَ حُذِّرْنا المُداما
مَعانٍ يَقْعُدُ الفُصَحاءُ عَنْها وتَسْمَعُها خَواطِرُهُمْ قِياما [1]

وقد سمت عندهم منزلة الفاضل الأدبية ، حتى قال الصفدي في معرض حديثه عن المتنبي « وما له عندي نظير غير القاضي الفاضل - رحمه الله تعالى - فإن الفاضل هكذا ينحط في بعض الأوقات إلى الحضيض ، ثم يثب وثبة تكون الثريا لها ثرى ، ويدع من اتبع أثره وقفا خُطاه وقد رجع القهقرى »[2] .

ثم ما لبث أن رفعه على المتنبي فقال « وهذان قد سار ذكرهما ، وثبت أمرهما ، وأسكرت الألباب خمرهما . . فالقاضي الفاضل - رحمه الله - انفرد بالترسل وانفرد المتنبي بالشعر مع ما لهما من الانحطاط ، ولكن انحطاط المتنبي أوضع وأشنع »[3] .

وهكذا احتل ترسل الفاضل مكانة في عصره سامية ، استمرت بعد رحيل الفاضل عن مسرح الحياة ، تفعل في الأساليب فعلها ، وتنتزع من الأدباء إعجابهم ، حتى قال فيه الصفدي ما قال . . وبينهما ما يقارب القرنين من الزمان .

وقد رأينا أن الصفدي لم يكن بدعاً في هذا ؛ إنما كان لعصره مرآةً صافية ، تعكس صورة صادقة لذوق العصر واتجاهاته الأدبية .

---

(١) نصرة الثائر ٥٣
(٢) « « ١٧١
(٣) « « ١٧٦

ثقافة العصر وأثرها في الانتاج الادبي

لم يعد الشعر في هذا العصر يتصف بالسذاجـــة في الفكر ، والبساطة في التخيل ، والعفوية في التعبير ، لأن شاعر هذا العصر ، كبَّل خياله بقواعد العلوم ، وربط بداهته بالعمليات المنطقية المعقدة ، وحوّل ذهنه المتوثب اللماح إلى وعاء للموجزات والنصوص العلمية . فسمج الشعر ، وثقلت روحه ، وخيمت عليه ظلال العلوم ، وتناثرت خلاله مصطلحاتها المحددة على اختلاف أنواعها ؛ غريبة عن النظم طافية على سطحه . أضف إلى ذلك إصرار المتعلمين جميعاً على دخول عالم الشعراء مكتفين بتحصيلهم علم العروض ؛ مما ساعد على فشوّ هذه الأساليب العلمية ، تعلوها وتشير إليها مصطلحاتها المقررة .

وقد يهون الأمر لو أن عقولهم تمثلت ثقافة العصر حتى غدت تكوّن مصادر أفكارهم وينبوعها الثر ، وأن نفوسهم تفاعلت بعمق مع هذه الثقافة ، إذن لانعكست عليهـــم غزارة في الأفكار ، وغنى في الأحاسيس . وتنوعاً في أساليب التعبير . فإذا أطلق أحدهم اللفظة فإنه لا يقصد بهـــا معنى قريباً ، أو مفارقة لفظية ، وإنما يعني بها ما وراءها من معنى واسع وإيحاء غني .

وقد لمس الصفدي هذه الظاهرة في شعر عصره فقال في ذلك : « وكل من عاني النظم وغلب عليه فن من الفنون ؛ مال به إلى ذلك الفن ، وغلبت عليه قواعده ، واستعمله في مقاصده الشعرية وتخيلات معانيه ، وظهر على مايرومه اصطلاح ذلك الفن وأحكامه . ألا ترى إلى أبي الفتح البستي ومقاطيعه المشهورة في الآداب والحِكم ، كيف يغلب عليها ألفاظ المنجمين[1]» .

---

(١) الغيث المسجم ١ / ١٢٤

والحق إن شعراء هذه الفترة لم يكونوا سواء حيال هذه الثقافة ، فقد ظهر منهم مَن مال اليها بطبعه ، فتعمقها حتى خالطت نفسه ، ولونت خواطره باونها الأصيل ، وغدت لألفاظها ومصطلحاتها صلات وثيقة مع ذات نفسه وأجوائهـا الفسيحة ، فغزُرَت أفكاره وغني تعبيره ، وبدا ذلك في شعره عميقاً رشيقاً مقبولاً .

وقد أشار الصفدي إلى أمثال هؤلاء فقال : « هذا الشيخ صدر الدين بن الوكيل ، لما كان الفقه يغلب على فنونه ، تجد كلامه في الغالب إذا خلا من القواعد الفقهية ينحط عن رتبة الحسن » .

كما يذكر الصفدي من هذه النماذج الناجحة قول « الشيخ العلامة تقي الدين ابن دقيق العيد رحمه الله تعالى :

كم لَيْلَةٍ فيكَ وَصَلْنا السُّرَى ... لا نَعْرِفُ الْغَمْضَ ولا نَسْتَرِيحْ
واخْتَلَفَ الأَصْحابُ ماذا الذي ... يُزِيلُ مِنْ شَكْواهُمُ أو يُرِيحْ
فَقيلَ لي تَعْرِيسُهُمْ ساعةً ... وقلتُ بل ذِكْراكَ وهو الصَّحيحْ

« قلت : انظر الى هذا النظم ما ألطف تركيب ألفاظه وأحلاه ، وكونه استعمل طريقة الفقهاء في البحث في ذكر اختلاف الأصحاب ، وأنه قيل كذا وقيل كذا وقلت كذا وهو الصحيح ، كأنه إمام الحرمين ، وقد ألقى درساً في مسألة فيها خلاف بين الأصحاب ، وقد رجّح ما رآه هو عنده من الدليل .

وكأن الصفدي لم يرتوِ من مزايا هذا النص فاستأنف مكرراً : « وما رأيت أحسن من هذا ، بينما هو يصف أحوالهم في السُّرى ومشاقّهم في التعب ، وتشاورهم فيما بينهم ، وما أشار به كل منهم في إزالة ما حصل لهم من العناء . إذا به قد برز من بينهم برأي أدخل فيه ذكر الممدوح ونصّ على تصحيحه ، فكأنه في حلقة

الدرس وقد شرع في مسألة خلافية .. ويَحوُم هذا النظم على غير الشيخ تقي الدين [1] » .

إذن فقد أعجب الصفدي بأمرين تحققا في نص تقي الدين :

أولها : هذا التصوير الحي للمشهد الناطق بأشخاصه وجلبتهم في تشاورهم ، فكأننا نشاهدهم بالنظر

ثانيها : إدخال ثقافته الفقهية بأساليبها ومصطلحاتها ، فلم تكن رُقعاً على النظم بل كانت روحه النابضة فيه ، والموحية بشاهدها من خلاله .

وهكذا تم التفاعل المثمر بين ثقافة منطقية وبين نفس شافّة شاعرة ، فكان من ذلك مثل هذا النص الذي لا يزال يغذو من رياض الشعر ، يجري فيه ماؤه ، وترفرف عليه روحه ، وتتراءى معه صُوَره ومشاهده ، حتى قال الصفـــدي : « وما أحق الشيخَ تقي الدين لو أنشد قول الأرّجاني :

أنا أَشْعَرُ ٱلْفُقَهاءِ غيرَ مُدافَعٍ ... في ٱلعَصْرِ لا بَلْ أَفْقَهُ الشُّعَراءِ

ويستمر الصفدى في عرض ثمار هذا التمازج الحي بين الثقـافة وشعراء العصر فيقول : « وما ألطف ابن سناء الملك في قوله :

وغانيةٍ لم تَعْدُ عِشْرِينَ حِجَّةً ... أَقولُ لها قَوْلاً لَدَيْهِ صَوابُ

عليكِ زَكاةٌ فاجْعَليها وِصالَنا ... فعُمْرُكِ في ٱلعشرينَ وَهْيَ نِصابُ [2] »

« وكما قال مجير الدين محمد بن تميم :

وصادِحةٍ تُرَدِّدُ لي غِناها ... فَتُطْرِبُني وأَجْهَلُ ما تَقولُ

(١) الغيث ١/١٢٣

(٢) نصرة الثائر ٢٥٠

بِلَحْنٍ حارَ إبراهيمُ فيه وَوَزْنٍ ليس يَعْرِفُهُ الخَليلُ[1]

« وقال أبو عُبيد البكري :

وما زال هذا الدَّهرُ يَلْحَنُ في الوَرَى فيَرفَعُ مجْروراً ويَخْفِضُ مُبْتَدا[2]

« وقد أحسن أبو الفتح البستي حيث قال :

حُذِفْتُ وغَيْري مُثْبَتٌ في مَكانِهِ كأنِّيَ نُونُ الجَمْعِ حينَ تُضافُ[3]

وإذا اتجهنا مع الصفدي صوب الشعر ؛ الذي علِقت به عبارات العلوم - ولحقت به مصطلحاته ، واكتفى أصحابه بهذا التأثر السطحي بثقافة العصر ، وأصرّوا مع ذلك على الظهور وعليهم أمارات العلم - وجدنا منه الكثير .

من ذلك قول السراج الورّاق وهو في موقفٍ من أكثر المواقف الإنسانية أسى وحزناً إذ وقف « يرثي الجزار بقوله :

رَفعوكَ وانْتَصَبوا قِياماً خافِضي الْـ أَصواتِ إذ جَزَمَ الرَّدى منْكَ العُرَى

وغَدَوْتَ في الأَكْفانِ عنهمْ مُضْمَراً وهُمُ يَرَوْنَكَ للجَلالَةِ مُظْهَراً

إنَّ الصَّحيحَ اعْتَلَّ مُذْ فارَقْتَنا وأَبيكَ والجَمْعَ الصَّحيحَ تَكَسَّرا[4]

لست أدري كيف يمكن لامرىء أن يشارك في شعور مزيف كهذا ، إلا أن يتجه بذهنه - دون أن يستطيع غيرَه - الى النحو وقواعده ، فينظر كيف وفق

---

(١) نصرة الثائر ٣٢٩

(٢) الغيث ٢/٢٠٨

(٣) « ٢/٣٨

(٤) نصرة الثائر ٣٢٦

الشاعر بين هذه المصطلحات والقواعد النحوية ، فلم تتنافر أو ينقض بعضها بعضاً . ثم يتوقف عند هذا الحد ، وقد غفل عن الموت والحزن وموقف الرثاء المهيب .

ومن أمثال هذا التأثر السطحي بالقرآن الكريم قول ابن النبيه :

لو لَمْ تَكُنْ إبنَةُ العُنْقُودِ رِيقَتَه لَمَا غَدَا خَدُّهُ القَاني أبا لَهَبِ
تَبَّتْ يَدَا عَاذِلي فيهِ وَوَجْنَتُهُ حَمَّالَةُ الوَرْدِ لا حَمَّالَةُ الحطَبِ»[1]

ومنه ـ وعليه لمسة من علم الحديث ـ قول الشيخ مجد الدين بن الظهير الإربلي :

قَلْبي وَطَرْفي ذا يَسِيلُ دَماً وَذا دونَ الوَرى أنْتَ العَلِيمُ بِقَرْحِهِ
وَهُما بِحُبِّكَ شاهِدانِ وإنَّما تَعْدِيلُ كلٍ منهما في جَرْحِهِ»[2]

ومن ذلك وقد خيم عليه ظل الفقه :

هَذي القُطَيِّفَةُ التي لا تُشْتَهى عَقْلاً وَنَقْلا
حُشِيَتْ بِبَرْدٍ يابسٍ فَلأَجْلِ ذاكَ الحشْوُ تُقْلى»[3]

ونتوقف عند نماذج أخرى من هذا المستوى تلك التي تأثر أصحابها بهذه الثقافة تأثراً لفظياً فحسب ، فيتكلفون أي تكلف ليوجدوا لهذه العبارات المحفوظة لديهم مناسبات يسوقونها فيها .

من ذلك قول شمس الدين محمد بن التلمساني .

وما كُنْتُ مَجْنونَ الهوى قَبْلَ أنْ يُرى لِقَلْبيَ مِنْ صُدْغَيْكَ في الأَسْرِ عاقِلُ

(١) نصرة الثائر ص ٣٢٥
(٢) « « ١٣٦
(٣) « « ٢١٧

وَلَوْ أَنَّ قُسّاً واصِفٌ مِنْكَ وَجْنَةً   لأَعْجَزَهُ نَبْتٌ بها وَهْوَ باقِـــلُ» [1]

وكما قال الآخر :

أُناشِدُهُ الرَّحْمنَ في جَمْعِ شَمْلِنـا   فيُقْسِمُ هذا لا يَكونُ إلى الحَشْرِ
إذا ما غَدا شِبْهَ الحَديدِ فُؤادُهُ   فوالعَصْرِ إنَّ العاشِقينَ لَفي خُسْرِ » [2]

وواضحٌ تكلفه ليورد ألفاظ : الرحمن والحشر والحديد والعصر ، وهي أسماء سور في القرآن الكريم .

« ولبعض الشعراء :

ولما رأَيتُ الشَّيْبَ راءَ بِعارِضي   تَيَقَّنْتُ أنَّ الوَصْلَ لي مِنْكَ واصِلُ» [3]

مشيراً بذلك إلى تجنُّب واصل بن عطاء حرفَ الراء .

ويبدو أن ادّعاء الثقافة عن طريق الشعر ؛ وصل أدنى مما عرفنا ، فظهر من يرصف النظم ناثراً فوقه من المصطلحات ما يوهم بعلمه ، حتى أورد الصفدي قول الشاعر « في بعض الناس :

هو في الفِقْهِ شاعِرٌ لا يُبارَى   وَهْوَ في الشِّعْرِ أَوْحَدُ الفُقَهاءِ
لا إلى هؤلاءِ إنْ طَلَبُـــوهُ   وَجدُوه ولا إلى هؤلاءِ » [4]

---

(١) نصرة الثائر ص ٣٣٠
(٢) « « ٣٢٨
(٣) « « ٢٣٨
(٤) الغيث المسجم ١ / ١٢٣

تأثير ديوان الإنشاء

يُعدُّ ديوان الإنشاء وقتذاك ، أعلى مجمع أدبي ثقافي ، يتنافس للوصول إليه كل من اشتد قلمه ، ورسخت في عالم الكتابة قدمه ، واتسعت ثقافته واستحصدت آراؤه ، حتى لقد ألفت الكتب الكثيرة في إعداد المرشحين لهذا المنصب ، كما كان السلطان نفسه هو الذي يتولى اختيار من يراه منهم ، نظراً لخطورة هذا الأمر ، وعلاقة صاحبه بالسلطان وكبار رجال الدولة .

وقد عبر صلاح الدين الأيوبي عن هذه الحقيقة حين قال على ملأ من الناس : « لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل »[1] .

فضم هذا الديوان عبر العصور نخبة من الأدباء اللامعين ، وتخرج فيه كبار كتاب العصر ونقاده ، ممن تطالعنا مؤلفاتهم الجامعة ودواوينهم في الشعر والترسل أمثال : القاضي الفاضل وابن الأثير وشهاب الدين محمود والصلاح الصفدي والمقريزي والقلقشندي وكثير غيرهم .

وقد كان هؤلاء في زمنهم هم الذرا الأدبية السامقة ، التي يسعى المتأدبون لاحتذائها ويطمحون للوصول إليها ، فيقرأون عليهم تواليف الأدب ، ويروون كتبهم ويتخرجون على أيديهم ، فمن الطبيعي إذن أن يكون لهؤلاء – في إنتاجهم من نصوص الأدب ، وفي مؤلفاتهم التعليمية – الدور الأول في توجيــه الأدب في عصرهم ، من حيث موضوعاته وأساليبــه وكل ما يتعلق به ، أي يكون لديوان الإنشاء بالتالي هذا الدور الفعال في توجيه الأدب وتكوين رجاله .

---

(١) تاريخ الأدب العربي ، فاخوري ٧٢٠

ولقد ترك هذا الديوان طابعه الواضح على الأدباء الذين هم نقدة الأدب في عصرهم ، وذلك بما حفل به من التقاليد المرعية ، في المحافظة على الألقاب ودرجاتها وفروعها ، والمحافظة كذلك على نماذج مرعية في الموضوعات المختلفة وأساليبها المتبعة .

ويكفي للتعرف على مدى ما كانت عليه هذه القيود من تعقيد يسوق إلى التكلف السقيم ؛ أن نحتمل الإصغاء إلى أبي العباس القلقشندي ، وهو يحدثنا في القواعد التي يجب على الكاتب معرفتها ومراعاتها فيما يتعلق بميدان الألقاب والنعوت فحسب ، وقد شغلت في صبح الأعشى مجلداً كاملاً ، فيكون اطلاعنا على الحقيقة أعمق وأشمل إذ أن مثل هذه النصوص هي أفصح لسان ينطق بما لا تصلح العبارات للإحاطة به :

يقول أبو العباس مكثفاً ما فصّله وأفاض فيه في هذا المجال :

« ... قلت قد تبين بما تقدم من الألقاب والنعوت الإسلامية ، وألقاب أهل الكفر ونعوتهم أنها ليست واقفة عند حد ، بل هي راجعة إلى اصطلاح الكتّاب واختيارهم ، في زيادة الألقاب ونقصها ، والإتيان بلقب دون لقب ، مع رعاية المناسبة لكل مقام وما يحتمله من الألقاب .

« إلا أن لذلك أصولاً يُرجع إليها ، وقوانين يوقف عندها ، إذا اعتمدها الكاتب ومشى على نهجها ونسج على منوالها ؛ أصاب الثغرة من الصناعة ، وطبق المفصل بالمفصل في الإتيان بالمقاصد ، ومتى أهملها وفرط في مراعاتها ؛ ضل سواء السبيل ، وخرج عن جادة الصواب (ومن يضلل الله فما له من هاد) .

الأصل الأول :

أن يقف على ما رتبه البلغاء من أرباب الصنعة من الألقاب والنعوت ، لكل صنف من ذوي الألقاب والنعوت ، لأهل الإسلام وأهل الكفر ، ويجري ذلك

مجرى الحفظ والاستحضار ليسهل عليه إيراده في موضعه ، ولا يشذ عنه شيء منها عند الاحتياج إليه ، وقد تقدم من ذلك جملة مستكثرة يهتدى بنجمها ويستضاء في ظلمة اللبس بضوئها .

الأصل الثاني

أن يعرف ما هو من الألقاب والنعوت حقيقي لصاحب اللقب الذي يستعمله فيه : كالعالمي لأهل العلم ، والعابدي لأهل الصلاح ، والعادلي للحكام من أرباب السيوف وغيرهم ـ وما هو مجازي كالعالمي لأرباب السيوف والكتّاب حيث له اتصاف لصاحب اللقب بالعلم ، والأصيلي لمن ليس له آباء في الرياسة ولا عراقة في النسب ، ونحو ذلك مما يجري هذا المجرى .

الأصل الثالث :

أن يعرف الألقاب الخاصة ببعضٍ دون بعض ، كالشريفي والحسيبي والنسيبي للأشراف أولاد فاطمة رضى الله عنها ، والكافلي لنائب السلطنة أو وزير كبير ، والنويني لأمير القوّامين بالشرق ، والمدّبري للوزير ونحوه من ناظر الخاص ومن في معناه ، والمشيري لمن يؤخذ رأيه من أكابر أرباب السيوف والأقلام ، والسفيري للحاجب والدوادار وكاتب السر ، واليميني للدوادار وكاتب السر ، والعريقي لذى العراقة في النسب ، والأصيلي لمن له ثلاثة آباء في الرياسة .

وكذلك النعوت كوالد الملوك والسلاطين لمن يكون له أولاد من الملوك ، وولد الملوك والسلاطين لأولاد الملوك ، وعضد الملوك والسلاطين للأمراء ونحوهم ، وكافل الممالك للنائب الكافل ، وسفير الدولة ولسان المملكة للدوادار وكاتب السر ، ويمين الملوك والسلاطين لهما أيضاً ؛ ووالدة الملوك والسلاطين لمن يكون من أولادها ملك ، وكريمة الملوك والسلاطين لمن يكون من إخوتها سلطان ، وقرينة

الملوك والسلاطين لمن تكون زوجة ملك ، وصديق الملوك والسلاطين أو مُوادّ الملوك والسلاطين لملوك الكفر ، وقرين الملوك والسلاطين لنوابهم ونحو ذلك مما يجري هذا المجرى . فيوقع لكل لقب أو نعت منها في موضعه ولا يجاوزه إلى غيره .

وأنت إذا تأملت ما سلف من ترتيب الألقاب والنعوت على الأصول المتقدمة ؛ ظهر لك منها ما تستعين به على ترتيبها وإيقاعها مواقعها .

الأصل الرابع :

أن يعرف الألقاب والنعوت الرفيعة المقدار ؛ فيلحقها بما يناسبها من الألقاب والأصول . كالحاق العالمي والعادلي وممهد الدول ومشيد الممالك وما شاكل ذلك بالمقر والجناب الكريم ونحو ذلك .

ويعرف الألقاب النازلة فيخرج منها ما يجرده عن الياء ، ويلحقه بالسامي بغير الياء فما دونه ؛ كالعضد والذخر وما أشبه ذلك .

الأصل الخامس :

أن يعرف مراتب الألقاب في التقديم والتأخير ، مثل أن يعلم أن الشريف والكريم يليان المقر والجناب ، والعالي يليها ، ثم العالي يلي المقر والجناب والمجلس ، والسامي يلي المجلس حيث لا يليه العالي ، وأن النعت المضاف إلى أمير المؤمنين مثل عضد أمير المؤمنين ، وسيف أمير المؤمنين ، وحسام أمير المؤمنين ، يكون آخر النعوت ، وأن المضاف إلى الملوك والسلاطين مثل عضد الملوك والسلاطين ، وظهير الملوك والسلاطين ، يكون قبله المضاف إلى أمير المؤمنين إن كان في رتبة يثبت فيها ما يضاف إلى أمير المؤمنين ، وألا يكون المضاف إلى الملوك والسلاطين هو آخر الألقاب .

وأن يعلم أن لقب التعريف وهو الفلاني أو فلان الدين ؛ يكون واسطة بين الألقاب والنعوت فاصلاً بينها . وأن لقب الوظيفة كالكافلي والحاكمي وما أشبهها يكون قبل لقب التعريف غالباً على ما تقدم بيانه ، فيضع هذه الألقاب

في مواضعها ولا يخرجها عنها ، بخلاف ما يجوز فيه التقديم والتأخير من الألقاب والنعوت[1] .

هذا قطرة من بحر بما جـــاء في القواعد والأصول التي يتوجب على كاتب الإنشاء مراعاتهـــا والتقيد فيها ، وهي إن دلت على شيء فعلى تعقد حياة القوم آنذاك في مآكلهم وملبسهم ومسكنهم ومراسيم الدولة ومناصبها إلى غير ذلك .

وليس الأدب في الحقيقة سوى صورة للمجتمع وأهله وللعصر وأحواله ، أضف إلى ذلك رغبة كتاب الديوان الأكيدة في إظهار توسعهم في الثقافة ، وتبحرهم في العلوم ، فكان أن حولوا الكتابة إلى معرض يُظهر فيه الكاتب ثقافته من جهة ، وتصرفه في الكتابة باصطناع ضروب السجع والبديع والتفنن فيها من جهة ثانية ، لينال رضى الحكام وإعجابهم .

فكان الكتّاب بهذا نبراساً للآخرين ؛ وهم شهب الأدب اللامعـــة ، فتحولت الكتابة إلى ما أرادوا . كما كان منهم النقاد المرموقون فساهموا في توجيه الأدب في دروب التكلف والبديع وتطعيمه بألوانٍ من ثقافة العصر وعلومه المختلفة .

---

(١) صبح الأعشى ١٨١/٦

إنها أرض شائكة وسبيل فيها دقيق ، لا دليل فيه مع المرء سوى صحف لا حصر لها من السطور الموزونة من الشعر العربي عبر الآماد المتطاولة ، منذ أن نشأ وترعرع في أحضان الصحراء الفسيحة تحت السماء الصافية ، لا يعرف له منهلًا سوى القلب ، ولا قيثارة سوى النفس ذات الأوتار المشدودة ، يمر الشعور بها قبل أن يترجم عنه اللسان ، فيوقع عليها في كل مرة لحناً ، بسيطاً صافياً يخرج من القلب ليتعلق بالقلب ؛ آنَ تردُّدِ أصداء حروفه ونغماته .

ونسير مع الزمن خطوة ، فنرى العقل وقد أرسل له سفيراً إلى هذا القلب ، فإذا طاف بالنفس المنفعلة طائف الشعر كان لسفير العقل ما يقوله ، ملوناً بهذه الانفعالات ، منصهراً مع صوت القلب ولحن الشعور .

لقد قال شاعر العصر الأموي في كل شيء مما يحيط به — لا لأنه رغب في هذا بل ؛ لأن نفسه انفعلت بما يحيط بها واضطربت به ، فأوحت إلى لسانه ليحمل هذه المشاعر بحرارتها وصدقها وبساطتها ، بغض النظر عن المحور الذي تدور حوله .

كانت هذه هي صفات الشعر حتى ما كان منه في الخصومات المذهبية والأحزاب السياسية ؛ بله شعر الفخر والوصف والنسيب .

ثم تدفقت شآبيب الثقافة والعلم ، ونهل منها القوم وعلّوا ، وامتلأت نفوسهم وغنيت أفكارهم ، وتحدثوا في كل علم وفن ، وخاضوا في ذلك بكل الأساليب ، ولم يكن الشاعر إلا في تيار هذه الدوامة يتلقى ويعطي ، ينفعل

ويتدفق ، حتى قيل إن أبا نواس فقيه غلب عليه الشعر ، فإذا بطرائق الفقه وأساليبه وقد تركت طوابعها على لسانه ، وبدا ذلك في شعره .

والصفدي نفسه استشهد به على أنه شاعر فقيه ؛ مقدماً لشعراء عصره — ممن غلب عليهم الفقه — نموذجاً يحتذى حين قال : « ولأبي نواس شيء من هـذا المذهب في الشعر يذكر البحث والجدل في قوله :

فاخَرَتْ كلَّ شرابٍ فسَمَتْ　　رُتْبَةً ليس يُضاهيها شَرابُ

لا نُماريكَ على تَحْريمِهـا　　إنْ نَقُلْ ما حُرِّمَتْ طالَ الخِطابُ

حُرِّمَتْ ما حُرِّمَتْ بل حُرِّمَتْ　　جاءَ في التنزيلِ نَهْيٌ واجْتِنابُ

قال: هَل أنتمْ.. فقلنا: نحن.. لا　　وَسَكَتْنا كُلُّنا واسْتُدْبابُ

وعقّب على ذلك بقوله : « كان يقال أبو نواس فقيـه غلب عليه الشعر ، والشافعي شاعر غلب عليه الفقه »(١).

ما الخبر إذن ؟ لم نسمع مثل هذا من أبي نواس بما فيه من مشاهد حيـة وقول يتردد ، وحديث طويل يدور بين الشَّرب – وهم ينتظرون وصول الأقداح – حول التحريم ، وكم طال هذا النقاش . . وكثر فيه بينهـم الدفع والجذب . . وكم هو غني قول حرمت ما حرمت بل حرمت . . وما ان انتهوا الى هذه النتيجة حتى فوجئوا جميعاً بهول العاقبـة ، لقد سمع الحاني وعرف مـا استقروا عليه ، فكان البيت الأخير بإيجازه الغني المكتنز المثير ، قال : هل أنتم ممن يحرم شربها فقلنا بتلكؤ نحن . . . . . لا . وران عليهم صمت طويل غني كذلك . . وكل منهم حائر في هذا التناقض بين ما قاله وما فعل ، وبين ما أدلى فيه بدلوه ومـا سيحل به من

(١) الغيث المسجم ١/١٢٤

حرمان لو ثبت على قوله « فسكتنا كلنا » لم يتردد بعد ذلك حرف واحد وماذا يقولون ؟ هل هناك ما يقال..

أقول لمَ نسمع مثل هذا من أبي نواس الفقيه ، ونسمع شيئاً آخر من الشيخ صدر الدين بن الوكيل الذي قال فيه الصفدي إنه « لما كان الفقه يغلب على فنونه نجد كلامه في الغالب إذا خلا من القواعد الفقهيه ينحط عن رتبة الحسن ».

إذن فصدر الدين هذا رأس الفقهاء الشعراء في عصره ومع ذلك نسمعه يقول :

أَرَقْتُ دَمَ الرَّاووقِ حِـلاً لأَنني ... رَأَيْتُ صَليباً فَوْقَه فَهو مُشرِكُ
وَزَوَّجتُ بِنْتَ الكَرْمِ بابنِ غَمامَةٍ ... فَصَحَّ عَلي التَّعْليقِ والشَّرْطُ أَمْلَكُ

ويعقب الصفدى بقوله « هـذا الآخر من نمط الأول في استعمال قواعـد الفقهاء والتورية بالتعليق مع تضمين المثل »[١].

وكل ما قاله صدر الدين هنا في الخمر ؛ هو أنه صبها ومزجها بالماء، وبقية البيتين بعد ذلك تنتمي إلى كتب الفقه ، وتحن إلى أروقة الفقهاء .

فالشاعر لم يعبر عن تجربة أولاً ، كما أنه لم يملأ نفسه بالمعنى الذي ينوي القول فيه ، فنفسه وفكره وذاكرته تغص بمصطلحات الفقه وألفاظه ومسائله ، فما أن تشعر بقدوم معنى جديد حتى تسارع إلى الإحاطـة به والتعلق فيه ، فإذا خرج عن اللسان بدا هذا المعنى متقلصاً ضامراً ، قد غمره الفقه وسرت به روحه فجف وتجمد ، وتحول إلى كلام تقريري ، غريب عن التعبير الشعري المثير .

ولن نذهب بعيداً ؛ والناقد الصفدي يخبرنا بهذه العملية الشعرية في مراحلها المتعددة ، منذ أن تكون فكرة — وأنا أعني ما أقول — إلى أن تتمخض بعد لأي عن بيتين أو ثلاثة لا تقوى على النهوض ، بما كساها به الشاعر من أثواب

---

(١) الغيث ١٢٦/١

مزركشة ، وأثقلها فيه من حلي تزاحمت لتجد لها مكاناً على هذا الجسد الهزيل الذاوي فلا تجد ، فتتراكب فوق بعضها فيزهق في هذا الشعر كل معنى ، ويحتضر كل شعور ، ولا يبقى أمامنا إلا أن نعجب بهذه الأثواب المزركشة ، وندهش لتلك الحلي البراقة ، كل ذلك بأسلوب تقريري جاف ، لا يحرك فينا جارحة ، ولا يثير عاطفة ولا إحساساً .

يقول الصفدي :

« ولما قرأت المقامات الحريرية على الشيخ الإمام الأديب الكاتب شهاب الدين أبي الثناء محمود رحمه الله ؛ أنشدني من لفظه عند وصولي إلى بَيْتَيْ ابن سكرة مواليا لبعضهم ، وأنشدته لغيره أيضاً :

رَمَتْنا يَدُ الأَيامِ عنْ قوسِ خَطْبِها ... بِسَبْعٍ وَهَل ناجٍ من السَّبعِ سالِمُ
غَلاءٌ وغاراتٌ وغزْوٌ وغُرْبَةٌ ... وغَمٌّ وغَدْرٌ ثم غُبْنٌ مُلازِمُ

« فأعجبه — رحمه الله — ذلك ، وأمر بتعليقها . ثم إنه قال :

« إلا أن من خاصية هذا النوع أنه لا بد وأن يكون بعض هذه السبعة موصوفاً ليقوم الوزن بذلك ، فاستقريت الحافظة فكان كذلك . قلت والعلة في ذلك أنها سبعة ألفاظ ويريد الناظم أن يأتي بها في بيت واحد ، فيضطره الوزن إلى زيادة لفظة ليكون كل نصف فيه أربعة .

« وبقي هذا الكلام في ذهني . ولم أكن إذ ذاك مشتغلاً بغير التحصيل والقراءة والمطالعة ، إلى أن اشتغلت ببعض العمل ، فأردت امتحان الخاطر بنظم شيء من هذه المادة ؛ بحيث يكون سبعة ألفاظ بغير زيادة وصف ، فاتفق ذلك فقلت :

إذا تَيَسَّرَ لي في مِصْرَ واجْتَمَعَتْ ... سَبْعٌ فَإِنِّيَ في اللذَّاتِ سُلْطانُ

خَودٌ وخَمْرٌ وخاتونٌ وخادِمُها ‌ ‌ ‌ ‌ وخُلّةٌ وخَلاعاتٌ وخُلّانُ »[1]

هكذا كانت تسير العملية الشعرية في ذلك العصر تبدأ من الذهن ، محجوبة تماماً عن النفس التي لم تدْرِ بما يجري ، فالشاعر هنا يفكر في أن يأتي بسبعة ألفاظ ، إذن ، فعليه أن يجمع هذه الألفاظ السبعة بما يحفظ ؛ وإلا فهذه معاجم اللغة ، وهكذا اجتمعت الأحرف السبعة ، فليعمل في رصفها بحيث يستقيم الوزن ويتم العمل ، وينظر الناظم فيما فعل فيأخذ في التبديل والتعديل ، يوفر لبيتيه من وجوه البديع ما يثير الإعجاب بقدرته والإقرار بسعة معرفته ، وإلى هنا تنتهي مهمته في نظره .

ويزيدنا الصفدي معرفة بعملية صنع الشعر هذه فيقول :

« قال الشاعر :

رَقّتْ شَمائلُ قاتلي ‌ ‌ ‌ ‌ فلذاك رُوحي لا تقَرّْ
ردَّ الحبيبُ جَوابَهُ ‌ ‌ ‌ ‌ فكأنّهُ في اللّفْظِ دُرّْ

« وقد فكّرت في هذين البيتين ، فوجدت الكلمة الأولى ثلاثية ، والثانية ثنائية ، فقلت : لو اتفق الكلمتان في العدد لكان أكمل في الصناعة . فامتحنْت الخاطر بنظم شيء من هذا النوع كاملاً ، ففتح الله علي بالمطلوب عاجلاً ؛ فقلت في الوزن والروي :

رَضّتْ فؤادي غادةٌ ‌ ‌ ‌ ‌ ما كنتُ أحسبُها تَضُرّْ
ردّتْ رسولي خائباً ‌ ‌ ‌ ‌ فَمَدا معي أبداً تَدُرّْ »[2]

(١) الغيث ٢/٤٠٥ - ٤٠٦
(٢) المصدر السابق

ويستطرد الصفدي ليعطينا نموذجاً ثالثاً عن هذه العملية الشعرية فيقول :

« ولما قرأت كتاب (حسن التوسل إلى صناعة الترسل) على مصنفه الشيخ الإمام العلامة شهاب الدين أبي الثناء محمود — رحمه الله تعالى — وكان مما أورده في أنواع الجناس قول المطوّعي وهو :

أَخو كَرَمٍ يُفْضي الوَرَى من بِساطِهِ   إلى رَوْضِ جُودٍ بالسَّماحِ مَجُودِ
وَكَمْ لِجِباهِ الرَّاغِبين إِليهِ مِنْ   مَجالِ سُجودٍ في مَجالِسِ جُودِ

قال لي عندما مررت بها : ما جاء لأحد مثل هذا الجناس ، فبقي هذا الكلام في ذهني ، فلما كان بعد مدة اتفق لي نظم سبعة وعشرين مقطوعاً من هذا النوع . وقد أودعت ذلك في كتاب لي سميته (جنان الجناس) فمن ذلك قولي :

وساقٍ غَدا يَسْعَى بِكَأْسٍ وطَرْفُهُ   يُجَرِّدُ أَسْيافاً لِغَيْرِ كِفاحِ
إذا جَرَحَ العُشَّاقَ قالوا : أَقَمْتَ في   مَدارِجِ راحٍ أَمْ مَدارِ جِراحِ »[1]

ونعود بالذاكرة إلى أن هذه المقاطيع في الصنعة — وهي تم بمثل هذه العملية الذهنية المتكلفة — لم تكن تمثل شعر العصر كله كما أسلفنا من قبل[2] أما نظم أمثال هذه المقاطيع فقد زاولوه للتسلية ورياضة الفكر — كما أشار الصفدي قبل قليل — بغية تحقيق البديع وتوفير الشواهد لذلك ، كما كان من الأغراض إظهار المقدرة ، ثم المعرفة وسعة الاطلاع .

أما القصائد فبقي لها ميدانها الجاد الذي يتصل غالباً بالجو الرسمي للدولة ، من مديح أو وصف للمعارك ، مما كان الصفدي يسأل فيه عن المعنى قبل وجوه البديع ، ويرفض كل صنعة لا تخدم المعنى بله أن تسيء إليه . .

أما إذا اجتمع الأمران ؛ فقد انقادت لهذا الشعر أسباب روعته وجماله وتأثيره .

---

(١) الغيث ٢/٤١٠   (٢) انظر ص ١٨٩

مفهوم النقد وروحه السائدة

لقد غلب على النقد في عصر الصفدي معنى الخصومة والتعصب ، دون أن يعني هذا انعدام النقد الذي يتوخى الفن . بيد أن المفهوم الأول كان كثير الدوران وافر الأدلة ، فطالما سمعناهم يقون « بالتقريظ » يوجهه ناقد ما إلى أديب آخر في نص أدبي صدر عنه ، فاذا ما اقتربنا من هذا التقريظ فسرعان ما يتبين لنا أنه موجه إلى صاحب النص ، يكيل المديح دون حساب ؛ ثناءً على مقدرته وعلمه وتبحره في فنه .

كما تردد على سمعنا قولهم « بالمؤاخذة » وهي كما يشير معناها ؛ كشف مآخذ النص المدروس فحسب ، وذلك بسبب خصومة ما بينهما .

وقد سلف أن جلسنا الى القلقشندي وكان يذكر التقريظ بقوله : « قد جرت العادة انه إذا صُنف في فن من الفنون ، أو نظم شاعر قصيدة ـ فأجاد فيها أو نحو ذلك — أن يكتب له أهـــل تلك الصناعة على كتابه أو قصيدته بالتقريظ والمدح »(١).

كما أوعد الصفدي خصمه ابن الأثير بالمؤاخذة أكثر من مرة حين قال : ومن هنا أجرد عن ساعد المؤاخذة »(٢) وقال أيضاً : « وبلغني مما وضعه عز الدين بن أبي الحديد ـ رحمها الله - على الكتاب من المؤاخذة »(٣) وكلها تعني التنقيب عن

---

(١) صبح الأعشى ١٤/٣٣٥

(٢) نصرة الثائر ٥٣

(٣) المصدر السابق ٤٤

المآخذ دون غيرهـــا . والحق أن هذه المؤاخذة لم تكن تقصد النص بقدر ما هي موجهة إلى صاحبه ، معبرة بشكل غير مباشر عن شعور الناقد نحو صاحب النص .

هذا ولا يعجز الباحث أن يعثر على نماذج كثيرة من نقد العصر ، ترفّع فيها أصحابها عن معاني الخصومة والتعصب ، وتجردوا عن الهوى إرضـــاء للحقيقة والذوق . وقد مررنا بشيء منها عند الصفدي أثناء حديثه في نصوص ابن الأثير مما سنمر بمثلها عند غيره في حينه .

أما الروح التي ميزت النقـــد في تلك الفترة فقد غلب عليها كذلك صفات الشكلية والسطحية والجزئية ، والأمثلة على ذلك لا تحصى كثرة ، فإن كنت أتخذ من بعض نقد الصفدي — الذى ينساق مع هذه الصفات — أمثلة لذلك ؛ فلأنني أعتبر أن هذه الأمثلة عنده تشكل مذهب النقد عند غيره ، إذ لو كان النقدة في أذواقهم ومقاييسهم الغالبة كما كان الصفدي ؛ لمـــا كان لانحدار الإنتاج إلى هذا المستوى المتدني وجه يبرره .

فمن غلبة **الروح الشكلية** على النقد ما ورد في النص التالى للصفدي :

« قال (ابن الأثير) وقد أورد قول البحتري :

وتَراهُ في ظُلَمِ الْوَغى فَتَخالُهُ قَمَراً يَكِرُّ على الرِّجالِ بِكَوكَبِ

وفي هذا التشبيه ثلاثة أشياء بثلاثة أشياء . فإنه شبّه العجاج بالظلمة ، والممدوح بالقمر ، والسنان بالكوكب ، وهذا من الحسن النادر » .

ويخوض الصفدي خوضَه فيقول : « هذا من أنموذج ما تقدم من قوله في قول الشاعر (وكأنها وكأن حامل كأسها . . البيتين) هناك وهم الشاعر فقلده ، وهنا انفرد هو بالوهم دون البحتري ، لأن البحتري ما قال : وتراه في عجـــاج الحربَ إذْ كَرَّ على الرجال برمحه قمراً يجول في الظلام بكوكب .

« ولو كان البيت يفهم منه هذا المعنى ؛ كان تشبيه ثلاثة بثلاثة ، وليس في البيت غير تشبيه واحد ، لأنه قال : تراه في ظلم الوغى فتخاله قمراً . هـ ذا هو المعنى الذي بُني عليه البيت . وأما قوله : (يكر على الرجال بكوكب) فمن لواحق القمر . ألا ترى أن الجملة في موضع النصب على أنها صفة لقمر .

« ومن العجيب أنه ادَّعى أن البحتري شبَّه العجاج بالظُّلَم ، والبحتري جعل العجاج نفسه ظلاماً . ولو أتى ذكر الظلام في عجز البيت لدخل في المشبه به ، واندرج بين القمر والكوكب ، وإنما جاء ذكره في أصل المشبه[1] » .

أما ما كان من سطحية ذلك النقد ؛ فنمثل له بما ذكره الصفدي في قول ابن الأثير : « ومن ذلك ما كتبته من جملة كتاب الى ديوان الخلافة ، أذكر فيه نزول العدو الكافر على عكا فقلت : وأحاط به العدو إحاطة الشفاه بالثغور ، ونزل عليه نزول الظلماء على النور » .

فلم يَر الصفدي في هذا إلا أن يقول :

« ليس في هذا مبالغة ، لأن الشفاه لا تحيط بالثغور ، والإحاطة اشتمال المحيط على المَحوط من كل جانب كالدائرة بالنقطة ، وعنصر الماء بكرة الأرض ، وبياض العين بالسواد . أما الشفاه فإنما هي ساترة لا محيطة .

« والكامل في ذلك قول الحريري رحمه الله تعالى :(وقد أحاطت به أخلاط الزمر ، إحاطة الهالة بالقمر ، والأكمام بالثمر) . وقول القاضي الفاضل : (وأبقاه بقاءً خارقاً للعوائد ، وجعل أياديه مطيفة بالأعناق إطافة القلائد) . وليست الشفاه كذلك ، إنما تستر الظاهر دون الباطن[2] » .

---

(١) نصرة الثائر ٢٧٧

(٢) المصدر السابق ٢٧٥

وحين نلتفت شطر **الجزئية** في النقد أو اللفظية فيه ؛ نجد أن روح الجزئية قد انحدرت الى هذا العصر من دهور تضرب أوائلها في العصر الجاهلي ، وقلما عثرنا على نقد يحيط بالتجربة أو ينفعل للشعور العام في القصيدة ، ثم يقوّم أجزاءها من الألفاظ والتراكيب والصور بمقدار ما تسهم في نقل هـذه التجربة ، أو في التعبير عن ذلك الانفعال ، بل جلّ مانراه هو الدوران حول لفظة أو تشبيه أو ما شابه ذلك .

ومن هذا القبيل عند الصفدي تعليقه على عبارة ابن الأثير (ولو استخرج منها ما استخرجت واستنتج منها ما استنتجت ، لهام بها في كل واد وتزود إلى سلوك طريقها كل زاد) .

أقول : هذه السجعة الأخيرة محلولة باردة لامعنى تحتها . ولو قال : لهام بها في كل واد ، وارتفع لها في مظهر الربا وانخفض في مضمر الوهاد ؛ لكان أحسن [1] » .

ومنه كذلك قول ابن الأثير :

ومن ذلك ماذكرته في الحث على الاغتراب وهو : (لولا التغرب ما ارتفعت بنات الأصداف الى شرف الأعناق ، ولا ارتقى تراب الأحجار الى نور الأحداق).

« أقول : قوله ارتقت أولاً وارتقى ثانياً فيه عيّ لتكراره . ولو قال في أحدهما ما اتصل أو ماسما أو غير ذلك لكان أحسن [2] » .

واقدم فيما يلي نموذجاً من نقد العصر ، صادراً عن كبار مشاهير القوم آنذاك ، نتبين فيه ما تقدم ذكره ، نلمس فيه نموذجاً من النقد الفني ، إذ لا تقريظ ولا تعصب . كما نضع أيدينا على ما أسلفتُ القول فيه من روح النقد وصفاتها في ذلك العصر .

---

(١) نصرة الثائر ١٠٣

(٢) « « ١١٣ وما بعدها

يقـــول الصفدي :

« قال ابن سناء الملك من أبيات :

تَزَخْرَفَ منها وجْهُها وهي جَنَّةٌ ... ويَخْضَرُّ منها نَضْرَةً فهو سُنْدُسُ

صِلِيني وهذا الحُسنُ باقٍ فربما ... يُعزَّلُ بيتُ الحُسْنِ منه ويُكْنَسُ

« ولما وقف القاضي الفاضل ـ رحمه الله تعالى ـ على هذه القصيدة التي منها هذه الأبيات ؛ كتب الى ابن سناء الملك من جملة فصل :

« ... ولا عيب في هذه المحاسن الا قصور الأفهام وتقصير الأنام . والا فقد لهج الناس بما تحتها ودونوا مادونها ، وشغلوا التصانيف والخواطر والأقلام بما لايقاربها ، وسارت الأشعار وطالت بما لا يبلغ مدها ولا نصيفه ، والقصيدة فائقة في حسنها ، بديعة في فنها . وقد ذلّت السين فيها وانقادت ، فلو أنها الراء لما زادت . وبيت يعزل ويكنس أردت أن أكنسه من القصيدة فإن لفظة الكنس غير لائقة بمكانها) .

فأجاب ابن سناء الملك قائلاً :

« وعلم المملوك مانبه عليه مولانا ، من البيت الذي أراد أن يكنسه من القصيدة ، وقد كان المملوك مشغولاً بهذا البيت مستحلياً له متعجباً منه ، معتقداً أنه قد ملح فيه . وأن قافية بيته أميرة ذلك الشعر وسيدة قوافيه . وما أوقعه في الكنس الا ابن المعتز في قوله :

وقَوامي مِثْلُ القَناةِ من الخَطِّ ... طِ وخَدِّي من لِحْيَتي مكنوسُ

« والمولى يعلم أن المملوك لم يزل يجري خلف هذا الرجل ويتعثر ، ويطلب مطالبه فتتعسر عليه وتتعذر ، ولا أنِس نارَه الا وجد عليها هدى ، ولا مال المملوك إلا إلى طريق من ميّله اليه طبعه ، ولا سار قلبه الا الى من دلّه عليه سمعه .

« ورأى المملوك أبا عبادة قد قال :

وعاذلي في عَبْرَةٍ قد سَفَحْتُها   لِبَيْنٍ وأُخرى قَبْلَها للتَّجَنُّبِ
تُحاولُ مني شِيمَةً غيرَ شِيمَتي   وتَطْلُبُ مني مَذْهَباً غَيْرَ مذْهَبي

وقال :

وَما زارَني إلا وَلِهْتُ صَبابَةً   إليهِ وَإلّا قُلْتُ أَهْلاً وَمَرْحَبا

« فعلم المملوك أن هذه طريقة لاتسلك ، وعقيلة لاتملك ، وغاية لاتدرك . ووجد أبا تمام قد قال : سَلِّمْ على الرَّبْعِ من سَلْمَى بذي سَلَمِ .

وقال : خَشُنْتِ عليه أختُ بني خُشَيْنِ .

فاشمأزّ من هذا النمط طبعه ، واقشعر منه فهمه ، ونبا عنه ذوقه ، وكاد سمعه يتجرعه ولا يكاد يسيغه .

« ووجد هذا المبدع السيد عبد الله بن المعتز قد قال :

وَقَفْتُ في الرَّوْضِ أَبْكي فَقْدَ مُشْبِهِهِ
حَتّى بَكَتْ بِدُموعي أَعْيُنُ الزَّهَرِ
لو لَمْ أُعِرْها دُموعَ العَيْنِ تَسْفَحُها   لِرَحْمَتي لا سْتَعارَتْها من المَطَرِ

« وقد قال :

قَدُّكَ غُصْنٌ لا شَكَّ فيه كَمَا   وَجْهُكَ شَمْسٌ نَهارُهُ جَسَدُكْ

فوجد المملوك طبعه الى هذا النمط مائلاً ، وخاطره في بعض الأحيان عليه سائلاً . فنسج على هــذا الأسلوب ، وغلب عليه خاطره مع علمه أنه المغلوب ،

وحبُّك الشيء يُعمي ويُصمّ ، فقد أعماه حبه وأصمه ، إلى أنْ نظَم تلك اللفظة في تلك الأبيات تقليداً لابن المعتز . فأجاب القاضي الفاضل رحمه الله :

« ولا حجة فيما احتج به عن الكنس في بيت ابن المعتز ، فإنه غير معصوم عن الغلط ، ولا يقلّد إلا في الصواب فقط . وقد علم ما ذكره ابن رشيق في العمدة من تهافت طبعه ، وتباين وضعه ، فذكر من محاسنه ما لا يعلّق معه كتاب ، ومن بارده وغثه ما لا يلبس عليه الثياب . وقد تعصب القاضي السعيد على أبي تمام فنقصه حظه ، وللبحتري فأعطاه أكثر من حقه ؛ وما أنصفهما » .

(قال الصفدي) « قلت : استعمل ابن سناء الملك رحمه الله تعالى هذه اللفظة في غير هذا الموضع ، ولم يتعظ بنهي الفاضل ولا أرعوى ، ولا ازدجر عما قبحه لأنه غلب عليه الهوى ، فقال :

تَوَسْوَسَ شِعْرِي به مُـــدَّةً ... وَمَا بَرِحَ الحَلْيَ وَالوَسْوَسَهْ
وَخَلَّصَنِي مِنْ يَـدَيْ عِشْقِهِ ... ظَلَامٌ على خَـــدِّهِ حِندِسَهْ
كَنَسْتَ فُؤادِيَ من عِشْـقِهِ ... وَلِحيَتُهُ كانَتِ المِكْنَسَهْ

« وأما القاضي الفاضل فما أظنه خلا في هذا الإيراد من ضعف انتقاد ، وأحاشي ذلك الذهن الوقاد من الاعتقال في ورطة هذا الاعتقاد .

« وما أراه إلا أنه تعمد أن يعكس مراده ، ويوهي ما شيده ويوهن ما شاده ، ويرميه ببلاء البلاده ، إما على سبيل النكال أو النكاده . لأن الفاضل رحمه الله تعالى ممن يتوخى هذه الألفاظ ويقصدها ، وينشيها وينشدها ، ويوري زنادها ويوردها .

« فمن كلام الفاضل في بعض رسائله :

(وما استطاعت أيديهم أن تقبض جمره، ولا ألبابهم أن تسيغ خمره، ولا سيوفهم أن تكنس قميمه، ولا أعراضهم أن تأخذ لطيمه »[1].

وهكذا نخرج من هذا النص - وقد تعمدت إيراده على طوله - بما يحفل به من الدلالات، فهو ينتمي الى النقد الفني بعيداً عن التقريظ أو التعصب، علماً بأن الفاضل لم يبرأ من نقد التقريظ.

كما يعطينا مثلاً للنقد الجزئي الذي ينصرف الى اللفظـــة المفردة فيفصلها عن جسم القصيدة ونسيجها، ليجعلها محوراً لحديثه بعيداً عن حديقتها. مع أن هذه اللفظة مؤدية، وترسم في الخيال صورة كاملة، لا قسوة فيها ولا جفاء، ولكن ابن سناء الملك لم يحسن الدفاع عنها، فاكتفى بالاحتماء خلف ابن المعتز، اعتماداً على تقديس الفاضل للقدماء، مبيناً عن موهبة ليّنة. ولكن الفاضل اقتحم عليه حصنه، وغلبه بالمنطق لا بالتذوق. وقد أحسن الصفدي كشف الحقيقة بعد ذلك.

وبذا أنتهي من الحديث في مفهوم النقد وروحه السائدة، وقد تميزت بالشكلية والاهتمام بظاهر النظم وثوبه الخارجي، والسطحية في عدم الغوص مع القريض، ونقده على أساس الفكرة الناظمة بكل أبعادها، بل بمناقشة المعنى الفرد وتشريحه، بعيداً عن كيان القصيدة وبنائها الكلي، ثم لمسنا انسياقهم نحو اللفظية في نقدهم فلا يحكمون على الألفاظ أو التراكيب أو التشبيهات من زاوية التجربة الكلية، أو في الجو الشعوري الغامر في القصيدة كلها، لو وُجد مثلُ هذا، ولا بد أن يتوفر شيء منه على أية حال لو تنبه النقاد إلى ذلك.

كما نشير إلى ناحية لا تخلو من الأهميه؛ وهي أن النقاد بمعالجتهم النصوص

---

(١) الغيث المسجم ٢/٣٧٢ - ٣٧٥

بهذه الروح ، والتفاتهم في الإنتاج الأدبي إلى هذه النواحي ؛ إنما ساهموا في اهتمام الأدباء بها وانسياقهم وراءها ، حتى بالغوا في البديع والتكلف إليه تحقيقاً لجمال الشكل ، ونظموا متوخين الوحدات الصغيرة ، حتى غـــدا الشطر المستقل بذاته دليلًا على تمكن الناظم ، وبذا شاركوا في تقطيع أوصال القصيدة ، وجعلها أجزاء متفرقة لا يضمها إلا البحر والقافية .

★ ★ ★

بين الكاتب والشاعر وأسباب التخلف

تشير الدلائل الى أن الشاعر في هذا العصر قد انحطت منزلته وتخلف حاله ، على حين ارتقت منزلة الكاتب وسما بها ، حتى كان منهم كبار الوزراء والأعوان . إضافة إلى مكانته الرفيعة في المجتمع .

فهل معنى هذا أن الناس كانوا يتجهمون للشعر ويزوّرون عنه بينما يهشون لإنشاء الكتاب ورسائلهم . . لا يبدو هذا التساؤل صحيحاً ، لأن القوم بشعر الشعراء أكثر انشغالاً منهم برسائل الكتاب ، إن شيئاً لا يثيرهم في رسائل المترسلين على حين ينشطون لما يقـــال بينهم من شعر يلغزون فيه ويورّثون ، ويجعلونه بينهم مادة يتجاذبون أطرافها ؛ فتطلق أحاديثهم وتملأ فراغهم .

ولكن لمَ نذهب بعيداً في تعليل هذا التفاوت الكبير ، فلقد مر بنـــا في ثقافة الأديب أن الكاتب إذا توفر له الاستعداد ؛ يحتاج إلى الاطلاع على الوفير من العلوم المختلفة ، وحفظ جانب كبير من الإنتاج الأدبي قديمه وطريفه ، بعد حفظ القرآن الكريم وقدر وافر من الأحاديث .

حتى إن الصفدي ذهب الى أبعد من هذا حين جعل الكاتب بحاجة إلى كل شيء ، بل « إنه الذي يعرف الوجود على ما هو عليه »[1] فقلّ تبعاً لذلك عدد الكتاب فتسنموا المناصب ، وكانت لهم المؤلفات الكثيرة في ميادين الثقافة المتنوعة تنطق بفضلهم وتقدمهم وسعة اطلاعهم .

---

(١) نصرة الثائر ٦٤ وما بعدها

هذا بينما كان لقب الشاعر رخيصاً، يعطى لكل أحد ممن ألم بموازين العروض ونظم عليها شيئاً مما يسمى بالمقاطيع .

ويبدو أن أحداً لم يتنبّه لهذا ، لعدم تمييزهم بين الشاعر والناظم ، فهذا ابن كثير يعجب من القاضي الفاضل وهو أديب زمانه بقوله :

« والعجب أن الفاضل على براعته ليس له قصيدة طويلة ، وإنما له ما بين البيت والبيتين في أثناء رسائله وغيرهـا شيء كثير جداً . وله في النحلة والزلقطة :

وَمُغَرِّدَيْنِ تَجَاوَبا في مَجْلِسٍ   مَنَعا هُما لأَذاهُما الأَقْـوامُ
هَذا يَجودُ بِعَكْسِ ما يأتي به   هَذا فيُحْمَدُ ذا وَذاكَ يُلامُ »[٢]

إذن فالسبب الأول في انحطاط منزلة الشاعر ، هو عدم وجود هذا الشاعر ! والطبيعه ضنينة بمنح المواهب ومنها الموهبة الشعرية . . . وقد اطّرد هذا في العصور السالفة إذ كان وجود الشعراء قليلاً نسبياً ، يقام لنبوغ الشاعر ويقعد ، فيُخشى قوله ويُهاب جانبه .

فلو كانت الموازين صحيحة في عصر الصفدي كما كانت فيما سلف من أيام ؛ لعاد الشاعر إلى هذه الندرة ، ولحالت منزلته إلى الرفعة ، ولطغى على الشعراء عددُ الكتّاب والمترسلين .

وهنا سأدع فرصة الكلام لشعراء هذه الفترة ، فيحدثونا بأنفسهم عن سبب ما أصابهم من التخلف الفني وانحطاط المنزلة . ولنبدأ بتاج الدين مظفر الذهبي الذي أخذ يعزو السبب إلى كذب المشاعر وزيفها ، والشعر إذا خلا من العاطفة الصادقة جاء غثاً بارداً لا ماء فيه ولا روح ، فيصطنع الشاعر ـ ليعوّض عن هذا

---

(١) البداية والنهاية ١٣/٢٤ - ٢٥

الفقر العاطفي ـ ألوان المبالغات والصنعة المتكلفة ، وذلك حين يخاطب ممدوحه بقوله :

كَلِفتُ بتصويرِ الدُّمى في شبيبتي ... وأتقنتُها إتقانَ حُرٍّ مُهذَّبِ
وَحاوَلتُ عنها رَجعةً فمدحتُكُمْ ... فلم أخلُ من تزويقِ زُورٍ مُكذَّبِ»[1]

أما الشاعر الشيخ نجم الدين بن إسرائيل ؛ فيعيد السبب إلى أنهم سُبقوا إلى المعاني ، فأنّى اتجهوا وجدوا من قال في المعنى قبلهم بأروع من أدائهم ، لتناولهم إياه بكراً . وذلك في حديث للأديب شهاب الدين أبو الثناء محمود يقول فيه : « قلت للشيخ نجم الدين بن إسرائيل ، لأي شيء قصَّر قولك :

لَكِدْتَ تُشْبِهُ بَرْقاً من ثُغُورِهِمِ ... يا دُرَّ دَمعِي لولا الظُّلْمُ وَالشَّنَبُ

« عن قول شهاب الدين بن الخيمي :

يا بارِقاً بأعالي الرقمتينِ بَـدَا ... لقد حَكَيْتَ وَلكِنْ فاتَكَ الشَّنَبُ

« فقال : لأنه شاعر جيد ، تناول المعنى بكراً فأجاد فيه ، ولم يدع فضلة لغيره »[2] .

ويتحدث سراج الدين الوراق ليقول ؛ بأن إشاحة الناس عن الأدب ، وعدم اهتمامهم بما يقول الشاعر ، هو السبب في عدم تجويده والعناية به ، وذلك في قوله :

ما لي وَنَظْمُ الشِّعْرِ بانَتْ صَبْوَتي ... والنَّاسُ قد رَغِبوا عن الآدابِ
أأقولُهُ عَبَثـاً بلا سَبَبٍ لَهُ ... وَالشِّعْرُ مَبْنِيٌّ على الأسْـبابِ

(١) الغيث المسجم ٢/٣٨٣
(٢) « « ١/١١٧

ثم يستطرد ليشكو فقره ، وانعدام من يستحق المدح في هذا الزمان الذي ساده الحرص ، فانعدمت الصلات ، وكسدت بضاعة الشعراء فيقول :

لئنْ خفَّ صدْري للقوافي ونَظْمِها ... فَفي مَنْ وَظلَّ الجُودِ عَنِّي مُقَلَّصُ
وكَمْ مَطْلَعٍ حَبَّرْتُهُ من قَصيدَةٍ ... يَقُولُ عَسَى لِيَ أَو عَسَى لَكَ مَخْلَصُ»[1]

ويتقدم جمال الدين بن نُباتة ليؤيد ما ذكره الوراق بقوله :

مَن مُنْصِفي مِن أُناسٍ ... فيهِمْ تَحَيَّرَ ذِهْني
لا دِرْهَماً وَزَنُوهُ ... وحاوَلوا الشِّعْرَ مِنّي
وهَلْ سَمِعْتُمْ بِشِعْرٍ ... يَأْتي على غَيْرِ وَزْنِ »[2]

أما ابن الساعاتي فيصرح بأنه ملَّ حرفة الأدب هذه ، دون إبداء الأسباب ، ومثل هذا الشعور سيعود على القريض إهمالاً في تجويده ، وزيادة في هبوط منزلته. وذلك في قوله :

عِفْتُ القَريضَ فلا أَسْمو له أَبداً ... حتى لقد عِفْتُ أَنْ أَرويهِ في الكُتُبِ
هَجَرْتُ نَظْمي له لا مِنْ مَهانَتِهِ ... لكنَّها خيفَةٌ من حِرفَةِ الأَدَبِ[3]

ويتناهى إلى سمعنا صوت أبي عبد الله الحسين المنعوت بالبارع ، وهو يشكو الفاقة وانعدام الكرام فيقول - وقد عضه الحرمان بنابه - :

---

(١) نصرة الثائر ٣٦٢
(٢) الغيث ١ / ٣٣
(٣) » ٧٩/٢

قد تعففتُ واقتنعتُ بتَدْ فيعِ زماني وقلتُ إنّيَ وحدي
لالأنّي أنفتُ معْ ذا مِنَ الكُدْ يَةِ أينَ الكِرامُ حتى أُكَدّي »[1]

أما الغزي — وهو الفخور بشعره — فإنه يتعمق المشكلة نوعاً في تعليل هذا الانحطاط الفني فيقول :

أما القَصيدَةُ فَهْيَ عِلْقٌ بعْتُهُ في يَوْمِ مَسْغَبَةٍ وسُوقِ كَسادِ
ما كَثْرَةُ الشُّعَراءِ إلا عِلَّةٌ مُشْتَقَّةٌ مِنْ قِلَّةِ النُّقَّادِ
كُلٌّ يُهَدِّدُ بالقَريضِ وسَيْفِهِ والنَّصْلُ نصْلي والنِّجادُ نِجادي

فالغزي هنا يُجمل عدداً من الأسباب ؛ أبرزها قوله بكثرة المدعين من النظّام ، ممن خلا له الجو فاقتحم روضة الشعراء ؛ بعيداً عن عين النقد الحادة الساهرة ، التي أضحت قليلة كليلة لا ترى ولا تجدي فتيلاً . مما جعل الغزي يهجر الشعر وقرضه معللا لذلك بقوله :

قالوا هَجَرْتَ الشِّعْرَ قُلْتُ لهم نعم بابُ الدَّواعي والبَواعِثِ مُغْلَقُ
خَلَتِ الدِّيارُ فَلا كَريمٌ يُرْتَجى منه النَّوالُ ولا مَليحٌ يُعْشَقُ
ومن العَجائِبِ أَنه لا يُشْتَرى ويُخانُ فيه مع الكَسادِ ويُسْرَقُ »[2]

فالغزي كما يبدو يأبى الزيف ، ويتطلب لنفسه ما يثيرها حقاً لتنفعل وتجيش ، ثم تفيض على لسانه ترجمة صادقة حارة مؤثرة . ويكون ذلك بكريم يهز النفس

(١) الغيث ٢ / ٢٣٣
(٢) « ١/ ٦٢

بعطائه ، أو مليح يخلب اللب بسحره ولكن هيهات ، لقد خلت الديار حتى من هذا المليح . .

وهكذا وصل الشاعر إلى حال من العوز وانحدار المنزلة حداً لم يعد يفخر بهذا الشعر ، الذي لم يزده إلا هبوطاً . فبعد أن كانت الشاعرية فيما مضى . مدعاة للفخر والإرهاب . . غدونا نسمع أمثال قول مجاهد الدين الخياط يخاطب أبا الحسين الجزار فيقول :

أبا الُحسَيْنِ تَأَدَّبْ ما الفَخْرُ بالشِّعْرِ فَخْرُ
وما تَبَلَّلْتَ منه بِقَطْرَةٍ وَهْوَ بَحْرُ
وإنْ أَتَيْتَ بِبَيْتٍ وما لِبَيْتِكَ قَدْرُ
لم تَأْتِ بالبَيْتِ إلاّ عليهِ للنَّاسِ حِكْرُ»[1]

فهو يذكره في البيت الأول بما أضحى في عصرهم أمراً مقرراً معروفاً لا خلاف عليه . كما يغمز من جانبه في البيت الأخير فيذكره بأن لا جديد في معانيه ، وكل ما يأتي به إنما سبقه إليه الكثيرون .

ويؤكد أبو الحسين الجزار ما أورده الخياط فيقول :

فإنْ يَكُنْ أَحْمَدُ الكِنْديُّ مُتَّهِماً بالفَخْرِ يَوْماً فإنِّي لَسْتُ أُتَّهَمُ
فاللَّحْمُ والعَظْمُ والسِّكِّينُ تَعْرِفُني والَخلْعُ والقَطْعُ والسَّاطورُ والوَضَمُ»[2]

فإذا هبطت منزلة الشعر إلى هذا الحد وتبعه بالتالي أصحابه ، فأي مهابة تبقى لهم ، وأي تكريم أو تشجيع ! لا جرم أنه ستعلوا عليهم منازل الكتاب ، وتخلفهم وراءها يلهثون ويعبثون .

---

(١) نصرة الثائر ٣٣١

(٢) الغيث المسجم ٢/٣٨٢

الفصل الثاني

موضوعاته الكبرى

أ ـ السرقة الأدبية

إن القول بالسرقة قديم قدم الشعر العربي ، وبابها أوسع أبواب نقدنا على الإطلاق ، شغل حديثها النقّاد وأهمّ الشعراء ، وما ذاك إلا لنزعة التقليد التي لازمت الشعر العربي منذ أقدم عصوره . ويبدو أن الاتهام بالسرقة لم يبرأ منه شاعر العصر الجاهلي بلهَ شاعر العصور التالية .

فهذا حسان بن ثابت يقول في دفاع فخور :

لا أَسْرِقُ الشُّعَراءَ ما نَطَقوا بل لا يُوافِقُ شِعْرُهُمْ شِعْرِي
إنّي أَبَى لي ذَلِكُمْ حَسَبِي ومَقالَةٌ كَمَقاطِعِ الصَّخْرِ »[1]

والحق إن الاتهام بالسرقة كان مطعناً سهلًا وهدفاً قريباً لم ينج منه أحد من الشعراء ، إذ لا بد من أن يقع شاعر ما على معنى ؛ قال فيه غيره وهو لا يدري ، كما قد تتشابه عباراتها عن ذلك المعنى .

والصفدي ينقل الينا أمثلة على هذا من العصر الجاهلي ، الذي عرف بأصالة

(١) ديوان حسان ـ البرقوقي ١٧٤

شعرائه واعتزازهم بشعرهم ، ولكنه الاتفاق ليس إلا ، حتى إن التشابه عند بعضهم كان كاملًا تقريباً . من ذلك :

« قول امرىء القيس :

وقوفاً بها صَحْبي عليّ مَطِيَّهُمْ   يَقولونَ لا تَهْلِكْ أَسىً وتَجَمَّلِ

« وقول طرفة بن العبد بعده :

وقوفاً بها صَحْبي عليّ مَطِيَّهُمْ   يقولونَ لا تَهْلِكْ أَسىً وتَجَلَّدِ

« ومن ذلك أيضاً قول النابغة :

لوْ أَنَّها عرَضَتْ لأَشْمَطَ راهِبٍ   عَبَدَ الإلَهَ صَرُورَةٍ مُتَعَبِّدِ
لَرَنا لِبَهْجَتِها وَحُسْنِ حَديثِها   ولَخَالَهُ رَشَداً وإنْ لَمْ يَرْشُدِ

« وقول ربيعة بن مقدوم الضبي :

لوْ أَنَّها عرَضَتْ لأَشْمَطَ راهِبٍ   عَبَدَ الإلَهَ صَرُورَةٍ مُتَبَتِّلِ
لَرَنا لِبَهْجَتِها وحُسْنِ حَديثِها   ولَهَمَّ من تاموره يتَنَزَّلُ »(١)

وعندما ندور مع الزمن لنصل إلى أبي نواس ، نرى أنه قد وقع له من الاتفاق ما هو شبيه بما ذكر . يقول الأفشين العجلي :

جَرَيْتُ مع الهَوى طَلْقَ العَقِيقِ   وهانَ عليَّ مأثورُ الفُسُوقِ
وَجدْتُ أَلَذَّ عارِيَةِ اللَّيالي   قِرانَ النَّغْمِ بالوَتَرِ الخَفُوقِ

---

(١) الغيث ١ / ١٥ - ١٦

وَمُسْمِعَةٍ متى ما شِئْتُ غَنَّتْ — متى نَزَلَ الأَحِبَّةُ بالعَقيقِ
تَمَتَّعْ من شَبابٍ ليس يَبْقى — وَصِلْ بِعُرى الصَّبوحِ عُرى الغَبوقِ

« ويقول أبو نواس :

جَرَيْتُ مع الهَوى طَلْقَ الجُموحِ — وهانَ عَلَيَّ مَأثورُ القَبيحِ
وَجَدْتُ أَلَذَّ عارِيَةِ اللَّيالي — قِرانَ النَّغْمِ بالوَتَرِ الفَصيحِ
وَمُسْمِعَةٍ متى ما شِئْتُ غَنَّتْ — متى كانَ الخِيامُ بِذي طُلوحِ
تَمَتَّعْ من شَبابٍ ليس يَبْقى — وَصِلْ بِعُرَى الغَبوقِ عُرى الصَّبوحِ »[1]

ينقل إلينا الصفدي هذه النماذج من الاتفاقات بين شعراء لا يصح في أمثالهم اتهام بالسرقة ؛ ليثبت أن اتهام الشعراء بالسرقة لا يستند إلى أساس سليم . ليطالعنا بعد ذلك برأيه في هذا الموضوع الكبير .

ويمكن تلخيصه في ثلاث نقاط :

أولها : إن المعنى لِمَن يجيد أداءه ويحسن إخراجه والتعبير عنه . وذلك في رده على ابن الأثير الذي قال : « في النوع الثلاثين من السرقات الشعرية بعدما أورد بيت ابن الخياط :

أَغارُ إذا آنَسْتُ في الحَيِّ أَنَّةً — حِذاراً عليه أَنْ يكونَ لِحُبِّهِ

« وبيت عمارة :

وهل دَرَى البَيْتُ أَنِّي بعد فُرْقَتِه — ما سِرْتُ من حَرَمٍ إلا إلى حَرَمِ

---

(١) الغيث المسجم ١/١٥ - ١٦

« إن هذين البيتين مسروقان من قول المتنبي :

لو قُلْتَ للدَّنِفِ المَشُوقِ فَدَيْتُهُ مما به لأَغَرْتَهُ بِفِدائِـهِ

« ومن قول أبي تمام يمدح بعض الخلفاء وقد حجّ :

يامَن رأى حَرَماً يَسْعَى إلى حَرَمِ طُوبَى لِمُسْتَلِمٍ يَأتي وَمُلْتَزِمِ

« وأخذ في الشناع على أهـل الشام ومصر في كونهم خفي عليهم مثل هذا ، وزاد في التعجب .

أقول : « إن سبب خفاء السرقة في هذين البيتين وغيرهما ، أن الأصل يكون ركيكاً ، غير مستعمل ولا دائرٍ على الألسنة في المكاتبات والمحـــاورات والأمثال . فيأتي بعض الشعراء إلى ذلك المعنى الخامل ويبرزه في صورة حسناء ، ويسكبه في قالب أرشق وألطف من الأول ، فيحلو ويعذب ويتداوله النـاس ، ويعود الأول نسياً منسياً كأن لم يكن ، كما إذا بدا النجم ثم يبدو البدر بعده ؛ فلا يشتغل البصر بالنجم ويدع البدر .

« وما أحسن قول أبي تمام :

أَعِنْدَكَ الشَّمْسُ تُزْهَى في مَحاسِنِها وأَنْتَ مُنْشَغِلُ الأَحْشاءِ بالقَمَرِ

« ولا يُلتفت في الثاني إلا إلى حُسْنه من غير بحث عن أصله ، وهل هو مسروق أو مبتدع » .

ويستمر الصفدي في قوله ، مبيناً أن ما يبذله ابن الأثير وغيره ، من جهد في التنقيب عن السابق الى هذا المعنى – رغم حُسن البيت الجديد — جهد عقيم ، وعمل لا ضرورة له إذ يقول :

« على أن الأديب — لو أنه ما عسى أن يكون من النقـل والاطلاع —

ليس في إمكانه استخراج كل معنى يمر به من غير روية ولا تتبع لذلك ، خصوصاً فيما عذب وساغ ، وبرز في صورة غير صورته الأولى .

« ولا شك أن قول ابن الخياط أعذب من قول المتنبي . ولهذا اشتهر . وكذا قول عمارة أحسن وأرق من قول أبي تمام ، ولهذا ساغ واشتهر واستعمل مثلاً ؛ على تأخر زمانه وتقدم زمان أبي تمام . خصوصاً عجز بيت عمارة فإنه ذاع وشاع، وملأ الأفواه والأسماع » .

ولا يتوقف الصفدي هنا ؛ قبل أن يبرهن لابن الأثير على سعة اطلاعه وغزارة حفظه ، كما يكشف له في الوقت نفسه عن خطئه وتسرعه إذ يقول : « على أن المتنبي في الأصل أخذ المعنى من العباس بن الأحنف حيث يقول :

لَمْ أَلْقَ ذا شَجَنٍ يَبوحُ بِحُبِّـهِ ... إلا حَسِبْتُكَ ذلك المَحْبوبا
حَذَراً عَليكَ وَإنني بكَ واثِقٌ ... أَنْ لا يَنالَ سِواي منكَ نصيبا[1]

وثاني هذه المبادىء عند الصفدي هو أنْ لا سرقة في المعاني المألوفة والعبارات الشائعة . فيقول بعد أن يذكر بيت الطغرائي :

وذي شِطاطٍ كَصَدْرِ الرُّمحِ مُعْتَقِلٍ ... بِمِثْلِهِ غَيْرِ هَيّابٍ ولا وَكِلِ

« وصدر بيت الطغرائي هو بعينه صدر بيت الحريري في مقامته الرابعة والأربعين من قصيدته البائية ، لأن الحريري قال ؛

وذى شِطَاطٍ كَصَدْرِ الرُّمحِ قامَتُهُ ... صادَفْتُهُ بِمِنى يَشْكو من الجَدْبِ

« ومثل هذا لا يعد سرقة . لأن المعنى ليس ببديع ، ولا لفظه بفظيع ، ولا الطغرائي بعاجز عن الإتيان بمثله ، بل جرى على لسانه ونسي أن هذا لغيره ، لعدم الاحتفال بأمره إذ هو ليس بأمر كبير .

(١) نصرة الثائر ٣٧٨

« وهذا كثير الوقوع للناس لا يكاد يسلم الفحول منه . ولهذا قال أشياخ الأدب : ما حفظ المقامات أحد ونسيها إلا نظم ونثر »[1] .

وثالث هذه المبادىء أن لا عيب في أخذ المعاني ؛ بل العيب في ادعائها . فبعد أن ذكر ابن الأثير شيئاً من إنشائه في ذم الشيب قال : « وبعض هـذا مأخوذ من شعر ابن الرومي وهو قوله :

رَأَيْتُ خِضابَ المَرْءِ بعد مَشِيبِهِ حِداداً على شَرْخِ الشَّبِيبَةِ يُلْبَسُ

(غير أن في هذا الفصل معاني كثيرة لا توجد في مكان آخر) .

فردّ الصفدي بقوله : « قد ادّعى أنه ابتكر ما في هذا الفصل من المعاني ، وأنا أذكر أبياتاً على أخذ كلامه منها . قال أبو الطيب . . .

وبدأ يرد معاني ابن الأثير إلى مظانها الأولى من شعر الشعراء . وما أكثر ما يتردد بينهما مثل هذا الموقف في أثناء الكتاب ؛ كلما عاد ابن الأثير الى الزهو والادعاء .

ويدعونا هذا الى استعراض سريع لمواقف نقاد الشعر العربي عبر العصور من موضوع السرقة ، وما قدموه فيه من نظرات وحدود ، ليكون تقويمنا لما جاء به الصفدي على ضوء ذلك دقيقاً محدداً .

يقول الآمدي : « فكان ينبغي ألا أذكر السرقات فيا أخرجه من مساوىء هذين الشاعرين ، لأنني قدمت القول في أن من أدركته من أهل العلم بالشعر ؛ لم يكونوا يرون سرقات المعاني من كبير مساوىء الشعراء ، وخاصة المتأخرين . . إذ كان هذا باباً ما تعرّى منه متقدم ولا متأخر[2] » .

« وإنما السرق يكون في البديع الذي ليس للناس فيه اشتراك[3] . . . لأن

---

(٢) الغيث ١ /١٥٨

(٢) الموازنة ٢٤

(٣) الموازنة ٣٢

المعنى اللطيف الذي لا تحسن صياغته ، مثل الطراز الجيد على الثوب الخلق ، أو نفث العبير على خد الجارية القبيحة الوجه . « وإن حسن التأليف وبراعة اللفظ ؛ يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسناً ورونقاً ، حتى كأنه قد أحدث فيه غرابة لم تكن ، وزيادة لم تعهد[1] » .

فخلاصة الرأي عند الآمدي : إن لا سرقة في المعاني ، وإنما السرقة فيما يكون من إبداع الشاعر وحده ، في الصياغة والأداء الفني .

أما القاضي علي عبد العزيز الجرجاني ؛ فله في أمر السرقة رأي أعجب أدباء عصر الصفدي ، فأخذوا به راضين مطمئنين ، واحتجوا به عند كل مرة يشار بها إلى قصورهم . وهو قوله :

« ومتى أنصفت علمت أن أهل عصرنا والعصر الذي بعدنا ؛ أقرب فيه الى المعذرة وأبعد عن المذمة ، لأن من تقدمنا قد استغرق المعاني وسبق إليها وأتى على معظمها ، وإنما يحصل على بقايا : إما أن تكون تركت رغبة عنها واستهانة بها ، أو لبعد مطلبها واعتياص مرامها وتعذر الوصول إليها .

« ومتى أجهد أحدنا نفسه ، وأعمل فكره ، وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى يظنه غريباً مبتدعاً ، ونظم بيت يحسبه فرداً مخترعاً ، ثم تصفح عنه الدواوين لم يخط أن يجده بعينه ، أو يجد له مثالاً يغض من حسنه .

« ولهذا السبب أحظر على نفسي - ولا أرى لغيري - بت الحكم على شاعر بالسرقة ... وإنما أقول : قال فلان كذا وقد سبقه اليه فلان فقال كذا[2] » .

فلا سرقة عند الجرجاني ، والمعاني ملك للجميع وإنما يتفاضلون لا في السبق إليها ، بل في حسن إخراجها والتعبير عنها . وكأنما فتح الجرجاني باب الأخذ على

---

(١) الموازنة ١٧٣
(٢) الوساطة ١٧٠

مصراعيه في شقي كلامه : في اعتذاره عن المتأخرين بنفاد المعاني ، ثم في تهوينه من شأن السبق الى المعنى .

وهكذا تلاقى الجرجاني مع الآمدي ، في عدم اعتبار السرقة للمعاني شيئاً يحط من قدر الشاعر أو يؤاخذ عليه .

وعندما نصل في استعراضنا هذا إلى أبي هلال العسكري ؛ نراه يستقي من رأي الآمدي وكأنه يسير الى جواره وفي ظله ، مع اختلاف لطيف في روح التعبير إذ يقول :

« إن المعاني مشتركة بين العقلاء ، فربما وقع المعنى الجيد للسوقي والنبطي والزنجي ، وإنما يتفاضل الناس في الألفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها . وقد يقع متأخر على معنى سبقه إليه متقدم من غير أن يلم به ، ولكن كما وقع للأول وقع للآخر [1] » .

وهكذا ينضم العسكري الى سالفيه . فلا سرقة في المعاني ؛ وإنما في أدائها بطريقة تخصص المعنى العام في شاعر بعينه ، فيكون هذا الثوب الفني هو ملك لهذا الشاعر وفيه تكون السرقة .

ونختم جولتنا بالتعريج على ابن الأثير لنتعرف الى رأيه في مشكلة السرقات الشعرية فنسمعه يقول :

واعلم أن الفائدة من هذا النوع ؛ أنك تعلم أين تضع يدك في أخذ المعاني ، إذ لايستغني الآخر عن الاستعارة من الأول . لكن لا ينبغي لك أن تعجل في سبك اللفظ على المعنى المسروق ، فتنادي على نفسك بالسرقة ، فكثيراً ما رأينا من عجل في ذلك فعثر ، وتعاطى فيه البديهة فعقر .

---

(١) الصناعتين ١٩٦

والأصل المعتمد عليه في هذا الباب التورية والإخفاء ، بحيث تكون أخفى من سفاد الغراب ، وأظرف من عنقاء مغرب في الإغراب »[1].

فابن الأثير لا يكتفي بالتسامح في أمر سرقة المعاني كأسلافه ، بل تجاوز ذلك إلى أن يعلّم الشعراء طريق السرقة الخفية البارعة فلا تمكن معرفتها . وإن دلّ هذا على شيء فعلى ما وصلت إليه أذهان الشعراء في عصره من الجمود ، ونفوسهم من العقم ، حتى غدوا لا يحسنون سرقة المعنى بله ابتكاره والإبداع فيه .

نخرج من هذا إلى أنّ الصفدي فيما وضعه للسرقة لم يأت بجديد ، فكلهم فتح باب المعاني للجميع فلا سرقة في هذا الميدان ، بل السرقة في أدائه لهذا المعنى والتعبير عنه تعبيراً خاصاً متميزاً . ولكن بقي للصفدي حسن تعبيره عن هذه الأفكار المتوارثة ، بروح الأديب لا بروح عصره ؛ إذ لم يجعلها قواعـــد تعليمية سابقة منقطعة ، بل أوصلها إلينا — كعهدنا به — مقرونة بالنصوص الأدبية ، فنستشفها معه من بين هذه النصوص ، لحسن إيرادهـــا ومجاورتها ، إذ تثب النفس إلى المقارنة بينها .

★ ★ ★

(١) المثل السائر ٢/٣٦٢

المعارضات

إن هذه الكلمة لمن أكثر الكلمات التي تطالع الساري في أدب هذه العصور ، فقلما مر بعلَم ذي شهرة في دنيا الأدب ؛ إلا وقرأ فيما يقرأه عنه أنه عارض فلاناً من الشعراء في قصيدة له ، وفلاناً من الكتّاب فيما دبّجه ووشاه . وحين أشير إلى هذا هذا الأديب بعبارة َعلَم ذي شهرة ؛ فأنا أعني ما أقول . لأن ظواهر عدة من أشباه المعارضة ساد انتشارها في ذلك العصر ؛ من أمثال التشطير والتخميس وغيرها . وهذه الأمور لا تجري إلا على ما اشتهر وذاع ، وملأ الأفواه والأسماع كما يقولون .

وتعبير المعارضات من أسمى ما كان يُقدم عليه أدباء هذا العصر ، فهي أدلُّ على القدرة والتمكن وتوفير الموهبة من التشطير أو التخميس .

فإذا أقدم الأدباء على المعارضات ، فغالباً ما يتصدى العلماء والفضلاء[1] للتشطير أو التخميس ، لأن الناظم في هذا الأخير لا يسير وحده معتمداً على موهبته وقدرته ؛ بل يبقى متكئاً بشطوه على أولئك الشعراء أصحاب المشطّرات أو المخمّسات .

أما في المعارضات فالأمر مختلف كلية ، فالشاعر هنا وحده ينافس ويطاول ، ويتحدى ويصاول ، يحاول أن يأتي بما يسمو به على الأثر الذي يعارضه ، ليثبت أنه على تأخر زمانه قادر على أن يقدّم مثلما قدّم ذاك مما رفعتموه به ؛ بل وأن ينسي ذكره لو استطاع . ولكن الحقيقة تبقى على خلاف ما ظن هؤلاء وما أمّلوا ، لأن عملية المعارضة في حد ذاتها ذات دلالات ليست في صالح المتصدين لها . فمنذ

---

(١) نصرة الثائر ١٢٢

اللحظة التي يصرّح فيها الأديب بنيته في المعارضة نقول له ما يلي :

١ - إن مجرد التفكير في معارضة شاعر ما ؛ إنما هو اعتراف ضمني بتفوق ذلك الشاعر وسموه في فنه ، حتى إنك لتتمنى أن تصل إليه فتنادي على الناس ليروا وجودك إلى جانبه .

٢ - إن همك في هذه الحالة ليس الارتقاء بقصيدك إلى المثل الفني الأعلى ؛ الذي لا يوجد عادة إلا في تطلع الشاعر إليه يتمثله بعين خياله ، بل إن مَثَلك الأعلى غدا محصوراً في تلك القصيدة التي ستجعلها هدفك البعيد وغايتك المنشودة ، ومهما سموتَ ، بالموهبة وحالفتْك ظروفك ؛ فستقع دون ذلك الأثر لا محالة ، ويبقى ما أتيت به متدنياً ، لأن قارىء نصك لا يقيس ذلك إلى ما قمت بمعارضته ؛ وإنما يقيسك إلى ما يجب أن يكون عليه الأداء الفني الرفيع .

٣ - إذا كان ما يُنتظر من الأدب عامة ، ومن الشعر على وجه الخصوص ؛ إثارة فكر ، وإذكاء نفس ، وإطلاق خيال ، فإنك لن تستطيع أن تحقق ذلك فنياً ، لأنك تتقمص فكرة لم تعش بك ، وتُزَيّف شعوراً لم يخالطك ، وتتكلف خيالاً رأيته عند غيرك .

٤ - وأخيراً فمهما بلغتْ من شأو النجاح في هذا ؛ فإنك واجد من يقول : لقد عبر ذاك عفواً فكان منه تحليق وهبوط ، أما أنت فجئت تحاكي صعوده وتتجنب هبوطه ، وأنت جالس في بيتك تهدم وتبني ، تخط وتمسح . مع أنك لن تبلغ ذلك الشأو المنشود .

والآثار الأدبية الرائعة ؛ إنما هي نتاج حالة انفعالية بالغة التوتر ، يحلق بها الخيال الملون بها على أجنحته ، فتأتي صوراً متباعدة المصادر ، متحدة التأثير ، حارة النفس ؛ لأن مصدرها النفس بمجموعها .

أما أنت فقد صدر قولك عن ذهنك ولسانك ، فقد يبهر العيون بما يتلامع حيالها ، وينبه الأذن بما يصدره من أصوات رتيبة حولها ، ولكن هذا التأثير لن يجاوز سطح الحواس بحال .

وقد غفل هؤلاء أن قدرتهم هذه ؛ لو بذلوها في مناجـــاة ذات نفوسهم فاستنطقوها - وهي لا بد ناطقة - وخرجوا علينا بصورة عنها ، إذاً لعشنا معهم بقلوبنا ، ومنحناهم خواطرنا وانفعالاتنا ، من خلال إمتاع حواسنا الفنية بصورهم الصادقة النابضة .

يقـــول الصفدي :

« أخبرني الشيخ الإمام الأديب الكامل القاضي شهاب الدين أبو الثناء محمود قال : ما من شاعر في الغالب إلا وقد عارض الشريف الرضي في قصيدته التي أولها :

يا ظَبْيَةَ ٱلبانِ تَرْعى في خَمائِلِهِ　　　لِيَهْنِكِ ٱلْيَوْمَ أَنَّ القَلْبَ مَرْعاكِ

وما منهم من رزق سعادته .

ويعقب الصفدي بقوله : « ولي أنا في معارضة هذه القصيدة ، وأودعته الجزء الأول من التذكرة التي جمعتها »[1] .

فهذه قصيدة الشريف الرضي تطالعنا شمسها على الدوام ، فأين المعارضات التي لا تحصى ومنها كذلك وديعة التذكرة !

كما يخبرنا الصفدي بأن « ابن الأثير كتب كتاباً عن الملك الناصر إلى ديوان الخلافة ، في معارضة كتاب كتبه القاضي الفاضـل في فتح القدس » . ويعقب الصفدي بقوله : « إن ابن الأثير - رحمه الله - لما أنشأ هذا الكتاب ، قعد في بيته وتأنّى وتأنّق ، ونقّى ونقّح ، وكان في ذلك كالحريري في مقاماته ، فإنـــه

---

(١) الغيث ١/١١٧-١١٨

عملها في بيته بمسودات ومراجعات واختيار ومطالعات والفاضل ـ رحمه الله تعالى ـ أصدر ذلك الكتاب وهو ابن يومه ، بل ابن ساعته ، وجهزه وخرج عن يده على ما فتح به ذلك الوقت عليه »(١).

وابن الأثير شغل نفسه وقدرته في معارضة الفاضل ، وهو يشير إلى هذا في (المثل السائر) حتى إنه لم يدع للفاضل كتاباً ذكر فيه بالثناء إلا عارضه فيه(٢).

وميدان الرسائل مما قد يستطيع التـــالي أن يسمو على سابقه لو سعى إلى معارضته (٣). ولكن يبقى التقليد تخلفاً ، واقتفاء الأثر اعترافاً بالفضل . ويبقى ما ينتج عن ذلك جهداً غير مشكور ، لأنه لم يقدم للتراث الأدبي سوى نسخة ثانية لا أصالة فيها .

وحتى القاضي الفاضل الذي ملأ عصره شهرة حتى غدا رائـــد طريقة في الكتابة ؛ كان يشعر في قرارة نفسه بأنه في القرن السادس . وخبرُ محاولته معارضـــة الحريري في مقاماته معروف ، وقد ورد في ألفاف هذه الدراسة (٤) ، ولكن الفاضل دل على تفرد في الكتابة ، فبعد أن سار في معارضة المقامات شوطاً لا بأس به ؛ شعر بالهوان وهو يسير في ظل الحريري ، ورأى أن السير خلفه يبقى سيراً خلفه مهما كان فيه قوياً قادراً . . فقطّع ما كان عمله من المقامات ولم يظهر » .

وهكذا تدل العصور على نفسها ، ويرفع الشعراء لافتات أقدارهم بأنفسهم ، وكانت لافتة المعارضات في عصر الصفدي ؛ من أكبر هذه اللافتـــات حجماً ، وأكثرها من بينها عدداً .

---

(١) نصرة الثائر ٣٠٣
(٢) المصدر السابق ٦٢
(٣) المصدر السابق ٣٠٧
(٤) انظر ص ٢٤٨ وانظر نصرة الثائر ٩٠

حل المنظوم

ويشكل في العصر ظاهرة من أبرز الظواهر الأدبية الشاملة ، حتى لقد غدا هو الوسيلة ، والغاية ، لتكوين الأديب .

ولم يكن هذا الفن وليد عصر الصفدي ، فقد جاء في ترجمة الآمدي الناقد أن من كتبه (كتاب نثر المنظوم)[1] . ولكن هذا العصر تبناه وتعلق به ، ووجد فيه طوق النجاة ، فأقبـل عليه إقبال الملهوف ، وشرب منه شرب الهيم ، حتى استحق أن يقترن هذا الفن به ، وينسب عند الحجاج إليه .

وليس من العسير التعرف إلى سبب تعلقهم بحل المنظوم هذا ، وقد رأينا إيمانهم بتفوق الأقدمين ، واعترافهم بالعجز حيالهم ، واعتقادهم بأن أولئك قـد استنفدوا معاني الكون طراً فلم يبقوا منها على شيء يذكر ، فما عليهم إلا أن يلتفتوا بجمعهم إلى الأسلاف يمتحون من صهاريجهم ، فينهلوا ويعلّوا ؛ لتقاس قدرة الأديب منهم بقدرته على استيعاب أكبر قدر ممكن من معاني أولئك ، حتى تمتلىء أوعيته ، وتفيض بالمعاني حافظته ، فإذا تكلم في أمر تدفقت المعاني على لسانه ثرة غزيرة . كما تقاس قدرته في إيراد أكبر قدر من هذه المعاني في النص الواحد .

حتى غدا كلام أكثرهم تركيباً عجيباً من معاني شتى قد لا تسعف المنشىء منهم موهبته ليُحسن التأليف بينها ، وصهرها في الفكرة الواحدة أو الشعور المشترك . فيكون من ذلك أشتات لا يربط بينها سوى أنها تنتمي جميعاً إلى المنظوم .

ولم يكتفوا بأن جعلوا من الشعر مورداً يُغني به الأدباء نفوسهم وأفكارهم ، بل لقد جعل بعضهم من هذا المنظوم مدرسة متعددة المراحل لتخريج الكتّاب ،

---

(١) معجم الادباء ٨/٨٥

فابتكروا لذلك السبل ووضعوا للوصول إليها القواعد والأصول .

يقول ابن الأثير : « مَن أحبَّ أن يكون كاتباً أو كان عنده طبع مجيب ، فعليه بحفظ الدواوين ذوات العدد ولا يقنع بالقليل من ذلك ، ثم يأخذ في نثر الشعر من محفوظاته ، وطريقه أن يبتدىء فيأخذ قصيداً من القصائد فينثره بيتاً بيتاً على التوالي .

« ولا يستنكف في الابتداء أن ينثر الشعر بألفاظه أو بأكثرها ، فإنه لا يستطيع إلا ذلك ، وإذا مرنت نفسه وتدرب خاطره ؛ ارتفع عن هذه الدرجة ، وصار يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده ، ثم يرتفع عن ذلك حتى يكسوه ضروباً من العبارات المختلفة ، وحينئذ يحصل لخاطره ـ بمباشرة المعاني ـ لقاح ؛ فيستنتج منها معاني غير تلك المعاني ، وسبيله أن يكثر الإدمان ليلا ونهاراً ، ولا يزال على ذلك مدة طويلة حتى يصير له ملكة .

« فإذا كتب كتاباً أو خطب خطبة تدفقت المعاني في أثناء كلامه ، وجاءت ألفاظه معسولة لا مغسولة ، وكان عليها جدة تكاد ترقص رقصاً . وهذا شيء خبرته بالتجربة ، ولا ينبئك مثل خبير[1] » .

بهذا ؛ يريد ابن الأثير أن يجعل أفكار الكاتب كلها مجتلبة من خارج نفسه ، فإذا أراد التعبير عما فيها ؛ انهالت عليه أقوال الآخرين ومعانيهم ، فجاء تعبيره هيكلا متجاورَ الأجزاء ، وشكلا مفككاً لا حرارة للفكرة أو التجربة فيه .

ولو شئنا أن نتعرف من هؤلاء سر إقبالهم على المنظوم يحلّونه ، فلا يعمدون إلى النثر الرفيع يحتذونه ، ويترسمون خطاه بيسر وسهولة ؛ لسارع ابن الأثير إلى الإجابة بقوله :

« إن الأشعار أكثر ، والمعاني فيها أغزر . وسبب ذلك أن العرب الذين

---

(١) المثل السائر ١/١٣٦

هم أصل الفصاحة ؛ جلّ كلامهم شعر ، ولا نجد الكلام المنثور في كلامهم إلا يسيراً . ولو كثر فإنه لم ينقل عنهم بل المنقول عنهم هو الشعر ، فأودعوا أشعارهم كل المعاني . كما قال الله تعالى : « ألم تر أنهم في كل واد يهيمون » :

« ثم جاء الطراز الأول من المخضرمين فلم يكن لهم إلا الشعر ، ثم استمر الحال على ذلك فكان الشعر هو الأكثر ، والكلام المنثور بالنسبة إليه قطرة من بحر ، ولهذا صارت المعاني كلها مودعة في الأشعار ، وحيث كانت بهذه الصورة ؛ فكان حثي على حفظها ، واستعمال معانيها في الخطب والمكاتبات لهذا السبب(1)» .

ولم يدع ابن الأثير ينابيع المنظوم يردها الأدباء لإغنـاء نفوسهم وإيقاظ مشاعرهم وتغذية ملكاتهم وريّ مواهبهم ؛ بل فتح إليها السبل ، ومهد الطرق ، ووضع اللافتات ، وراح ينادي بالناس ويقودهم إليها ، يعلّم المبتدئين طرق الأخذ منها جرعات ، تتدرج في مراحـل نظّمها لهم ، ووزعهم عليها ، حتى أيقنوا أن لا حياة لألسنتهم وأقلامهم إلا بورود هذا المنظوم ، منه يأخذون المعاني ، ويلتقطون العبارات ، ويستمدون مادة القول ، حتى غدت نفوسهم بعيدة عن إنشائهم ، ومادة أفكارهم من صنع غيرهم .

ولنقترب من حلقات المعلم ابن الاثير لنسمعه يقول :

« حل الأبيات الشعرية ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول منها وهو أدناها مرتبة ، أن يأخذ الناثر بيتاً من الشعر ، فينثره بلفظه من غير زيادة ، وهذا عيب فاحش ، ومثاله كمن أخذ عقداً قد أتقن نظمه ، وأحسن تأليفه ، فأوهاه وبدّده ، وكان يقوم عذره في ذلك أن لو نقله عن كونه عقداً إلى صورة أخرى مثله أو أحسن منه ؟ وأيضاً فإنه إذا نثر الشعر بلفظه ، كان

(1) المثل السائر ١٣٧

صاحبه مشهور السرقة فيقال : هذا شعر فلان بعينه ، لكون ألفاظه باقية لم يتغير منها شيء .

« وقد سلك هذا المسلك بعض العراقيين فجاء مستهجناً لا مستحسناً . كقوله في بعض أبيات الحماسة :

وَأَلدَّ ذي حَنَقٍ عليَّ كأنما تَغْلي عَداوَةُ صَدْرِهِ في مِرْجَلِ
أَرْجَيتُهُ عنّي فأبْصَرَ قَصْدَهُ وَكَوَيْتُه فوق النواظِرِ من علِ

« فقال في نثر هذين البيتين : فكم لقي ألدّ ذا حنق ، كأنه ينظر إلى الكواكب من عل ، وتغلي عداوة صدره في مرجل . فكواه فوق ناظريه وأكبّه لفمه ويديه . فلم يَزد هذا الناثر على أن أزال رونق الوزن وطلاوة النظم لا غير .

« ومن هذا القسم ضرب محمود لا عيب فيه ، وهو أن يكون البيت من الشعر قد تضمن شيئاً لا يمكن تغيير لفظه ، فحينئذ يُعذر ناثره إذا أتى بذلك اللفظ . ومثاله قول الشاعر في أول الحماسة :

لو كنتُ مِن مازنٍ لم تَستَبِحْ إبِلي بنو اللَّقيطَةِ من ذُهْلِ بن شَيْبانا

وقد نثرتُ ذلك فقلت (لستُ ممن تستبيح إبله بنو اللقيطة ، ولا الذي إذا هَمَّ بأمر كانت الآمال إليه وسيطة ، ولكني أحمّل الهَمَل ، وأقرّب الأمل ، وأقول سبق السيف العذل) .

« فذكر بني اللقيطة ههنا لا بد منه على حسب ما ذكره الشاعر ، وكذلك الأمثال السائرة فإنه لا بد من ذكرها على ما جاءت في الشعر » .

وبهذا ينتهي ابن الأثير من حديثه إلى تلامذة المرحلة الأولى ، كما لم ينس أن يعرض عليهم نموذجاً من عمل المقصّرين منهم ، ثم يقدم لهم نموذجاً من عنده لينصرف إلى مَن صنّفهم في المرحلة الثانية فيقول :

« وأما القسم الثاني - وهو وسط بين الأول والثالث في المرتبة - فهو أن ينثر المعنى المنظوم ببعض ألفاظه ويعزف عن البعض بألفاظ أخر ، وهناك تظهر الصنعة في المماثلة والمشابهة ومؤاخاة الألفاظ الباقية بالألفاظ المرتجلة ، فإنه إذا أخذ لفظاً لشاعر مجيد قد نقحه وصححه ، فقرنه بما لا يلائمه ، كان كمن جمع بين لؤلؤة وحصاة . ولا خفاء بما في ذلك من الانتصاب للقدح والاستهداف للطعن .

والطريق المسلوك إلى هذا القسم ؛ أن تأخذ بعض بيت من الأبيات الشعرية هو أحسن ما فيه ، ثم تماثله . وسأورد هاهنا مثالاً واحداً ليكون قدوة للمتكلم فأقول :

قد ورد هذا البيت من شعر أبي تمام في وصف قصيدة له :

حَذَّاءُ تَمْلأُ كلَّ أُذْنٍ حِكْمَةً وَبَلاغَةً وَتُدِرُّ كُلَّ وَرِيدِ

فقوله (تملأ كل أذن حكمة) من الكلام الحسن وهو أحسن ما في البيت . فإذا أردت أن تنثر هذا المعنى فلا بد من استعمال لفظه بعينه ، لأنه في الغاية القصوى من الفصاحة والبلاغة . فعليك حينئذ أن تؤاخيه بمثله وهذا عسر جداً ، وهو عندي أصعب مثالاً من نثر الشعر بغير لفظه ، لأنه مسلك مضيق ، لما فيه من التعرض لمماثلة ما هو في غاية الحسن والجودة . وأما نثر الشعر بغير لفظه فذلك يتصرف فيه ناثره على حسب ما يراه ولا يكون مقيداً فيه بمثال يضطر إلى مؤاخاته .

« وقد نثرت هذه الكلمات المشار إليها وأتيت بها من جملة كتاب قلت : وكلامي قد عُرف بين الناس واشتهر ، وفاق مسير الشمس والقمر ، وإذا عُرف الكلام صارت المعرفة له علامة ، وأمن من سرقته إذ لو سرق لدلت عليه الوسامة . ومن خصائص صفاته أن يملأ كل أذن حكمه ، ويجعل فصاحة كلا لسان عجمه ، وإذا جرت نفثاته في الأفهام قالت أهذه بنت فكرة أم بنت كرمه . .

فانظر كيف فعلتُ في هذا الموضع . فإني لما أخذْتُ تلك الكلمات من

البيت الشعري التزمت بأن أؤاخيها بما هو مثلها أو أحسن منها ، فجئت بهذا الفصل كما تراه . وكذلك ينبغي أن يفعل فيما هذا سبيله » .

ويخف ابن الأثير ليوافي المرحلة الثالثة ويقول :

« وأما القسم الثالث وهو أعلى من القسمين الأولين ، فهو أن يؤخذ المعنى فيصاغ بألفاظ غير ألفاظه ، ويتبين حذقُ الصائغ في صياغته ، ويُعلم مقدار تصرفه في صناعته ، فإن استطاع الزيادة على المعنى فتلك الدرجة العالية وإلا أحسن التصرف وأتقن التأليف ، ليكون أولى بذلك المعنى من صاحبه الأول .

« واعلمْ أنَّ من أبيات الشعر ما يتسع المجال لناثره فيورده بضروب من العبارات ، وذلك عندي شبيه بالمسائل السيالة في الحساب ؛ التي يجاب عنها بعدة من الأجوبة . ومن الأبيات ما يضيق فيه المجال ، حتى يكاد الماهر في هذه الصناعة ألا يخرج عن ذلك اللفظ ، وإنما يكون هذا لعدم النظير .

« فأما ما يتسع المجال في نثره فكقول أبي الطيب المتنبي :

إنَّ القَتيلَ مُضَرَّجاً بدُموعِهِ مِثْلُ القَتيلِ مُضَرَّجاً بدِمَائِهِ

أخذْتُ هذا المعنى فنثرته : فمن قولي : القتيل بسيف العيون كالقتيل بسيف المنون ، غير أن ذلك لا يُجرد من غمده ، ولا يقاد صاحبه بعمده . فزدت على المعنى الذي تضمنه البيت وغيرت اللفظ . ومن ذلك وجه آخر وهو : دمع المحب ودم القتيل متفقان في التشبيه والتمثيل ، ولا تجد بينهما بوناً ، إلا أنهما يختلفان لوناً . وهذا أحسن من الأول .

« وأما ما يضيق فيه المجال فيعسر على الناثر تبديل ألفاظه ؛ فكقول أبي تمام :

تَرَدَّى ثِيابَ المَوْتِ حُمْراً فما أَتَى لها اللّيْلُ إلا وَهْيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ

وقول أبي الطيب المتنبي :

وكَانَ بِها مِثْلُ الجُنُونِ فأَصْبَحَتْ ... ومِن جُثَثِ القَتْلَى عليها تَمائِمُ

« وأمثال هذا لا تأتي إلا قليلاً ، وسببه أن المعنى ينحصر في مقصد من المقاصد حتى لا يكاد يأتي قدّاً كهذين البيتين . ألا ترى أن أبا تمام قصد المؤاخاة في ذكر لوني الثياب من الأحمر والأخضر ، وجاء ذلك واقعاً على المعنى الذي أراده : من لون ثياب القتلى وثياب الجنة ، فإذا ُفك نظم هذا البيت وأُريد صوغه بغير لفظه ، لا يمكن ذلك . وبيت أبي الطيب جار هذا المجرى .

« وقد نثرت هذين البيتين : أما بيت أبي تمام فإني قلت في نثره : لم تكسه المنايا نسج شفارها ، حتى كسته الجنة نسج شعارها ، فبدل أحمر ثوبه بأخضره ، وكأس حمامه بكأس كوثره . وهذا من الحسن على غاية يكون كمد حسودهـــا من جملة شهودها .

« وأما بيت أبي الطيب المتنبي ، فإني قلت في نثره : سرى إلى حصن كذا مستعيداً منه سبيّةً نزعها العدو اختلاساً ، وأخذها مخادعة لا افتراساً ، فما أنزلها حتى استقادها ، ولا نزلها حتى استعادها ، وكأنما بها جنون فبعث لها من عزائمه عزائم ، وعلق عليها من رؤوس القتلى تمائم . وفي هذا من الحسن ما لا خفاء به ، فمن شاء أن ينثر شعراً فلينثر هكذا وإلا فليترك (١) .

وهكذا ينتهي ابن الأثير من إلقاء هذا الدرس الطويل ، جاعلاً من حل المنظوم علماً ذا قواعد وأصول ، ومن الشعر أروقة للتعليم ، ولم يعد دوحة يستظلها الصادي مستروحاً نسماته ، فيتذوق من روعة التصوير ما يمتع نفسه ويسمو بخياله ، ومن صادق

---

(١) المثل السائر ٧٨/٨٣

انفعالاته وحرارتها ما يوقظ مشاعره خافقة مع خلجات الشاعر حيثما اتجه ، أو من تأملاته البعيدة ما يطلق فكره ويعمق نظرته .

وبذا تغيرت النظرة إلى الشعر ، وغدا الذهن أسبق ما يكون إليه ، واقتناص المعنى منه أول ما يثور في نفس قارئه .

ويسمع ابن أبي الحديد بما جاء به ابن الأثير فيطرب له ويقول معبراً عن إعجابه بقواعده : « واعلم أن هذا الباب — وهو حل المنظوم — هو عين هذا الكتاب وخلاصته ، ووجه جميعه وطراز حاشيته ، وكأنه لم يصنفه إلا لأجله ، وليظهر صناعته فيه » .

ويلاحظ ابن أبي الحديد مدى سيطرة هذا المنظوم على إنشاء ابن الأثير ، بيد أنه لا يستنكره إذ يقول : « على أن كتابته كلها إذا تأملها العارف بهذا الفن ؛ وجدها من هذا الباب ، لأنها إما محلول منظوم أو ترصيع آية او خبر او مثل أو واقعة . وهذه احدى طرائق الكتابة عندي ، واليها أذهب ، ولها أستعمل » .

ويزيدنا يقيناً بما وصلت اليه منزلة حل المنظوم فيقول « وقد كنت شرعت في حل سيفيات أبي الطيب المتنبي ، لشهرتها وغلبتها على ألسنة الناس ، وأن أجعل ذلك كتاباً مفرداً أتقرب به أيضاً إلى الخزانة الشريفة — عمّرها الله تعالى — فخرج بعضه ، وصدف من إتمامه عوائق الوقت أو شواغله »[1] .

ولا بأس من السير مع ابن أبي الحديد إذ يعمد إلى مقارنة حله للمنظوم مع حل ابن الأثير ، لنعرف المزيد مما يتفاخرون به في هذا الفن .

يقول ابن ابي الحديد مبتدئاً بإنشائه : « حماها فأجلى ، وبناها فأعلى ، ونيران المرّان تضطرم ، وأمواج الأرماح تلتطم ، وشبا الظُّبا يصطدم ، ولظى

(١) « الفلك الدائر » في المثل السائر ٤/٩٦ – ٩٧

الوغى تحتدم ، فقرّت بعد انزعاجها ، وسلمت بعد ارتتاجها ، وشفيت من ألمها وبرئت من لممها ، وأصبحت متقلدة بغمائم من أشلاء الفوارس تدفع عنها عين العائن ونفس النافس ، وليست كقلائد عرّاف اليمامة وعرّاف نجـــد ، ولكنها قلادة طرفاها الشرف وواسطتها المجد .

وقد حللتُ في هذا قوله في وصف قلعة الحدث :

بنَاهَا فأعْلى وَالقَنا يَقْرَعُ القَنَا ... ومَوجُ المَنَايا حَولَها مُتَلاطِمُ
وكَانَ بها مِثْلُ الجُنونِ فأصْبحَتْ ... ومِنْ جُثَثِ القَتْلَى عليها تمائِمُ

« وأشرت فيـه إلى قوله ﷺ للحسن والحسين عليهما السـلام (أعيذكما من عـين العائن ونفس النافس) — وإلى قول عروة بن حزام :

ضَمِنْتُ لِعَرَّافِ اليَمامَةِ حُكْمَهُ ... وعَرَّافِ نَجْدٍ إنْ هُما شَفَيَاني

« وقد نثر هذا المصنف هذين البيتين فقال : « بناها والأسنة في بنائهـــا متخاصمه ، وأمواج المنايا فوق أيدي البانين متلاطمه ، فما أحلّت الحرب عنها حتى زُلزلت أقطارها بركض الجياد ، وأصيبت بمثـــل الجنون فعلّقت عليها تمائم من الرؤوس والأجساد . ولا شك أن الحرب تعوّد عمن عز جانبه ، وتقول ألا هكذا فليكسب المجد كاسبه » .

ونثرها على أسلوب آخر فقال « بناها ودون ذلك البناء شوك الأسل ، وطوفان المنايا الذي لا يقال سآوي منه إلى جبل ، ولم يكن بناؤها إلا بعد أن همدت رؤوسٌ عن أعناق ، وكأنما أصيبت بجنون فعلّقت القتلى عليها مكان التمائم أو شينت بعَطَل؛ فعلّقت مكان الأطواق » .

ومن عنده أدنى ذوق في فن الكتابة يعرف الفرق بين كلامنا وهذا الكلام .

وقد نثر هذا الكاتب البيت الثاني خاصة فجاء أصلح مما قاله في نثر البيتين وهو : « سرى إلى حصن كذا مستعيداً منه سبيّة نزعها العدو اختلاساً ، فما أنزلها حتى استقادها ، ولا نزلها حتى استعادها ، وكأنما كان بها جنون فبعث لها من عزائه عزائم ، وعلق عليها من رؤوس القتلى تمائم .

« وهذا وإن كان حسناً ، لكن الزيادات العجيبة والتسميطات والأسجاع التي أتينا بها نحن ؛ تزري على ما أتى به هذا الكاتب وتتجاوزه أضعافاً مضاعفة »[١].

ونفد صبر الصفدي وهو يسمع كلام ابن الأثير في تعليم حل المنظـــوم ، ومراحل ذلك ، وبذْله بين أيدي المبتدئين بعد تقسيمه إلى أنواع ، وطريقة تناول كل نوع . . . فهو وإن كان يقر الأديب على ورود المنظوم ، والنهل من فراته ، والاستعانة بما أبدعه خيال الشعراء ؛ لكنه لا يبـذله لمن لا يسمو إليه ، بل يشترط أن يرده صاحب الموهبة ، ولا يكون موقفه موقف التلميذ الذي يأخذ مبهوراً كل ما يصادفه ، بل يشترط له أن يكون أديباً موهوباً قديراً ، إذا ورد حدائق الشعر ميز بين حسنها ورديئهـا ، فتأثر بالحسن الرائع ، وعدّل في الرديء حتى يعوض للمنظوم ما فقده عند الحل ؛ من مزايا الشعر الكثيرة من أمثال : الوزن والقافية وأسلوب الصياغة الشعرية والألفـاظ الموحية . . . إلى غير ذلك . فالذي يرِد هذه الواحات الوارفة ؛ يجب ألا يقل في موهبته ، وغنى نفسه ، وسلامة ذوقه وقدرته ، عن الشاعر بحال ، بل إنه ليفوقه حتى يستطيع أن يتدارك ما يراه من مآخذه .

ولننصت للصفدي وهو ينقل إلينا كل هذا بقوله « وحل المنظوم إنما هو نوع واحد ، وقسْم لو فُقـد ما كان عليه واجد . وما لم يكن فيه خفـة تروّجه ، وحلاوة تقرنه بالسمع وتزوّجه ؛ لم يلق بالسـمع قرطه ، ولا يجاز بالقبول شرطه

(١) في المثل السائر ٤/١٠٢ - ١٠٤

« وما أمثله إلا بعقد نثرت حباته ، وروض صوحت زهراته . فأي حسن لقريض خانه وزنه ، وأي نضارة لروض جفاه مزنه .

« اللهم إلا أن يكون المنشىء سليم الفطرة ، قويم الفكرة ، يستدرك على الناظم ما فاته ، ويرهف صارمه ويثقف قناته ، إما باحتراز ما لم يحد عنه ، أو الإتيان بملائم لم يتمكن لضيق الوزن منه ، أو باختصار ما يقوم المعنى بدونه ، أو بزيادة زهر في غصونه ، أو بجودة سبكه ، أو بإتقان حبكه ، وهنا تظهر القدرة المتمكنة، وتكون أدلة الفصاحة بينة .

فليس لِوَصْلِ من يُدعَى فَيَأْتي عُذوبةُ وَصْلِ من يُدْعَى فَيَأْبَى »

كما أخذ الصفدي على ابن الأثير استسلامه لهذا المنظوم ، حتى أضحى انشاؤه فكَراً شتى من صنع غيره فقال : « وأما ابن الأثير فإنه أكثر من الحل ، واتى فيه بما حرم وما حل ، وزاد من رقّمه في بروده ، وبالغ من نظمه في عقوده.

والخَدُّ بَهْجَتُهُ بِخَالٍ واحِدٍ وتَقِلُّ فيه بِكَثْرَةِ الخِيلانِ »[1]

وهكذا اختلفت وجهة نظر كل منهما إلى حل المنظوم . فابن الاثير معلم يدل المبتدىء إلى أسهل الطرق إلى تعلم الكتابة ، والصفدي أديب يجعل المنظوم طريقاً للأديب للتحليق مع الشاعر في أجوائه ، وتحقيق ذاته وذوقه باستدراك مايراه في شعره من زيادة أو نقص او غير ذلك ، مما قد يقع به الشاعر بسبب من قيود الفن العديدة التي أحاطت به ساعة الأداء .

ولو اننا لا نقر شيئاً يتعلق بالدخول في تجربة الشاعر وتشويهها تحت اسم الكمال ؛ وإنما يكون فهمنا لهذا الشاعر وفنه ، من خلال ما جاء به ، على الصورة التي أدى بها ما أراد ، ولكنه حل المنظوم في القرن الهجري الثامن .

---

(١) نصرة الثائر ٩٠ - ٩١

الفصل الثالث

منافذ التجـــــــــديد

ربما لا نتجاوز الحد أو نصدم الحقائق إذا أطلقنا كلمة التجديد على ما جاء به شعراء هذا العصر . فلقد وجد هؤلاء الشعراء أنفسهم في ضائقة بلغت الغاية . فتحوا عيونهم فرأوا أمامهم تراثاً غنياً ، وعبقريات فذة ، وذرى فنية سامقة، فوقفوا حيال ذلك دهشين معجبين . وأيقنوا أنهم قد سبقوا إلى كل شيء ، وغفلوا عن أوسع الميادين وأغناها مما لا ينقطع صوبه ، ولا ينضب معينه ، ذلك هو ميدان النفس : بأغوارها ومساربها وانفعالاتها وردود فعلها ؛ في احتكاكها بالواقع والأحياء،وتأملها في ذلك كله ، هذا بغض النظر عن أحوال المجتمع وأحداث العصر .

غفلوا عن هذا المعين الثر واتجهوا صوب المعاني ! فما أن يعالج أحدهم معنى — وهو يظن جذلاً أنه قد وقع على جديد — حتى تتعالى من حوله الأصوات تذكّره بمن قال في هذا المعنى فبرع . ولا يكاد يطرق فكرة حتى يجد القول وقد أُشبع فيها مِن قَبل ؛ ممن ملأت شهرته آفاق الأدب ، فسد إليها كل سبيل .

وهكذا أيقنوا جميعاً أن ميدان المعاني لا جديد فيه ، وما عليهم إلا أن يأخذوا من الأسلاف معترفين غير متحرجين .

ولكن هذا لم يكن يعني في نظرهم العجز والاستسلام :

وما عَقِمَتْ أُمُّ النَّدَى بعد حَاتِمٍ   لهـا كُلَّ يومٍ في البَرِيَّةِ مَوْلُودُ

كما يقول الصفدي[1] . فإن فاتهم التجديد في المعاني ، فإن ميدان الصياغة ، والتجديد في أساليب الأداء ؛ لا يزال متسعاً . فتنادوا إليه زرافات ووحدانا ، وقدموا بين يدي الأدب الكثير مما فخروا به ، واعتبروه فتحاً لم يسبقوا إليه ، وأنهم به قد بلغوا الغاية التي لا تسامى . وفي ذلك يقول الصفدي :

« لتعلم أيها الواقف على كتابي هذا ؛ أن ابن الأثير — رحمه الله — ما أتى بطائل ، وأنه لو تأخر وجوده إلى هذا العصر ، علم أن قوله ليس بحجه ، وأن قطره يغرق في مثل هذه اللجه ، وان الناس قد بلغوا محط الرحال وهو إلى الآن في الدلجه [2]» .

ونستطيع أن نعيد تجديدهم هذا إلى مصادر أساسية ثلاثة :

— أولها المعاني القديمة نفسها ، فاستقوا منها بما ابتكروه لذلك من الطرق المختلفه .

— ثانيها الاستمداد من القرآن والحديث ومعطيات الثقافة .

— وثالثها وقد قام على الألفاظ المفردة والتنويع في أساليب الأداء .

وما علينا الآن إلا أن نتقدم إلى هذه المنافذ ؛ لنطل على الجديد الذي حدثونا عنه ، مما سترد وجوهه فيما يلي :

١ — التوليد :

وذلك كما يقول الصفدي بأن « يولد المعنى من معنى آخر كقول ابن المعتز :

---

(١) نصرة الثائر ٥١

(٢) المصدر السابق ٢٢١

وأَرَى الثُّرَيَّا في السَّماء كأَنَّها   قَدمٌ تَبَدَّتْ من ثِيابِ حِدادِ

« فإنه ولد هذا المعنى من قول الآخر :

كأَنَّ كُؤوسَ الشَّربِ واللَّيْلُ مُظْلِمٌ   وجوهُ عَذَارَى في مَلاحِفَ سُودِ

« وكما قال ابن الذروي وقد ذكر أهل النوبة في مدح صلاح الدين :

سُودٌ وتَحْمَرُّ الظُّبا حَوْلَها   كأَعْيُنِ الرُّمْدِ بَدَتْ للأُساةْ
أوْ لا فَسُمْرٌ تَنْتَحِيها ٱلْقَنا   مِثْلَ دِنانٍ بُذِلَتْ للسُّقاةْ

« فإنه ولد هذا المعنى الأول من قول الأرَّجاني :

وكَأَنَّ كُلَّ شَقيقةٍ مُحْمَرَّةٍ   كَحَلَتْ مَحاجِرَها بأَحْمَرَ قانِ
عَيْنٌ لإِنسانٍ وقد رَمِدَتْ فما   يَبْدو لِرامِقِها سِوى الإِنْسانِ

« وولد المعنى الثاني من قول أبي العلاء المعري في تشبيه البرق :

اذا ما اهْتاجَ أَحْمَرَ مُسْتَطيراً   حَسِبْتَ اللَّيْلَ زِنْجِيّاً جَريحا

« ولعمري لقد تصرف في هذا التشبيه الثاني تصرفاً حسناً .

« وكما ولدت أنا من قول الحصري :

النَّاسُ كالأَرْضِ ومنها هُمُ   مِنْ خَشِنِ اللَّمْسِ ومِنْ لَيِّنِ
مَرْوٌ تَشَكَّى منه الرِّجْلُ الأَذى   وإِثْمِدٌ يُجْعَلُ في الأَعْيُنِ

« فنقلته إلى معنى المتنبي المشهور وقلت :

مَوْلىً تَفَرَّعَ مِنْ كِرامٍ وَجْهُهُمْ   وَبَنانُهُمْ للمُجْتَلي والمُجْتَني

سادُوا الأَنامَ عُلاً وهُمْ من جِنْسِهِمْ ومِنَ الحِجَارَةِ إِثْمِدٌ في الأَعْيُنِ

« وولدت أيضاً من قول بعض العرب :

كأَنَّ هِلالَهُ مِـــرْآةُ قَيْنٍ لها شَطْرٌ يَلوحُ مِنَ الغِلافِ

« فقلت في العِذار :

قُلْتُ إذ قيل تَسَلَّ فهـــذا صَدْغُهُ قد دَجا وكانَ يُنيرُ
هي مِرْآةُ خَدِّهِ غابَ منهـا في غِلافِ العِذارِ شَيْءٌ يَسيرُ »[1]

وواضح أن ما قصده بالتوليد ؛ ما هو إلا أخذ لأسمى ما في البيت ، أو ما يشكل نقطة ارتكازه وأروع ما فيه ، فيتناول المعنى أو اللفظ أو كليهما معا .

فظهور بياض البشرة من بين السواد ؛ هو أكثر عناصر الصورة إثارة في البيت الاول ، وكذلك كان اللون الأحمر في الإطار الأسود هو لب القول الثاني .

أما ما ادعاه الصفدي من توليده معناه من قول الحصري فقد أخذ الفكرة وأبرز عباراتها ، وهو فكرة التباين والإثمد في العين . وكذلك في قوله الآخير فإن اختفاء الإشراق تحت الغلاف هو أبرع ما يثب له الحس وكان هو ما تناوله الصفدي تحت اسم التوليد .

٢ — الانتزاع :

وننتقل إلى النافذة الثانية ، لنرى أن التجديد هنا حمل اسم الانتزاع أو ما دعوه كذلك : باستخراج معنى مبتدع من معنى ليس بمبتدع . وفي ذلك يقول

---

(١) نصرة الثائر ١٩١ وما بعدها

الصفدي : « أما انتزاع المعنى الغريب من معنى آخر فكقول مسلم بن الوليد :

تَظَلَّمَ المالُ والأعداءُ من يَدِهِ   لا زالَ للمالِ والأعداءِ ظَلاَّما

« انتزعه من قول أبي نواس :

بُحَّ صوتُ المالِ مما   مِنْكَ يَشْكُو ويَصيحُ

« فقول مسلم أفصح ومعناه أبلغ :

« وقد اتفقت لي انتزاعات معانٍ ـ من معان هي دونها ـ غريبة . من ذلك قول بيليك القبجاقي المعري في الأُترُجّ :

وأُتْرُجَّةٍ جاءَتْ إليكَ هديَّةً   فَشَبَّهْتُ منها الرِّيحَ رِيحَ حَبيبِ
إذا نَظَرَتْ عيْني إليها تَمَثَّلَتْ   بِكَفِّ مَريضٍ مَدَّها لطَبيبِ

« انتزعت منه معنى آخر فقلت :

أيا حُسْنَ أُترُجٍ يَلُوحُ لناظري   علَيه من الأوراقِ خُضْرُ الغَلايلِ
حَكَى مُسْتَهاماً غَيَّرَ البَيْنُ حالَهُ   وقد عَدَّ أيامَ الجَفا بالأنامِلِ

« ومن ذلك قول مهيار الديلمي :

هل السابِقُ العَجْلانُ يَملِكُ أَمْرَهُ   فما كُلُّ سَيْرِ اليَعْمَلاتِ وَخيدُ
رُوَيْداً بأخْفافِ المَطايا فإنَّما   تُداسُ جِباهٌ في الثَّرى وخُدُودُ

« انتزعت منه معنى آخر فقلت :

أضحَى نَسيمُ دِمَشْقَ حَيَّاها الحَيا   يَمْشي الهُوَيْنا في ظِلالِ حِماها

وكأنَّهُ مِنْ مائِها وهِضابِهـــا ما داسَ إلا أَعْيُناً وجِباها»[1]

وأمر الانتزاع واضح كما يبدو ، فالشاعر اللاحق لا يرضى عن تعبير سابقه عن المعنى ؛ فيصوغه له في ثوب جديد تتحقق فيه عناصر الفصاحة والجمال . وقد بدا ذلك متحققاً فيما سلف من الشعر .

٣ — نقل المعنى من غرض الى آخر :

وقد مهد الصفدي لهذا بقوله : « والذي نقله أئمة الأدب عن الجاحظ أنه قال : وجدنا المعاني تُقلب ويؤخذ بعضها من بعض ، إلا قول عنترة في الذباب :

وخَلا الذُّبابُ بها فلَيس ببَارِحٍ غَرِداً كَفِعْلِ الشّارِبِ المُتَرَنِّمِ
هَزِجاً يَحُكُّ ذِراعَهُ بِذِراعِـــهِ قَدْحَ المُكِبِّ على الزِّنادِ الأَجْذَمِ

« غير أن ذا الرمة نقل معنى الصفة إلى الجندب فقال :

كأَنَّ رِجْلَيهِ رِجْلا مُقْطِفٍ عَجِلٍ إذا تَجاذَبَ مِنْ بُرْدَيْه تَرْنيمُ »[2]

« ومن قول ابن الرومي :

كَدأْبِ عَليٍّ في المَواطِنِ جَدِّهِ أبي حَسَنٍ والغُصْنُ مِنْ حَيْثُ يَخرجُ

« وقد نقلت أنا هذا المعنى إلى الغزل . فقلت في مليح رأيته في طاقة :

رأَيتُ في طاقَةٍ كالبَدْرِ وَجهَ فَتىً فَقُلْتُ مِنْ تَحْتِ هذا البانَةُ النَضِرَهْ

(١) نصرة الثائر ص ٢٠٨
(٢) « « ١٩٧ وما بعدها

قالوا حكمتَ وما أبصرتَ قامتَهُ   فقلتُ إني عرفتُ الغصنَ بالثَّمَرَهْ[1]

« وقال مسلم بن الوليد :

فَغطَّتْ بأيديها ثِمارَ نحورِها   كأيدي الأسارى أثقلتْها الجوامعُ

« نقل السُّلامي هذا المعنى إلى الزنبور فقال :

إذا حكَّ أعلى رأسِهِ فكأنَّما   بسالفتيهِ مِنْ يديهِ جوامِعُ[2]

٤ — عكس المعنى الى ضده :

يقول فيه الصفدي : « وهو في التشبيه كثير ، لأن التشبيه واقع بين طرفين، شبيه ومشبه به ، فإذا شبهت النجوم بالشرار جاز ان تشبه الشرار بالنجوم ، واذا شبهت البرق بالسيف جاز أن تشبه السيف بالبرق ، واذا شبهت الهلال بالقلامة جاز ان تشبه القُلامة بالهلال .

« قال ابن المعتز :

ولاحَ ضوءُ هِلالٍ كادَ يفضحُنا   مثلُ القُلامةِ إذ قُدَّتْ من الظُّفُرِ

« وعكس ذلك سعد الدين بن عربي فقال في مليح قلّم أظفاره :

أبعدتَ ظُفرَكَ وهوَ بعضُكَ فالذي   يهواكَ أجدرُ بالبِعادِ الأطولِ

فأجابني أتظنُّني قلَّمتُها   عن حاجةٍ لا بلْ لِمعنًى عَنَّ لي

(١) نصرة الثائر ص ١٢٩

(٢) « « ٢٠٣

لأُريك يا مَنْ بالهِلالِ يَقيسُني أنَّ الهِلالَ قُلامَةٌ مِنْ أَنْمُلي

« وعكست أنا قول بعضهم في الورد :

كأنَّ احْمِرارَ الوَرْدِ والطَلُّ فَوْقَه خُدودٌ تَوالَى فَوْقَها الدَّمْعُ بالوَكْفِ

« فقلت من أبيات :

أَقْسَمْتُ ماسَجَعَتْ وُرْقُ الحَمائِمِ في رَوْضٍ على مِثْلِ عِطْفَيْهاولا صَدَحَتْ

وكُلَّما اعْتَدَلَتْ بالمَيْلِ قامَتُهـا رَأَيْتُهافَوقَ حُسْنِ الغُصْنِ قدرَجَحَتْ

وما اكْتَسَى خَدُّها مِنْ لُؤْلُؤٍ عَرَقاً لكنَّها وَرْدَةٌ بالطَلِّ قد رَشَحَتْ[١]

وعلى هذا فعكس المعنى إلى ضده هو استناد كامل على المعنى السابق ، لا يبذل فيه الشاعر العاكس شيئاً يذكر من جهد وفكر أو خيال .

٥ ــ التضمين :

وهو نوع من التسلق على معاني السابقين ؛ والاستنـــاد إلى دعائمهم في شد جـوانب البيت ، وقد زاد انتشارُه في هذا العصر حتى لم يَخْـلُ منه شاعر ، وأضحى اعتمادهم عليه ، وغدونا نسمع بمن شاطره التضمين شعره إذ قال مجير الدين محمد بن تميم :

أُطـالِـعُ كُلَّ دِيوانٍ أَراهُ ولَمْ أَزْجُرْ عن التَّضْمينِ طَيْري

أُضَمِّنُ كُلَّ بَيْتٍ فيـه مَعْنى فَشِعْري نِصْفُهُ مِنْ شِعْرِ غَيْري

---

(١) نصرة الثائر ١٩٢ وما بعدها

« ونقلت من خط سراج الدين عمر الوراق له :

تَوارَتْ مِنَ الواشي بِلَيْلِ ذَوائبٍ   له من جَبينٍ واضحٍ تَحْتَهُ فَجْرُ
فَدَلَّ عليهـــا شَعْرُها بِظَلامِهِ   وفي اللَّيْلَةِ الظَّلْماءِ يُفْتَقَدُ البَدْرُ

« وكتبتُ على مجلد قديم قد رث :

مَلَكْتُ كتاباً أَخلقَ الدَّهرُ جِلْدَهُ   وما أَحدٌ في دَهْرِهِ بِمُخَـــلَّدِ
إذا عايَنَتْ كُتْبي الجَديدةُ حالَهُ   يقولون لا تَهلِكْ أسىً وَتَجَلَّدِ »[١]

٦ ــ الاقتباس من القرآن الكريم :

لم يترك أدباء هذا العصر ــ وقد جفت قرائحهم ــ مصدراً لاقتناص المعاني وتحصيلها ؛ إلا سعوْا اليه واخذوا منه ، وكان القرآن الكريم ببيانه المعجــز وأسلوبه العلوي ؛ أجدر هذه المصادر باهتمامهم ، فراحوا يقتبسون منه ، ويشدون بذلك من أزر أساليبهم ، حتى غدا وجود آية في النص الأدبي أدعى لقبوله ودفع الإيراد عليه .

من ذلك تعليق الصفدي على عبارة لابن الاثير ، يذكر فيهـا هدية رطب لبعض ملوك الشام جاء فيها : « ولما استقلت به الطريق أنشأ الحسد لغـــيره من الفواكه أربا ، وما منها إلا أن قال ياليتني كنت رطبا ، فقال الصفدي : « وأين هذا من قول أبي الحسين الجزار :

قُلْتُ لمّا سَكَبَ السّا   قي على الأَرْضِ الشَّرابا
غَيْرَةً مِـــنّي عليهِ   لَيْتَــني كُنْتُ تُرابا

---

(١) الغيث المسجم ٢/١٧٣ وما بعدها

فإن هذا اتى بلفظ القرآن العظيم ، فكان له في السمع وقع ، وفي القلب حلاوة ، ولو كان قوله (ليتني كنت رطبا) بعض آية او بعض بيت او بعض مثل ، او معنى متداولاً فيه شيء فنقله إلى هذا لكان حسنا[1] » .

وقوله حول عبارة أخرى لابن الأثير ايضاً « ثم إنه ذكر النخل فوصفه بوصف غير طائل ، لولا انه ختم السجع ببعض آية من القرآن لكان سمجا[2] » .

« وقال ابن النبيه :

لو لم تَكُنْ إبْنَةُ العُنْقودِ رِيقَتَه ... لَمَا غدا خَدُّه القاني أبا لَهَبِ
تَبَّتْ يدا عاذلي فيه وَوَجْنَتُهُ ... حَمّالةُ الوَرْدِ لا حَمّالةُ الحَطَبِ[3]

« وبيت الطغرائي :

فإنْ جَنَحْتَ إليه فاتّخِذْ نَفَقاً ... في الأرْضِ أو سُلَّماً في الجوِّ فاعتَزِلِ

« الطغرائي اقتبس كلامه هنا من قوله تعالى : « وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت ان تبتغي نفقاً في الأرض او سلماً في السماء[4] » .

٧ — الاستمداد من الحديث الشريف :

قال ابن الأثير يصف حصار العدو لإحدى البلاد ، وحصار الثلج لهذا العدو : « والشتاء قد لقي عسكره من البرد بعسكره ، والسماء قد قابلته بأغبر وجهه لا بأخضره ، والأرض كأنها قرصة النقي وعسى أن تكون أرض محشره » .

---

(١) نصرة الثائر ٢٤٣
(٢) « « ٣٠١
(٣) « « ٣٢٥
(٤) الغيث المسجم ٢ / ٣٥

قال الصفدي : « ثم أخذ في ذكر اختراع المعنى من الحديث النبوي وهو : « إنكم تحشرون على أرض بيضاء كقرصة النقي[1] » .

٨ — التورية :

كما أغرم شعراء العصر بالتورية لما فيها من الإثارة ، وما أحسن قول مجير الدين بن تميم في اللينوفر :

غدا اللَّيْنَوْفَرُ المُصْفَرُّ يَحْكي النّـ .. ـجومَ فلا يُغادِرُها شَبيهـا
تَغوصُ العَيْنُ فيه إذا تجلَّى النّـ .. ـهارُ وفي الظَّلامِ يَغوصُ فيها

« وقد استخدم العين هنا في معنين : أولهما العين الباصرة ، والثاني العين الجارية[2] » .
« ونقلت من خط السراج الوراق له :

أنا الذي مَرِضْتُ شَهْراً كاملاً فما رأيْتُ عائداً ولا صِلَهْ[3] »

٩ — الإلغاز :

وقد عمد الصفدي إلى تعريف اللغز بقوله « اللغز هو أن تذكر شيئاً بصفات يشاركه فيها غيره ، فيرجع الذهن في ذلك إلى حيرة لايدري مصرفها إلى أي متصف منها بتلك الصفات ، لكونها تصدق من جهة وتكذب من أخرى . واشتقاقه من اللُّغَيْزَى ، وهي حفر يحفرها اليربوع تحت الأرض ويجعلها متشعبة يمنة ويسرة ليخفي أمره على من يقصده ، فإذا طلبه في واحد منها خرج من آخر .

(١) نصرة الثائر ٢١٥
(٢) « « ٢٣٢
(٣) الغيث المسجم ١ / ٣٣

ثم يقدّم لنا نموذجاً للإلغاز فيقول « ألا ترى أن السامع إذا سمع قول القائل :

جاريةٌ جاءتْ منَ الْهنْدِ ... يَحُثُّها السَّيْرُ إلى القَصْدِ
لها بَناتٌ لَسْنَ من جِنْسِها ... في حدِّهمْ جُزْنَ عنِ الحَدِّ
لَهُمْ قُرونٌ ولها حافرٌ ... وذاكَ من أغْرَبِ ما أُبْدِي
وأعْجَبُ الأشْياءِ أوْلادُها ... يُكَلِّمون النّاسَ في المَهْدِ

أخذ يقول في نفسه : في البيت الأول ، جارية جاءت من الهند يحثها السير . ما في ذا شيء . فإذا سمع الثاني : لها بنات لسن من جنسها ؛ رجع في الحيرة وفكر وقال : كيف يكنّ من غير جنس أمهن . !! فإذا سمع الثالث : لهم قرون ولها حافر ؛ زاد في حيرته وقال : لسن هؤلاء ولا أمهن من الأناسيّ . فإذا سمع الرابع : يكلمون الناس في المهد ؛ تأكدت حيرته ثم رجع إلى أنهن من الأناسي لإثبات المهد والكلام ، وأخذ يعمل فكرته في موجود متصف بهذه الصفات ، فإذا أعيى مال إلى الألفاظ المشتركة ، ونزله بقوة فكرته وإصابة حدسه على أن ذلك لايصدق إلا على الدست الذي للقاصد وريشه .

وما أحلى ما استعمل هذا الشاعر السير والحافر والتكليم . وهكذا يكون اللغز »[1]

« وأحسن من ذلك كله وألطف قول بعضهم في الخلخال :

ومَضْروبٍ بلا جُرْمٍ ... مَليحِ اللَّوْنِ مَعْشوقِ
لَهُ قَدٌّ الهِلالِ على ... مَليحِ القَدِّ مَمْشوقِ
وأَكْثَرُ ما يُرَى أَبَداً ... على الأمْشاطِ في السّوقِ

(١) نصرة الثائر ٣٤٧ وما بعدها

« وما أحلى قول القائل ملغزاً في دُمْلُج[1] :

إلى النِّساءِ يَلْتَجي وعِنْدَهُنَّ يوجَدُ
الجِسْمُ منه فِضّـةٌ والقَلْبُ منه جَلْمَدُ[2]

ويبدو أن الاهتمام بالألغاز كان بالغاً ، وأضحى باباً أصيلاً من أبواب شعر المقاطيع ، حتى ألفت فيه الكتب الخاصة ، منها كتاب الحظيري (الإعجاز في الأحاجي والألغاز) . الذي ذكره الصفدي في نصرة الثائر[3] .

١٠ ـــ استعمال مصطلحات النحو :

وقد كشف الصفدي عن شدة اهتمام الشعراء في استخدام هـــذه المصطلحات فقال : وهذا الباب أيضاً مما تقدم ، وسوره مما خرب وتهدم ، قد دخل الناس فيه أفواجا ، وراقت لآلئهم فيه انفراداً وازدواجا[4] .

« وما أحلى قول البهاء زهير :

لَمْ يَقْضِ زَيْدُكُمُ مِنْ وَصْلِكُمْ وَطَرَهْ ولا قَضَى لَيْـلُهُ في هَجْرِكُمْ سَحَرَهْ
تَرَكْتُمُ خَبَرِي في الهَجْرِ مُبْتَـدَأً وكُلُّ مَعْرِفَةٍ لي في الهَوَى نَكِرَهْ[5]

« وقال السراج الوراق يرثي الجزار :

---

(١) حلي يلبس في العضد .
(٢) نصرة الثائر ٣٤١ وما بعدها
(٣) « « ٣٤٢
(٤) « « ٣٢٦ .
(٥) « « ٣٧٦

نَصَبَ العَدَاوَةَ حاسِدُوكَ فأُعْقِبوا ... جَزْمَاً لأَلْسُنِهِمْ وَخَفْضِ الشَّانِ
فَتَى أَراهُمْ أَدْبَرُوا ورُؤُسُهمْ ... مَرْفُوعَةٌ بِعَوامِـــلِ المُرَّانِ

١١ ــ حسن التعليل :

مستفيدين في ذلك من معطيات الثقافة ، معتمدين قوة العارضة المنطقية . هذا شمس المعالي قابوس يعلل لتدني منزلته فيقول :

أَمَا تَرَى البَحْرَ تَعْلو فَوْقَهُ جِيَفٌ ... وَتَسْتَقِرُّ بِأَقْصَى قَعْرِهِ الدُّرَرُ
وفي السَّماءِ نُجومٌ لا عِدادَ لَها ... وليس يُكْسَفُ إلاَّ الشَّمْسُ والْقَمَرُ»(١)

وقال بعض الشعراء :

إِقْنَــــعْ بِأَيْسَرِ شَيْءٍ أَنْتَ نائلُهُ ... واصْبِرْ ولا تَتَعَرَّضْ للوِلاياتِ
فما صفا النِّيـلُ إلا وَهْوَ مُنْتَقِصٌ ... ولا تَكَــدَّرَ إلا في الزِّياداتِ(٢)

وقال بعضهم :

أَمْسَيْتُ أَرْحَمُ أُتْرُجّاً وأَحْسَبُهُ ... في صُفْرَةِ اللَّوْنِ مِنْ بَعْضِ المَساكِينِ
عَجِبْتُ منه فما أَدري أَصُفْرَتُهُ ... مِنْ فُرقةِ الغصنِ أَمْ خوفِ السكاكِينِ(٣)

---

(١) الغيث المسجم ٢/١٦٧
(٢) « « ٢/٢٠٩
(٣) « « ٢/٢٠٠

١٢ — التلاعب اللفظي :

لقد كان ميدان الألفاظ والتصرف بها أوسع الميادين التي بقيت لشعراء هذا العصر كما رأوا ، فتزاحموا فيه يقدمون أعمالاً غريبة وألاعيب عجيبة ؛ مما سترد نماذجه فيما يلي :

« من ذلك قطعة إذا قرئت لاتتحرك فيها الشفتان . وهي :

هاأَنَذا عارِي الجَلَدْ   أَسْهَرَني الذي رَقَدْ
آهِ لِعَيْنٍ نَظَرَتْ   إلى غَزالٍ ذي غَيَدْ
أَرَيْتَني يا ناظِري   صَيْدَ الغَزالِ الأَسَدْ .. الخ

« وكذلك قطعة أنصافها الأول معجمة والثواني مهملة . منها :

بي شَغَفٌ شَبَّ بين جَنْبَيَّ   دواؤهُ الوُدُّ وَالوِصالُ
يَبُثُّ بَثِّي خَفِيَّ غَيْظٍ   أَحْوَرُ مَوْعُودُهُ مُحالُ
زَيْنَ بِشَيْئَيْنِ غُنْجِ جَفْنٍ   ومُلْحِ دَلٍّ له كَمالُ

« وقول الفاضل :

يا غادياً شِبْهَ السَّفِـ   ـيهِ وعائداًمِثْلَ الحَليمْ
ضَيَّعْتَ مِقْرَعَةً وعُدْ   تَ شَبيهَهَا من غَيْرِ ميم[١] »

« وما أحسن قول الأرجاني :

---

(١) الغيث المسجم ٢١٨/٢

كُنَّا جميعاً والدَّارُ تَجْمَعُنـا مثلَ حُروفِ الجَميعِ مُلْتَصِقَةْ
واليومَ جاءَ الوَداعُ يَجْعَلُنا مثلَ حُروفِ الوداعِ مُفْتَرِقَه[1]

« وعلى ذكر القلب فما أحسن قول القائل :

جاذَبْتُها والرِّيحُ تَضْرِبُ عقْرَباً مِنْ فَوْقِ خَدٍّ مِثْلِ قَلْبِ العَقْرَبِ
فَتَمايَلَتْ عَجَباً وصَدَّتْ وانْثَنَتْ وتَسَتَّرَت عَنِّي بِقَلْبِ العَقْرَبِ[2]

« ومن ذلك قول القائل :

قالَت لِتِرْبٍ مَعَهَا مُنْكِرَةً لِوَقْفَتي ، هذا الذي نَراهُ مَنْ ؟
قالَت : فتىً يَشْكو الهَوى مُتَيَّمٌ قالَت بِمَنْ ؟ قالَت بمن قالت بِمَنْ

« وهذا في غاية الحسن ، يظن السامع له من أول وهلة أنه من باب التكرار وتحصيل الحاصل . الى أن يشحذ ذهنه ويتأمل غرض الشاعر فيرقص له طرباً[3] » .

« وكذلك قول القائل :

لَبِقٌ أَقْبَلَ فيهِ هَيَفٌ كُلَّما أَمْلِكُ إِنْ غَنَّى هِبَهْ

« فان كل كلمتين من هذا لايتغير معناها بالانعكاس الا القافية ، فانها في نفسها معلومة . وليس على ذلك أثر كلفة .

« ومثله قول القائل :

---

(١) الغيث ٢/٤٠٠
(٢) « ٢/٤٠٣
(٣) « ٢/٣٨٩

رَقَّتْ شَمَائِـلُ قاتِلي فَلِذاكَ رُوحِي لا تَقَرّْ
رَدَّ الحَبِيبُ جَوابَـهُ فَكَأَنَّهُ في اللَّفْظِ دُرّْ

أول كل بيت عكس الكلمة الأخيرة منه وليس عليه كلفة .

« وقد وجدت للقاضي الفاضل ـ رحمه الله تعالى ـ خطبة وضعها لدخول العام الجديد وهي طويلة ، كلها عري عن الإعجام . وهي في غاية الحسن .

« ووجدت الوراق الحظيري قد تكلف أشياء من هذه الأنواع ، ومن ذلك بيتان كل كلمة منها مهموزة وهما :

بِأَبِي أَغْيَدُ أَذَابَ فُؤَادِي إِذ تَنَاءَى وأَظْهَرَ الإِعْرَاضا
رَشَأٌ يَأْلَفُ الجفاءَ فَإِنْ أَوْ بَلَ أَبْدَى لآمليهِ انْقِباضا

وفي انقباض نظر (١) » :

فهذه نماذج من التجديد بطريق التفنن في استخدام الألفاظ وتقليبها ، بل إنه الألاعيب اللفظية التي ظن القوم أنهم إنما بلغوا بها وبأمثالها محط الرحال ؛ مما لم يأت به أحد قبلهم .

١٣ ــ الغلو والإغراب :

من ذلك قول الشاعر :

ولمّا ٱلتقَى الواشُونَ والرَّكْبُ ظاعِنٌ وَقد رامَ للتَّوْدِيعِ مني تَدانِيـــا

---

(١) نصرة الثائر ٣٧١ وما بعدها

بَدَتْ في مُحَيّاهُ خيالاتُ أَدْمُعِي   صَفاء ، فظنُّوهُ بَكَى لِبُكائيا

وقال الآخر :

وَمُهَفْهَفٍ قَسَمَ الإلهُ مِثالَهُ   نِصْفَيْن من غُصُنٍ ومنْ رَمْلِ
فإذا تَأَمَّلَ في الزُّجاجَةِ ظِلَّهُ   جَرَحَتْهُ مُقْلَةُ لَحْظِهِ الظِلِّ[1]

١٤ — الإطراف :

وهي أن يأتي الشاعر بالمعاني الرشيقة الطريفة ، فتكون منها صورة غير مألوفة تنفرج لها الشفتان بابتسامة ما .

من ذلك قول الصفدي في خفقان القلب :

لمّا رَقَدْتُ أَتى خيالُكَ بَغْتَةً   فَغَدا فُؤادي خافِقاً يَتَموَّجُ
لوْ أَنَّ صَحْبِي شاهَدوني في الكَرَى   وَالقَلْبُ يَرْقُصُ في الخَيالِ تَفَرَّجوا[2]

ومنه قول الأرجاني :

وقالوا انْتَبِهْ مِنْ رَقْدَةِ اللَّهْوِ والصِّبا   فقد لاحَ صُبْحٌ في دُجاكَ عَجيبُ
فَقُلْتُ : أَخِلاَّني دعوني ولذتي   فإنَّ الكرى عند الصباحِ يطيبُ

---

(١) الغيث المسجم ٢/٣٩٣
(٢) نصرة الثائر ٢٢٤

١٥ ــ الإشكال :

وقد وجدت لأبي الحسن الطوسي الفقيه بيتين ؛ يُسأل عن معنى الثاني منها وهما :

مَنَّيْنَنِي حِيناً فَلَمَّا ... أنْ مَلِلْتُ مِنَ التَّمَنِّي
عَرَّضْنَ لِي بالوَصْلِ حَتَّى ... قُلْتُ قَدْ أَعْرَضْنَ عَنِّي

« الإشكال فيه أنه كيف يعرضن له بالوصل وهو يدعي أنهن اعرضن عنه ، والمعرض لا يعرّض بالوصل ، والجواب : إن (قد) هنا بمعنى حسْب . وذلك أحد مواردها . كقول أبي تمام : (قَدْكَ اتّئِبْ أربيت في الغلواء) أي حسبك .

« والمعنى : منينني زمانا إلى أن مللت ، ثم عرّضن لي بالوصال حتى إذا قلت هذا حسبي أعرضن عني .

« واتفق لي فيما قلت بيتان ثانيها مشكل . وهما :

قال وقَدْ أَبْصَرَ دَمْعي دَماً ... هـذا وما رُعْتُكَ بالبَيْنِ
فَقُلْتُ : لمّا فَنِيَتْ أَدْمُعي ... بَكَيْتُ بالدَّمْعِ بلا عَيْنِ

« الإشكال في ذلك ، أنه كيف يعترف بأن دموعه فنيت ونفدت ، ثم يقول بعد ذلك بكيت بالدمع بلا عين . وكيف يتفق البكاء بلا عين .. والجواب : انه قال أولاً إنه أبصره وقد بكى دماً فأنكر عليه ذلك . فقال : لما نفدت الدموع ولم يبق لي دمع بكيت بالدم . والعين هنا إنما يراد بها أحد حروف الهجاء أخت الغين المعجمة لا العين التي هي الجارحة من الانسان حاسة البصر . فإن الدمع إذا حذفت منه العين كان دماً[1] » .

---

(١) نصرة الثائر ٢٠٧

١٦ — أسماء الخلفاء :

قال الصفدي : « وهذا الباب ـ أعني أسماء الخلفاء في الألقاب ـ مما جسر الناس على دخوله ، وعبره كل أحد من المتأدبين وتصرف في محصوله . فإنه سلس القيـاد في التورية إذا جُذب ، وسريع الارتفاع إذا أقيم او نصب . قـال ابن سناء الملك :

بايَعَتْـهُ يـدُ السَّعادَةِ والبيـ عةُ قد كَرَّرَتْ عليهِ اليَمينُ
واصْطَفاهُ الرَّأيُ الرَّشيدُ على العا لَمِ فهو الأمينُ والمأمونُ

« وقال سيف الدين المُشِدّ بن قَزْل :

يا أَهلَ وُدّي دَعْوَةً من مُدْنَفٍ خَفِيَتْ شِكايَتُهُ عن العُوّادِ
تاللهِ ما جَلَدي عليْكُمْ طائِعٌ كلاَّ ولا واللهِ قَلْبي الهادي

« وقال مجير الدين محمد بن تميم :

يا مُؤْثِراً قَصْدي حَماةَ وخِدْمَتي سُلْطانُها من بَعدِ كُلِّ أَميرِ
أنا واثِقٌ بِرَشيدِ رَأْيِكَ طائِعٌ لأَمينِهِ الهادِي إلى المَنْصورِ »(١)

١٧ — أسماء سور القرآن الكريم :

يقول الصفدي « وعلى الجملة فهذه الأشياء قد انتهك المتأخرون حرمتهـا ، ومنعوا من الآباء عصمتها ، خصوصاً أسماء الخلفاء كما تقدم ، وألقاب الإعراب وقد

(١) نصرة الثائر ٣٢٥ وما بعدها

تقدم ، وأسماء سور القرآن . كما قال أبو الحسين الجزار يمدح فخر القضاة نصر الله ابن بصاقة :

وَكَم لَيْلَةٍ قد بِتُّها مُعْسِراً وَلِي | بِزُخْرُفِ آمالي كُنُوزٌ من اليُسْرِ
أقولُ لِفَقْرِى كُلَّما اشْتَقْتُ لِلْغِنَى | إذا جاءَ نصرُ اللهِ تَبَّتْ يَدُ الفَقْرِ

وكما قال ايضاً وقد خلع على شاعر أسود ولم يخلع عليه ، يخاطب جمال الدين ابن رمضان :

غَيْرُ خافٍ عَنْكَ الّذي نالَهُ الأَسْـ | ـوَدُ بالأَمسِ من نَدَى السُّلْطانِ
وتَمَشِّيهِ بالعِمَــامةِ والثَّوْ | بِ ومِنديلِ الكُمِّ والطَّيْلَسانِ
قُلْتُ إذ فُصِّلَتْ عليه أرَى الزُّخْـ | ـرُفَ يُتْلَى بالنَّصِّ فَوْقَ الدُّخانِ

وكما قال سيف الدين بن قزل :

أقسِمُ مِنْ جَفْنِيَ بالذّارياتْ | ومِن دُموعِ العَيْنِ بالمُرْسَلاتْ
أنّي على الإخْلاصِ في حُبِّكُمْ | حتى تُرَى روحيَ في النّازِعاتْ

١٨ — أسماء المنازل والكواكب :

وهذه تسربت إليهم من ثقافة العصر . وإن دل استخدامهم لهذه المصطلحات في شعرهم على شيء ، فعلى سطحية تفاعلهم مع هذه العلوم ؛ النــاجم بالتالي عن سطحية اطلاعهم عليها .

يقول « العدل برهان الدين بن الفقيه نصر :

بِخِدْمَتِكُمْ لم أَنَلْ طائِلاً | ومِيزانُ نَقْصي بِكُمْ راجِحْ

فَفي الطَّرْفِ من أدْمُعِي نَثْرَةٌ   وفي القَلْبِ من سَعدِكُمْ ذابِحُ »[1]

كما قال ابن قزْل :

بَدْرٌ جَعَلْتُ القَلْبَ أَخْبِيَةً له   كي لا يَراهُ رَقيبُهُ العَوّاءُ
خَلَعَتْ عليهِ الشَّمْسُ رَوْنَقَ حُسْنِهِ   وَحَبَتْهُ رَوْنَقَ ثَغْرِهِ ٱلْجَوزاءُ »

وكما قال الآخر في مليح يحرث :

ياحارِثاً تُرْوَى مَقاماتُ ٱلْهوَى   عَنْ طَرْفِهِ الفَتّاكِ غيرَ مُؤَوّلَهْ
أَضحَى يَشُقُّ لُحُودَ مَن قَتَلَ ٱلْهوَى   في حَرثِهِ ليسَت خطوطاً مُهمَلَه
روحي الفِداءُ لِبَدرِ تِمٍّ سائقٍ   لِلثَّورِ لَيسَ يَرومُ غَيرَ السُّنبُلَه »[2]

١٩ ـ أسماء مشايخ العلوم :

« كما قال أبو الحسين الجزار :

إنَّ فَصلَ الشِّتاءِ مُنذُ نَحا جِسـ   ـمِيَ أَبدَت بيانَهُ الأعضاءُ
فيه عَظمِي ٱلْمُبَرِّدُ إذ عَنَّ ٱلْكِسائِيُّ   واحـــتَمَى ٱلْفَرّاءُ

وكما قال ناصر الدين حسن بن النقيب :

يا مَن مَقاماتُه في ٱلْجودِ مُذْهَبَةٌ   ومَن تَشاريفُهُ وَشيٌ ودِيباجُ

(١) نصرة الثائر ٢٦١
(٢) « « ٣٣٠

أَعطَيتَني جَسَداً مُلقىً ولَيسَ بِهِ   رُوحٌ ، ولِلبَردِ إقلاقٌ وإزعاجُ
وليسَ عن فَروَةٍ تَحتَ الحَريرِ غنىً   إنَّ الحَريريَّ للفَرّاءِ مُحتـــاجُ

وكما قال مجير الدين محمد بن تميم :

وصادِحَةٍ تَرَدَّدَ لي غِنَاها   فَتُطرِبُنى وأَجهَلُ ما تَقولُ
بِلَحنٍ حارَ إبراهيمُ فيهِ   وَوَزنٍ ليس يَعرِفُهُ ٱلخليلُ

٢٠ — أسماء الكتب :

وفي اتخاذهم من أسماء الكتب منفذاً للتجديد في المعاني ؛ لم يعدموا فيهـــا ميداناً للتنافس ، فتسابقوا في عدد الأسماء التي يوردها الشاعر في الأبيات القليلة . ومن ذلك قول الشاعر :

ياسائِلي مِن بَعدِهِم عن حالتي   تَركُ ٱلجَوابِ جَوابُ هذي المَسأَلَه
حالي إذا حَدَّثتُ لا جُمَلاً ولا   لُمَعاً لإيضاحي لها من تَكْمِلَه
عندي جَوىً يَذَرُ ٱلفَصيحَ مُبَلَّداً   فاترُكْ مُفَصَّلَهُ ودُونَكَ مُجْمَلَه
ٱلقَلبُ ليس من الصِّحاحِ فيُرتَجى   إصلاحُهُ والعَينُ سُحبٌ مُثقَلَه

وعقب الصفدي بقوله « وقد ذكر في هذه الثلاثة ، عشرة أسماء من تصانيف الأدب.

كما قال ابن قزل في مليح يلعب بالقانون :

تَرَى ابنَ سِيناءَ في يَدَيهِ   أَقَلَّ مَلعوبِهِ الغِناءُ

(١) نصرة الثائر ٣٢٩

قانونُه المُرتَضَى نَجاةٌ كلُّ إشاراتِه شِفاءُ

« وقد ذكر في البيت الثاني على قصر بحره من مصنفات الرئيس[1] أربعة كتب.

وهذا كله ليس بشيء فقد « نظم شرف الدين القدسي ـ رحمه الله ـ قصيدة تقارب الخمسين بيتاً جمع فيها جملة من كتب التفسير والحديث والفقه والنحو واللغة وغير ذلك ، وذكر مشايخ العلوم وغيرهم وكلها غزل ، وأسماء البروج الاثني عشر والمنازل . . »[2] .

وهنا يقدم إلينا الصفدي آخر ما رصده من منافذ التجديد وهو :

٢١ ـ أسماء مشاهير العرب :

وينقل لنا بعضاً مما قاله الشعراء في هذا فيبدأ بقول ابن سناء الملك :

إني على ما كان شُغلي بالهَوَى لم يَشتَغِل وبَطالتي لم تبطُلِ
أَنا جَدُّ أَنصارِ النَّبيِّ لأَنَّني يا أشهَلَ العينَينِ عبدُ الأَشهَلِ

وقول ابن قزل :

عُدتُ فيه جاهِليَّ الـ ـحُبِّ مِن غيرِ تَعَدّي
لَحظُ عَيني عَبدُ شَمسٍ وفُؤادي عَبدُ وُدِّ

وكما قال شمس الدين محمد بن التلمساني :

وما كُنتُ مجنونَ الهَوَى قَبلَ أن يُرَى لِقَلبِيَ مِن صُدغَيكَ في الأَسرِ عاقِلُ

---

(١) الرئيس هو ابن سينا .
(١) نصرة الثائر ٢٢٩

خاتمة

وهكذا نعود من جولتنا هذه مع الصفدي وكتابه بحصيلتين مرجوتين :

— اولاهما الصورة الوافية للصفدي الناقد بتفصيلاتها اللازمة وخطوطها المميزة وذلك في الفصول الأربعة الأولى .

— وثانيها المعرفة العامة التي اطمأنت في أذهاننا عن أحوال العصر الأدبية تحت أضواء الفصول الثلاثة التالية .

أما ما يتعلق بالصفدي الناقد ، فقد أدركنا كيف تحول مفهوم نقاد هذا العصر عما كنا نألف في القرون الأولى ؛ فقد زال من أذهان هؤلاء تقديس القديم لقدمه فحسب ، وغدوا يضعون أدبهم وأدباءهم على قدم المساواة مع إنتاج العصور السابقة وأصحابه ، فلا تتفاوت منازلهم إلا بما يكون لكل منهم من تميز فني ، وقد رأينا الصفدي وهو يقرر ان ادباء عصره قد بلغوا الرحال (١) ، من خلال مقاييس عصره بطبيعة الحال ، وهي ناحية هامة ترتب عليها نتائج خطيرة في حقل التراث الأدبي، إذ بفضلها حفل هؤلاء بنتاج العصر واهتموا بجمعه ، ووصلت إلينا من صنعهم مجموعات من الشعر جمة ، حملت في طياتها كل ما نتوق إلى كشفه من احوال الأدب وغيره عبر قرون متطاولة .

وإن احتاج هذا القول إلى دليل ؛ فهذه نماذج الشعر التي أوردها الصفدي في كتابه بين أيدينا ، وقد جمع فيها من نتاج العصور منذ الجاهلية وإن غلب عليها شعر القرون المتأخرة .

---

(١) نصرة الثائر ٣٣١

وهذه نقطة أخرى قد تكون نتيجة لسابقتها ، تلك هي مقاييس العصر النقدية التي استمدوها من أرفع النماذج الأدبية في نظرهم ومن خلال أذواقهم ، فلم تعُد قصائدهم تتقيد بمنهج القصيدة الجاهلية ، وانتهى عندهم بهاء عمود الشعر وتأثيره القديم ؛ فمال نظمهم بالتالي إلى الاهتمام بالشكل والصنعة اللفظية . علماً بأن هذه المقاييس الفنية المستمدة لديهم لم تكن تنفرد وحدها بالحكم ، بل زاحمتها وربما اشتطت في ذلك .. اعتبارات خارجية أخرى .

أما النتائج المتعلقة بالعصر فأبرزها أن لا سرقة عندهم ، والمعنى ملك لمن يجيد التعبير عنه ، فكان من أثر ذلك أبواب للأخذ جديدة تحت أسماء شتى من الاقتباس والاستمداد والتضمين وغير ذلك[1] ، وغدت المعارضات مشروعة مفضلة فيا لو تمكن اللاحق من مطاولة السابق .

كما عرفنا أن المفهوم الغالب للنقد هو التعصب والخصومة ، حتى كانت المؤاخذة والتقريظ كلمتين تصنفان كل من يتصدى للأثر الأدبي بالمعالجة وبسط القول.

ونخلص إلى القول بأن كتاب الصفدي « نصرة الثائر » من الكتب النادرة خلال فترة طويلة من الزمن قد تتجاوز فترة العصور التي نشير إليها . فهو من أبرز الكتب في النقد التطبيقي في عصر طغت فيه مقاييس البلاغة وتفريعاتها والتفنن في الزيادة عليها ، حتى غدت قوالب وأصولاً تُلجم القول وتلغي الذوق وتحنط التعبير ، وأمست تنافس قواعد النحو في ثباتها وحتمية مراعاتها والتقيد بحدودها .

فجاء كتاب الصفدي ، بالتطبيق المطلق ليرفع لواء الذوق ، ويقيم لتأثر المتلقي وتفاعله مع النص وجوداً ، ثم ليكون الحكم ناجماً عن الموازنة بين النصوص من حيث وفاؤها بالمعنى يتهادى بالثوب الفني المثير .

وإن كان في هذه الدراسة من جديد ، فإنني لأظنها من أوائل الأبحاث الشاملة المتأنية ؛ التي طافت في مجاهل العصور المتأخرة وغاباتها العذراء الوعرة .

---

(١) انظر الفصل السابع « منافذ التجديد »

جامعة الكويت كلية الآداب
الرقم التسلسلي ١٨١٦٨

٩٥١٦

شرح تحفة الخليل في العروض / عبد الحميد الراضي

هذا الكتاب :

١ ـ بحث شامل في قضايا النقد الأدبي في فترة القرن الهجري الثامن تصدق أحكامه وملاحظاته على الفترة الزمنية الممتدة من سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ إلى نهاية دولة المماليك في مصر والشام سنة ٩٢٢هـ.

٢ ـ اجتذبت شخصية صلاح الدين الصفدي الناقد شطراً من الاهتمام بوصفه واحداً من أبرز نقاد عصره؛ إن لم يكن أبرزهم على الإطلاق، مما يتيح اتخاذه نافذة ثرية للإطلال على العصر، وأوضاعه الأدبية والنقدية.

٣ ـ أول دراسة فنية، تتوغل لملامسة النتاج الأدبي ونقده، في الفترة الموسومة بعصور الانحدار، مما تؤكده نظرة معنية على فهرس موضوعات التي تناولتها المعالجة المتأنية.

والله الموفق

الناشر